جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بإيتاي البارود

الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم

مدخل إلى بلاغته

دكتور

وليد إبراهيم حمودة

مدرس البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية – إيتاي البارود

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد (ﷺ)، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،،،،

فسيبقى القرآن الكريم محتفظاً بإعجازه وأسراره إلى يوم الدين، وتلك شهادة رب العالمين ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩]، ويبقى حفظ الله – تعالى – لذكره حفظاً مطلقاً لا تحده حدود، فهو حفظ من التحريف والتبديل، وحفظ من أراجيف المبطلين، وحفظ من نيل شبهات الزائغين، وحفظ لألوان إعجازه، وأسرار بلاغته، وأفنان بيانه الكريم، حتى يبقى خالداً إلى أن تقوم الساعة ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢]، شاهداً على صدق صاحب الرسالة الخاتم سيدنا محمد (ﷺ) ومعلناً أنه (لا يخلق على كثرة الرد)، فيقتبس كلُّ جيل وكلُّ صاحب فكر وكلُّ باحثٍ عن الحق والهدى من القرآن ما يتطلع إليه مما يناسب جيلَهُ وفكرَه وذوقَه ومبادئه، دون أن يمسَّ الركائز والأسسَ الدينية أو الأخلاقية أو الاجتماعية، ولعل فى إطلاق الذكر على القرآن فى الآية ما يومئ إلى تلك المعانى.

وقد حمل القرآنُ بين طياته مكوناتِ بقائه وعواملَ ثرائه، فأمدَّ كُلَّ طالبٍ له، وكلَّ واردٍ عليه بما شاء الله، دون أن ينضب معينه أو تبلى جِدَّته، فَقَصَدَهُ كلُّ الناس، وطرق أبوابَهُ كلُّ ألوان البشر على اختلاف مشاربهم ونياتهم وعقائدهم وضمائر صدورهم، فنهلوا منه ولم ينالوا إلا ما ناله المخيط إذا أغمس فى البحر، فبقى عزيزاً شامخاً.

وكان من عوامل ثراء المعنى القرآنى وتجدده بتجدد الأجيال وتعاقب الأزمان، ذلك الاختلاف والتنوع فى تفسيره من ناحية المفردات والتراكيب أو أسباب النزول، أو ربطه بما يبينه من السنة النبوية الشريفة ...، فتعددت المعانى، وتزاحمت التأويلات فى الآية الواحدة، فاختلف المفسرون فى معنى المفردة القرآنية وخاصة حين كثرت المعاجم، ومع القول بالترادف والتضاد والاشتراك، ومع تعدد اللهجات، ثم اختلفوا فى المعنى تبعاً لقبول التركيب القرآنى أكثر من وجهٍ إعرابى صحيح تقبله اللغة، وتُعينُ عليه قواعدُها، ثم كان الاختلاف فى سبب ومناسبة نزول الآية عاملاً ثالثاً فى توجيه المعنى القرآنى والتحكم فى معطياته، وتباينت أفهامهم حين استحضروا السنة الشريفة وأرادوا أن يستنطقوا النصَّ القرآنى من خلالها، فضلاً عن تعدد قراءاته الكريمة.

والجميل والعجيب فى هذا الاختلاف أمورٌ كثيرةٌ، أخص من ذلك أمرين:

الأول: أنه لم يتعصب مفسرٌ لرأيه ولا لفهمه. **والثانى**: أنه يناقش غيره بأدب رفيع، يحتاج كثيرٌ ممن يدعون إلى طمس هذا التراث أن يتعلموا ذلك الأدب، فلا تجد فى مناقشات القدامى إلا أدباً وعلماً، وحجة بحجة، وفهماً بفهم، وهذه صفة مَنْ جعل القرآنَ همَّهُ وشُغْلَه، فتأدَّب بأدبه، ووقف عند حدوده.

كانت التراكيب القرآنية إذن عاملاً من عوامل ثراء المعنى القرآنى، من ناحية تحمّلها لإيراد أكثر من وجه إعرابى عليها، فبقيت آيات القرآن الكريم محلاً لاجتهادات جديدة، خاصة إذا كانت دراسات البلاغيين لم تضع مداخل بلاغية لفهم أسرار بعض التراكيب؛ فمن المعلوم أن الإمام عبد القاهر الجرجانى ٤٧١هـ (رحمه الله) حين وضع أسس نظرية النظم وأسسها على توخى معانى النحو فيما بين الكلم وأن يضع المتكلم كلامه الموضع الذى يقتضيه علم النحو، حين أسَّس ذلك ونظَّر له؛ أوْقعَ تطبيقاتِهِ على بعض التراكيب النحوية،

فأرشد إلى سُبُل فهمها بلاغياً، ومراعاة مقامات الكلام فيما يتباين منها، فطبَّق نظريته على التقديم والتأخير، الحذف، فروق الخبر، فروق الحال، الفصل والوصل، مواقع إنَّ، القصر ...، لكنه لم يستقص كلَّ تراكيب اللغة، فبقيت تراكيب نحوية عديدة لم يُوضَعْ لها خطٌّ بيانيٌّ ثابت يُتَلَمَّسُ به بلاغتُه فى القرآن الكريم؛ لأنَّ جميع مَنْ أتوا بعد عبد القاهر عُنُوا بنماذجه وتراكيبه التى درسها فقط، فأخذوا يعيدونها: فهماً وتلخيصاً وحاشية وتقريراً ...، دون أن يُصوّبوا جهودَهم إلى ما تركه عبد القاهر من أساليب تعج بها اللغة ويزخر بها كتاب الله تعالى، مثل: التمييز، التنازع، الاشتغال، الاستثناء بأنواعه، البدل بأقسامه، المفعول لأجله، المفعول المطلق، الحمل على المعنى بألوانه، التفضيل، التعجب ...، ولكنى أحمد الله – تعالى – أنْ سَخَّر جيلاً من الباحثين المعاصرين لخوض غمار مثل هذه الموضوعات[1]؛ فهم فى سبيل إكمال دراسة باقى التراكيب النحوية التى تركها عبد القاهر.

من هنا تأتى ضرورة هذا البحث "الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم – مدخل إلى بلاغته" إذ إن الاستثناء عموماً لم يدرسه عبد القاهر فى نظريته، وهو أسلوب ثريٌّ وبابٌ عظيم من أبواب النحو، ناهيك عن الاستثناء المنقطع خاصة، وما فيه من أسرار ودقائق.

ولَمَّا لم يدرس عبد القاهر هذا الأسلوب قلَّت تطبيقاته فى كتب التفسير، فأنت لا تعدم حديثاً بلاغياً يطول أحياناً فى مواضع الفصل والوصل والتقديم والتأخير والقصر ...، إلى

(١) أذكر من ذلك رسالة: (البدل المفرد فى القرآن الكريم – مواقعه وأسراره البلاغية) دكتوراه، د/ وليد إبراهيم حمودة، كلية اللغة العربية بإيتاى البارود ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م، و(مواقع البدل الجملة فى القرآن الكريم، مقاماته وسماته البلاغية) دكتوراه، د/ إسماعيل رفعت السودانى، كلية اللغة العربية بالمنوفية ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م، و(المصدر المؤول فى القرآن الكريم) للباحث/ مصطفى محمود عمارة، دكتوراه مسجلة بكلية اللغة العربية بإيتاى البارود.

غير ما أطال فيه البلاغيون، فنجد المفسرين ينصون على بلاغة ذلك فى مواضعه من القرآن الكريم، فى حين أنك تجد جُلَّ جهدهم فى مواضع الاستثناء المنقطع يتركز حول الخلاف فى كونه متصلاً أو منقطعاً، ثم يمضون فى مناقشات نحوية تنأى عن التوجيه البلاغى للأسلوب.

من هنا ظلت الأسرار البلاغية للاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم كامنةً، وخشى الكثيرُ الاقترابَ منها؛ لأن همَّ كثير من الباحثين فى بلاغة القرآن أن تقع يدُه على موضع يتسم بأحد أمرين أو كليهما معاً، وهما: أن يكون له تنظيرٌ طويلٌ عند البلاغيين، وأن يكون له تطبيقاتٌ واضحة فى كتب المفسرين، مما يجعل أمرَ البحث يسيراً وآمناً فى آنٍ.

من دوافع البحث فى هذا الموضوع أيضاً بيانُ مخاطر التأويل على البلاغة القرآنية؛ وهذا باب عريض ومتسع، وهو يطول كثيراً من أساليب القرآن الكريم التى تحدت العالمين؛ فمن المعلوم أن "إلا" فى الاستثناء المنقطع تقدر بـ "لكن" عند البصريين، وبـ "سوى" عند الكوفيين، ولجوءُ النحاة إلى هذا التقدير نابعٌ من عدم دخول المستثنى فى جنس المستثنى منه، فاضطروا إلى التقدير حتى يستقيم المعنى فى الأفهام، وسار على ذلك المفسرون، حتى إنك لا تكاد ترى شرحاً أو بلاغة لهذا الأسلوب عندهم فى كثير من مواضعه إلا أنه بمعنى "لكن" مقتصرين فى ذلك على ما ذكره النحاة، قاطعين بذلك الصلة بين القارئ والمستمع وبين اللفظ القرآنى المعجز الذى نزل على سيدنا محمد (ﷺ)؛ فتضيع علينا بذلك أجزاء من بلاغته، ويفوتنا كثير من المعانى العظيمة التى يطويها هذا التقدير.

وهدف الدراسة هو وضع مدخل للنظر فى بلاغة الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم بعيداً عن تقديرات النحاة، حيث أضع نصَّ القرآن فى المرتبة العليا، ذلكم النص الذى حصل به التحدى، أحاول فهمه وتبيُّنَ أسراره من خلال سياقه وما يعينُ على ذلك من آليات لا تبعد بنا عن هذا الهدف.

أما منهج الدراسة فهو وصفى تاريخى فى المبحثين الأول والثانى، وفنى تحليلىٌ فى المبحث الثالث.

وقد خرج هذا البحث فى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وفهرسين للمصادر والموضوعات.

ذكرت فى المقدمة أهمية الموضوع ودوافع اختياره ومنهج بحثه، وتناول المبحث الأول درس النحاة للاستثناء المنقطع، وتناول المبحث الثانى درس البلاغيين القدامى والمحدثين لهذا الباب، ثم أتى المبحث الثالث مشتملاً على دراسة بلاغية تحليلية لستة عشر موضعاً من مواضع الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم.

- واشتملت الخاتمة على أهم نتائج البحث.

وأسأل الله العلى العظيم أن يفتح علىّ فتوح العارفين بحكمته، وأن يعلمنى من لدنه علماً، وأن يرزقنى فهم أسرار آياته، إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

دكتور

وليد إبراهيم حمودة

مدرس البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية –إيتاى البارود

المبحث الأول
درس النـحـــــــــاة

أتناول هنا تعريف النحاة للاستثناء مطلقاً، ثم تعريف الاستثناء المنقطع، والفرق بينه وبين المتصل، والحكمَ الإعرابى للاستثناء المنقطع.

تعريف الاستثناء:

فى اللغة: مأخوذ من الثَّنْى بمعنى العطف، فثَنَيْتُ الشَّيءَ ثَنْياً أى عَطَفْتُهُ، والمستثنى هنا معطوفٌ على المستثنى منه بإخراجه من حكمه، وقيل: هو مأخوذ من الثَّنْى بمعنى الصرف، ففى اللسان: «وثَنَيْتُهُ أيضاً: صرفته عن حاجته» والاستثناء فيه صرفٌ للّفظ عن عمومه بإخراج المستثنى من أن يتناوله المستثنى منه، ففيه تخصيص بعد تعميم، وإخراج بعض من كل، وعلى هذا يكون «القوم» فى قولنا: قام القوم إلا زيداً، يراد به المجاز؛ لأننا ذكرنا الكل ونريد به بعض مدلوله مجازاً؛ لأن «زيداً» لم يكن داخلاً فى جملة القوم الذين قاموا حين تُكلِّم بذلك.

والقول بأن الاستثناء فيه صرفٌ للفظ عن عمومه قال به ابنُ يعيش ٦٤٣هـ، وهو ما فتح باباً لتكلف القول بالمجاز فى هذا الأسلوب، وخيرٌ منه تفسير الصبان ١٢٠٦هـ لمعنى الصرف بأن المستثنى مصروف عن حكم المستثنى منه(١).

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور (ثنى)، دار المعارف ط ثالثة، شرح المفصل لابن يعيش: ١/ ٧٥ – ٧٦ مكتبة المتنبى – القاهرة – بدون، الاستغناء فى الاستثناء للقرافى: ١٤-١٥، ت: محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت، ط أولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل: ١/ ٤٥٩، ت: تركى فرحان المصطفى – دار الكتب العلمية – بيروت ط ثانية ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، حاشية الصبان على شرح الأشمونى: ٢/ ٢٠٨، ت: محمود بن الجميل، مكتبة الصفا ط أولى ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

وقولهم بأن الاستثناء بمعنى العطف جعلهم يفرقون بين العطف والاستثناء، ثم إنهم لم يثبتوا للاستثناء إلا هذين المعنيين: العطف والصرف.

فى الاصطلاح:

عرفه ابن مالك ٦٧٢هـ بقوله: (هو المُخْرَجُ تحقيقاً أو تقديراً من مذكور أو متروك بإلا أو ما بمعناها بشرط الفائدة)[١].

(والعلاقة بين الاصطلاحى واللغوى بينة، ففى الإخراج صرف وردٌّ إلا أنه صرف ورد مخصوص اقتضاه الاصطلاح، والمستثنى معطوف عليه بإخراجه من حكم المستثنى منه، أو لأنه مصروف عن حكم المستثنى منه)[٢] وقوله: المخرَجُ، يعنى به المستثنى؛ ولذلك جعله كثير من النحويين عنوان الباب فقالوا: (باب المستثنى)[٣]؛ لأنه من أبواب المنصوبات،

(١) شرح التسهيل، لابن مالك: ٢/ ١٨٨، ت: محمد عبد القادر عطا، طارق فتحى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، وعرفه أبو حيان بقوله: (المستثنى هو المنسوب إليه خلاف المسند للاسم الذى قبله بواسطة إلا أو ما فى معناها) ارتشاف الضرب: ٣/ ١٤٩٧، ت: د/ رجب عثمان محمد – مكتبة الخانجى القاهرة، ط أولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، وعرفه الأشمونى بقوله: (الاستثناء هو الإخراج بإلا أو إحدى أخواتها لما كان داخلاً أو منزلاً منزلة الداخل) شرح الأشمونى مع الصبان: ٢/ ٢٠٨، وعرفه خالد الأزهرى بقوله: (المستثنى هو المخرج تحقيقاً أو تقديراً من مذكور أو متروك بإلا أو ما فى معناها بشرط الفائدة) شرح التصريح على التوضيح: ١/ ٥٣٧، ت: محمد باسل – دار الكتب العلمية – بيروت، ط أولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، وعرفه السيوطى بقوله: (المستثنى هو المخرج بإلا أو إحدى أخواتها بشرط الإفادة) همع الهوامع: ٣/ ٢٤٧، ت: د/ عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

(٢) دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين، د/ محمود توفيق : ٢٧١ وهبة أولى ١٤٣٠-٢٠٠٩.

(٣) منهم ابن الحاجب فى الكافية: ٢/ ١٢١، ت: عبد العال سالم مكرم. عالم الكتب ط أولى ١٤٢١ – ٢٠٠٠، أبو حيان فى ارتشاف الضرب: ٣/ ١٤٩٧، ابن هشام فى أوضح المسالك: ٢/ ٢١٩ ط=

والنصب هنا يكون للمستثنى، ثم إن جَعْل الكثيرين (المستثنى) عنواناً للباب يلفت إلى أنَّ العناية والاهتمام به أوفر وأعظم.

وأدوات الاستثناء ثمانٍ، هى: إلا، حاشا، ليس، لا يكون، خلا، عدا، غير، سوى[1].

واختلف فى عامل النصب فى المستثنى فأطال فى ذلك النحاة[2]، وهو غير مفيد لنا هنا.

الاستثناء المتصل والمنقطع:

دخل فى تعريف ابن مالك السابق نوعا الاستثناء؛ فقوله: «تحقيقاً» يعنى به الاستثناء المتصل، وقوله: «تقديراً» يعنى به الاستثناء المنقطع.

ومثال المتصل قوله تعالى: ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾[البقرة : ٢٤٩]، فقليلاً مستثنى من واو الجماعة، والقليل بعضٌ من المستثنى منه وجنسه أيضاً، فهو داخلٌ فيه تحقيقاً.

ومثال المنقطع قوله تعالى: ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾[النساء : ١٥٧]، فاتباع الظن مستثنى من العلم، وهو منقطع؛ لدخوله فى الأول تقديراً؛ إذ هو مستحضر بذكره لقيامه مقامه فى كثير من المواضع[3].

=المكتبة العصرية، ناظر الجيش فى شرح التسهيل: ٥/ ٢١٠٧ ط دار السلام، خالد الأزهرى فى شرح التصريح: ١/ ٥٣٧، السيوطى فى همع الهوامع: ٣/ ٢٤٧.

(١) ينظر: أوضح المسالك: ٢/ ١١٩ – ٢٢١.

(٢) ينظر: شرح الرضى: ٢/ ١٢٥ – ١٢٩، شرح المفصل لابن يعيش: ١/ ٧٦، شرح التسهيل لابن مالك: ٢/ ١٩٤ – ٢٠١، الاستغناء للقرافى ٦٧ – ٧٠، شرح ابن عقيل: ١/ ٢١١ دار التراث، ارتشاف الضرب: ٣/ ١٥٠٥، شرح التصريح: ١/ ٥٤١.

(٣) ينظر: شرح التسهيل لابن مالك: ٢/ ١٨٨، همع الهوامع : ٣/ ٢٤٩.

وقد تباينت أقوال النحاة فى وضع حدٍّ جامعٍ مانعٍ لكلٍ من المتصل والمنقطع، فمنهم من اعتمد «الجنس» ومنهم من اعتمد «البعض» ومنهم من اعتمد «الحكم».

فقيل فى المستثنى المتصل: هو ما كان من جنس المستثنى منه، مثل: جاء الطلابُ إلا محمداً.

والمستثنى المنقطع: هو ما كان من غير جنس المستثنى منه، مثل: جاء الطلابُ إلا سيارة.

وقال فريق ثانٍ : المتصل: هو ما كان المستثنى فيه بعض المستثنى منه.

والمنقطع: هو ما لا يكون المستثنى فيه بعض المستثنى منه، قال ابن مالك: (وذكر البعضية فى قولى: (وهو إذا ما كان بعضاً متصل أولى من ذكر الجنسية؛ لأن المستثنى قد يكون بعض ما هو من جنسه وهو منقطع غير متصل، كقولك: قام بنوك إلا ابن زيد، فتبيَّن ما فى ذكر البعضية من المزية على ذكر الجنسية)[1].

وقال شهاب الدين القرافى ٦٨٤هـ:

المتصل: أن تحكم على جنس ما حكمت به أولاً بنقيض ما حكمت به أولاً.

والمنقطع: أن تحكم على غير جنس ما حكمت عليه أولاً أو بغير نقيض ما حكمت به أولاً، ثم وضَّح ذلك بالأمثلة[2].

يقول الدكتور على فاخر معلقاً على هذه التعريفات:

---

(١) شرح الكافية الشافية، لابن مالك: ١/ ٣١٥، ويراجع: شرح ابن طولون: ١/ ٣٩٣، شرح المقرب: ٢/ ٩١٨ – ٩١٩، ارتشاف الضرب: ٣/ ١٥٠٠، شرح التصريح: ١/ ٥٤٢، حاشية الخضرى: ١/ ٤٦١، همع الهوامع: ٣/ ٢٤٨، وقال ابن مالك فى شرح التسهيل: المتصل: هو ما لو لم يستثن لدخل، والمنقطع هو ما لو لم يستثن لم يدخل .. ينظر: شرح التسهيل: ٢/ ١٨٨.

(٢) ينظر: الاستغناء فى الاستثناء: ٢٩٦، وحاشية الصبان: ٢/ ٢١٠.

(وتضييق دائرة المتصل بالجنس أو البعض والحكم بالنقيض، وتوسيع دائرة المنقطع بغير الجنس أو البعض والحكم بغير النقيض لا بأس به؛ لتدخل فيه شواهد عربية وآيات كثيرة حار فيها المفسرون والمعربون، فما وجدت خلافاً فى النحو كخلاف النحاة والمفسرين من جعل هذه الآية أو تلك من المتصل أو المنقطع، فبينما يحكم الزمخشرى على آية بأنها من المتصل يأتى أبو حيان ويذكر أنها من المنقطع، حتى دعا ذلك الشيخ محمد عضيمة أن يقول: الاستثناء التام المحتمل للاتصال والانقطاع فى القرآن الكريم أكثر من الاستثناء المتعين للاتصال، كما هو أكثر من الاستثناء المتعين للانقطاع)[1]؛ ولذلك يعقد الشيخ عضيمة فى كتابه باباً للاستثناء الراجح الاتصال، وباباً ثانياً للراجح الانقطاع، وثالثاً للمحتمل للوجهين[2].

وخلافُ النحاة الطويل والشاق حول ما إذا كان المثال والشاهد من باب المتصل أو المنقطع لم يقع إلا فى آيات القرآن الكريم؛ وذلك لأنَّ العناية فى الأصل موجهة إليه، كما أنه فى الأصل هو دافع النظر والبحث والتأليف.

منشأ هذا الخلاف:

تقرر أن الناظر فى كتب النحاة والمفسرين لا يكاد يستقر على رأى واحد فى الاستثناء فى موضع من المواضع، إذ يقف على تباين كبير فى الآراء، فمن قائل بالاتصال ومن قائل بالانقطاع، ومنهم من يرجح، ومنهم من لا يرجح، وهذا الخلاف ناتج من عدة أمور: **أولها عام** ينسحب على جملة القرآن الكريم، وهو أنه كتاب معجزٌ فى أسلوبه وبيانه وتراكيبه ومفرداته، لا يحيط به بشر، ولا تحده قواعدُ العلماء، فمهما وُضعت من تعريفات ورسمت من

(١) شرح المقرب : ٢/ ٩٢٠.

(٢) يراجع: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د/ محمد عضيمة : ١/ ٣٣٧ – ٣٦١ ط دار الحديث.

رسوم، ومهما قررت من قيود ومحترزات؛ فإن القرآن الكريم يبقى أبيّاً على تلك القواعد والحدود، وإلا فما معنى الإعجاز؟! ثم إن ذلك الخلاف يُنشئُ هذا الثراء الذى خُصَّ به كتاب الله تعالى.

الثانى خاص بالاستثناء، وهو ما قرره النحاة من أنَّ (الاستثناء المنقطع عائد فى المعنى إلى المتصل، فإذا قلت: ما فيها أحد إلا حماراً، فمعناه: ما فيها أحد ولا ما يتبعه إلا حماراً)[1] ويؤيد هذا ما سبق فى التعريف من أن المنقطع خارج مما قبله تقديراً.

الثالث: قول ابن السراج ٣١٦هـ: (فإذا كان الاستثناء منقطعاً فلابد من أن يكون الكلام الذى قبل إلا قد دلَّ على ما يستثنى منه)[2]، وقول القرافى ٦٨٤هـ: ("إلا" لا تنفك أبداً عن الإخراج المحقق أو المتوهم كيف كانت فى المفرغ أو المشغول أو المتصل أو المنقطع)[3].

ولذلك ترى أنَّ قوله (ﷻ): ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود : ٤٣]، فيه وجهان على الاتصال ووجهان على الانقطاع[4].

---

(١) شرح المفصل للخوارزمى : ١/ ٤٦١ – ٤٦٢، ت: عبد الرحمن العثيمين، ط العبيكان أولى ١٤٢١ هـ– ٢٠٠٠ م.

(٢) الأصول فى النحو، لابن السراج: ١/ ٢٩١، ت: عبد الحسين الفتلى – مؤسسة الرسالة، وينظر: شرح التسهيل لابن مالك : ٢/ ١٩٠، توضيح المقاصد والمسالك للمرادى : ٢/ ٦٦٩، ت: د/ عبد الرحمن على سليمان – دار الفكر العربى ط أولى ١٤٢٨ هـ–٢٠٠٨م.

(٣) الاستغناء : ١٧٨.

(٤) ينظر: شرح التسهيل لناظر الجيش: ٥/ ٢١٢٠.

الرابع: تنكُّر بعض العلماء للاستثناء المنقطع، فأهملوه ولم يعترفوا به، ومن ثم اجتهدوا فى جعل ما ظاهره الانقطاع من قبيل المتصل، ولذلك كثر الخلاف فى آيات القرآن الكريم، ومما يدل على وجود هذا الفريق المنكر للاستثناء المنقطع قولُ ابن عطية ٥٤٦هـ (رحمه الله): (ولا ينكر وقوع المنقطع فى القرآن إلا أعجمى)[١]، وقولُ أبى حيان ٧٥٤هـ (رحمه الله) : (وقد أنكر هذا النوع من الاستثناء بعضُ الناس، وتخيلوا فى جعل ما ورد من ذلك متصلاً)[٢].

الخامس: تقسيمهم المنقطع إلى قسمين: قسم يتصور فيه الاتصال مجازاً، وقسم لا يتصور فيه الاتصال بحال، أو كما قال القرافى ٦٨٤هـ: ضرب له تعلق بما قبله وتشبثٌ به، وضرب منقطع بالجملة مما قبله، ثم فرعوا على ذلك حكمه كما سيأتى، ثم بينوا أن المجاز متصوَّرٌ فيما يمكن اتصاله من عدة وجوه ستأتى، منها مثلاً أن يكون نفيك الشيء نفياً لما هو منه بسبب، فإذا قلت: ما فى الدار أحد إلا حماراً، فكأنك عنيت: ما فى الدار أحد ولا ما لابسه، فأردت بالأحدِ الأحدَ وما لابسه[٣].

وبذلك فتح القول بالمجاز باباً واسعاً للخلاف فى نوع الاستثناء؛ لأن المجاز فيه فُسحةٌ للفكر ومنافذَ شتى للتأويل.

---

(١) المحرر الوجيز: ٣/ ٤٨٣ ت: عبد السلام عبد الشافى محمد، دار الكتب العلمية - بيروت ط أولى ١٤٢٢-٢٠٠١.

(٢) ارتشاف الضرب: ٣/ ١٥٠٠. وينظر: الاستغناء: ٣٦٧.

(٣) يراجع: شرح المفصل لابن يعيش: ١/ ٨٠-٨١، شرح جمل الزجاجى لابن عصفور: ٢/ ٤٠٣، الاستغناء: ٣٥٩، شرح التسهيل لناظر الجيش: ٥/ ٢١٢٢ - ٢١٢٣.

الحكم الإعرابى للاستثناء المنقطع وما فيه من دلالات:

إذا كان الإعراب فرع المعنى، وكانت العلامة الإعرابية وتغيرها على أواخر الكلمات تابعةً لتغير المعانى والدلالات؛ فإننى هنا أحاول استطلاعَ ذلك فى تنظير النحاة لاختلاف إعراب المستثنى المنقطع تبعاً لتغير أسلوبه أو تعدد اللهجات فيه.

وشرح ذلك أن النحاة جعلوا الاستثناء المنقطع ضربين:

الضرب الأول: ما يمكن اتصاله بما قبله مجازاً، وبعبارة أخرى: ما يمكن تسليط العامل عليه من جهة المعنى، **وحكم هذا الضرب**: اختيار النصب على الاستثناء عند أهل الحجاز، وبنو تميم يجيزون فيه البدل والنصب؛ ولذلك يقرءون: ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعُ ٱلظَّنِّ ﴾ [النساء: ١٥٧]، بالرفع، والجميع على قراءتها بالنصب وهى لغة الحجاز الفصحى، وحجة أهل الحجاز فى النصب أن الثانى لما انقطع معناه من الأول فلم يكن من جنسه انقطع أيضاً من إعرابه، والبدل يكون فيه الثانى من جنس الأول(١).

وحجة بنى تميم فى الإبدال أنهم جعلوا المستثنى بعض المستثنى منه مجازاً، والمجازُ فيه متصوَّرٌ من أربعة أوجه، هى(٢):

---

(١) ينظر: شرح المفصل للخوارزمى : ١/ ٤٦١، الاستغناء : ٣٦٠، وفى معجم القراءات القرآنية: (قراءة الجماعة ﴿ إِلَّا ٱتِّبَاعُ ٱلظَّنِّ ﴾ بالنصب على الاستثناء المنقطع) معجم القراءات القرآنية، د/ عبد اللطيف الخطيب: ١٩٤، ١٩٥ – دار سعد الدين. بدون.

(٢) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش : ١/ ٨٠ – ٨١، شرح جمل الزجاجى لابن عصفور : ٢/ ٤٠١ – ٤٠٣، الاستغناء : ٣٦٠ – ٣٦١، شرح التصريح على التوضيح : ١/ ٥٤٨.

١- أن يكون اللفظ فى الأصل لمن يعقل فيطلق على ما لا يعقل على جهة التغليب، فيكون أحداً فى قولك: ما رأيت أحداً إلا حماراً، مطلقاً على من يعقل وما لا يعقل.

٢- أن يكون نفيك للشيء نفياً لما هو منه بسبب، فكأنك قلت: ما رأيت أحداً ولا ما هو من سببه.

٣- أن يقام الثانى مقام الأول، فتقول: ما له عتاب إلا السيف، فتجعل السيف عتاباً، وعلى ذلك قول الشاعر:

ليس بينى وبين قيس عتاب ∴ غيرُ طعن الكُلى وضرب الرقاب(١)

٤- أن تجعل الثانى من جنس الأول؛ لأن من الناس من يعتقد ذلك فيه، نحو قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ∴ بهن فلول من قراع الكتائب(٢)

فجعل قراعهم الكتائب وتفليل سيوفهم من جنس العيوب؛ لأن من الناس من يعتقد ذلك، وهم الجبناء الذين يعتقدون أن الشجاعة والإقدام قلة عقل وتهور.

وأرى أنَّ هذا خلطٌ بيِّنٌ بين المتصل والمنقطع، وسياقات الكلام ومقامات الأساليب هى التى تشعرنا وترشدنا إلى تلك الفروق، أما مثل هذه التصورات السابقة فهى تكلفات لا تخطر بذهن متكلم، ولا تقترب من عقل مخاطب، ناهيك عما فيها من إدماج للمنقطع فى المتصل، ذلك الإدماج الذى يتبعه إلغاء لأسلوب كامل له خصوصية دلالية، وبلاغية،

(١) البيت فى الاستغناء: ٣٦١.

(٢) البيت للنابغة الذبيانى فى ديوانه: ٤٧، ت: الشيخ الطاهر ابن عاشور – الشركة التونسية ١٩٨٦. وينظر: مغنى اللبيب لابن هشام، ت: محمد محى الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية ١٤١٦ – ١٩٩٥، شرح الرضى: ٢/ ١٣٥، حاشية الصبان: ٢/ ٢٢٧.

وإيحائية؛ ولذلك علق شهاب الدين القرافى ٦٨٤هـ على هذه التصورات المجازية بقوله: (ولأجل هذا التكلف الذى فى البدل ضعف، وكان الأولى النصب على الاستثناء)[١].

الضرب الثانى: ما لا يمكن اتصاله بما قبله، بحيث لا يمكن أن يسلط عليه العامل، وهذا يجب نصبه عند الجميع، ومثاله: ما زاد شيء إلا ما نقص، فزاد لا يتوجه على «ما نقص»؛ لأن ما نقص لا يوصف بأنه زاد، بل المعنى لكن نقص، ومثاله من القرآن قوله تعالى ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود : ٤٣]، فالمرحوم ليس من جنس العاصم[٢].

وعلى الرغم من ذلك نجد من يجعل الاستثناء فى «ما زاد إلا ما نقص» وفى آية سورة هود استثناءً متصلاً بتأويلات عديدة[٣]، ومن ثم يمكن الاستغناء عن هذا التقسيم للاستثناء المنقطع لأمرين:

الأول: أن الناظر فى تطبيقاتهم على القرآن الكريم – وهو المثل الأعلى فى الفصاحة – لا يجد حدوداً فاصلة بين الضربين، فيتواردان كثيراً على آية واحدة، ومردُّ ذلك إلى احتمال الآية للاتصال والانقطاع عموماً، لا الانقطاع المتصل والانقطاع غير المتصل إذا جاز التعبير، معتبرين قسمتهم السابقة للمنقطع. واحتمالُ الآية للاتصال والانقطاع عموماً منشؤُه تأويلات عديدة فى السياق أو المفردات، أو تباين الفهم والاستنباط، وهذا هو الثراء القرآنى الذى أشدد عليه وأرتكن إليه.

---

(١) الاستغناء : ٣٦١.

(٢) يراجع: شرح المفصل للخوارزمى: ١/ ٤٦٢ – ٤٦٣، ابن يعيش : ١/ ٨١، شرح الرضى : ٢/ ١٣٤، شرح التسهيل لناظر الجيش : ٥/ ٢١٢٢، ارتشاف الضرب : ٣/ ١٥١١، شرح التصريح : ١/ ٥٤٦.

(٣) ينظر: شرح التسهيل لناظر الجيش : ٥/ ٢١٢٠، الاستغناء : ٣٦٧.

الثانى: أنَّ البون بين الضربين هينٌ من حيث الحكم الإعرابى الذى كان باعثاً لهم على التفريق والتقسيم؛ وما ذلك إلا لأن النصب هو المختار عند الجميع فى الضربين، فهم يتفقون على وجوب النصب فى الضرب الثانى، والحجازيون يوجبون النصب أو يرجحونه فى الأول على خلاف فى عبارات النحاة، وكذلك بنو تميم النصبُ عندهم أفصح من الإبدال كما قرره أبو حيان ٧٥٤هـ[(١)].

وهذا التعدد فى الأحكام وما نشأ عنه من عدم ثبات لكثير من القواعد[(٢)] ناتج من خطأ المنهج الذى اعتمده النحاة وساروا عليه، ولهذا الخطأ عناصر كثيرة تناولها الباحثون فى هذا المجال، وما يهمنا هنا من هذه العناصر أن النحاة وسعوا دائرة المادة اللغوية التى استخلصوا منها قواعدهم فشملت اللهجات المختلفة، واعتمدوا على مقولة إن اللغة سليقة فى العربى كل عربى لا الفصحاء منهم خاصة، فكان كل كلام عربى فى عصر الاستشهاد من قبيل الكلام المعتمد فى ميدان النحو، مما كان سبباً فى كثرة التقدير والتأويل والقول بالضرورة والشاذ والنادر، وليس هذا التصور صحيحاً؛ فليست اللغة الفصحى سليقة لغوية أو فنية؛ لأن الفصاحة مراس وخبرة واستعداد وراء جهد فنى[(٣)]، وهذا ما نراه هنا فى الاستثناء المنقطع فهم يجعلون لبنى تميم قسيماً فى القاعدة لأنهم قرءوا: ﴿ إِلَّا ٱتِّبَاعُ ٱلظَّنِّ ﴾ [النساء :

(١) ينظر: ارتشاف الضرب : ٣/ ١٥١١.

(٢) وهذا ما دعا القرافى إلى أن يقول فى هذا الباب: (وهذا تصريح بأن المنقطع لا ينضبط) الاستغناء: ٣٦٧، ولَّما أورد رأى من يتخيل فى صور الانقطاع وصفاً عاماً قال: (ولو فُتح هذا الباب لم يبق منقطع) الاستغناء: ٣٦٨.

(٣) يراجع: الحذف والتقدير فى النحو العربى، د/ على أبو المكارم: ٣٠٠ – ٣٠١ دار غريب ط أولى ٢٠٠٧م.

١٥٧]، بالرفع، مع أنهم قد نصوا على أن جميع القراء قرءوها بالنصب، ثم راحوا يسوقون بعض أبيات بالرفع؛ ونتج عن ذلك تلك التصورات المجازية السابقة المقيتة المتكلفة.

ومن هنا يتقرر أنه من الخير ألا ينشغل العقل حين تدبره للاستثناء المنقطع فى كتاب الله – تعالى – بذنيك الضربين؛ لأن القرآن يأخذ قارئَه مآخذَ أخرى، وتستأثر فيه كلُّ آية وكلُّ قاعدة وكلُّ طريقة بخصوصية فريدة مطبوعة بخاتم الإعجاز.

تقدير «لكنّ»:

أجمع النحويون على أنَّ علامة الاستثناء المنقطع أن يصح فيه وضع «لكن» موضع «إلا» ولذلك عنون سيبويه ١٨٠هـ لهذا الباب بقوله: (هذا باب ما لا يكون إلا على معنى «ولكنَّ»)[١]، وقدَّره الكوفيون بـ«سوى»[٢].

كما قرر النحاة أن هذا تقدير معنى لا إعراب، فالاسم بعد «إلا» فى المنقطع لا يكون منصوباً بلكن، كما توهم البعض، لكنه منصوب عن تمام الجملة كالتمييز فى «عشرين درهماً»، وبيَّن النحاة أن تقدير لكن هنا سببه التشابه بينها وبين «إلا» من حيث إنَّ «لكن» للاستدراك

(١) الكتاب: ٢/ ٣٢٥، ت: عبد السلام هارون . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩، الارتشاف : ٣/ ١٥٠٠. ويكون الخبر حينئذ محذوفاً غالباً، نحو: جاء القوم إلا حماراً، أى: لكن حماراً لم يجئ، وقد يذكر نحو قوله تعالى ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ ﴾ [يونس : ٩٨]، ينظر: حاشية الخضرى : ١/ ٤٦٠.

(٢) وقالوا: إن تقدير (لكنَّ) أفضل ؛ لأنهم قدروا حرفاً لا يعمل بأقرب الحروف إليه مما لا يعمل ؛ بخلاف (سوى) فإنها تخفض وهى اسم، وتقدير الحرف بالحرف أولى، ولأن المستثنى المنقطع يلزم مخالفته لما قبله نفياً وإثباتاً كما فى (لكن) وفى (سوى) لا يلزم ذلك. يراجع: الاستغناء / ٣٦٤، شرح الرضى: ١/ ١٢٩ عالم الكتب.

بعد النفى وتوجب للثانى ما تنفيه عـن الأول، وكـذلك «إلا» فتـشابها، كـما أن التقـدير بلكـن ساعدهم على جعل ما بعد «إلا» (فى حكم جملة منفصلة عن الأولى فقولك: ما فى الـدار أحـدٌ إلا حماراً، فى تقدير: لكنّ فيها حماراً، على أنه استدراك مخالف ما بعد «لكنّ» فيه ما قبلهـا، غـير أنهم اتسعوا فأجروا «إلا» مجرى «لكن»، ولما كانـت لا يقـع بعـدها إلا المفـرد بخـلاف «لكـن» فإنه لا يقع بعدها إلا كلام تام لقبوه بالاستثناء تشبيهاً بهـا إذا كانـت اسـتثناء حقيقـة، وتفريقـاً بينها وبين لكن)[1].

والاستدراك فى لكنَّ يراد به كما قال الرضى ٦٨٦هـ: (رفـع تـوهم المخاطـب دخـول مـا بعدها فى حكم ما قبلها مع أنه ليس بداخل فيه، وهذا هو معنى الاستثناء المنقطع بعينه)[2].

أو كـما قـال المـرادى ٧٤٩هـ: (ومعنـى الاسـتدراك أن تنـسب حكـماً لاسـمها يخـالف المحكوم عليه قبلها، كأنك لَمَّا أخبرت عن الأول بخبر، خفت أن يتوهم من الثانى مثل ذلك، فتداركتَ بخبره، إنْ سلباً وإنْ إيجاباً)[3].

ولعلَّ فى فهم هذا الكلام وإدراك مراميه مدخلاً لفهم بلاغة أسـلوب الاسـتثناء المنقطـع فى القرآن الكريم؛ لأننا نلاحظ أن الأمر لا يقف عند حد رفع توهم المخاطب؛ إذ قـد يتعـدى الأسلوبُ مراعاةَ المخاطـب إلى أبعـادٍ أخـرى؛ فالمخاطـب مـثلاً فى قولـه تعـالى ﴿ لَّا يَذُوقُونَ

(١) همع الهوامع: ٣/ ٢٤٩ – ٢٥٠، ويراجع: الاستغناء: ٣٦٤.

(٢) شرح الرضى: ٢/ ٢٢٩.

(٣) الجنى الدانى فى حروف المعانى، للمرادى: ٦١٥ ت: د/ فخـر الـدين قبـاوة، محمـد نـديم فاضـل . دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١٣ – ١٩٩٢ .. وينظر: مغنـى اللبيـب لابـن هـشام : ١/ ٣٢٣، ت: محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية – بيروت ١٤١٦ – ١٩٩٥.

فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾[النبأ : ٢٤ – ٢٥]، لا يتوهم دخول ما بعد إلا فيما قبلها لأنه ليس من جنسه أصلاً، فينظر فى أسرارٍ أخرى، كالتخصيص مثلاً، أو سر الجمع بين المستثنى منه والمستثنى على الرغم من تناقضهما؛ ومن ثم نفهم سر تقديرهم «إلا» هنا بـ «لكن»، وذلك أن الأصل فى الاستثناء أن تخرج بعضاً من كل، فأرادوا أن ينبهوا المستمع فى الاستثناء المنقطع أن الثانى ليس بعض الأول، فأوَّلوه بلكنَّ؛ تأكيداً على هذا التناقض .. أقول وعلى الرغم من ذلك يبقى لإيثار «إلا» على «لكن» فى النصوص العالية أسرارٌ عظيمةٌ وحِكمٌ بالغةٌ، لاسيما إذا اعتبرنا ما اعترض به الدكتور على فاخر على تقدير «لكن» فى المنقطع، من أنه يمكن تقديرها فى المتصل أيضاً؛ فتقول فى جاء القوم إلا زيداً : ولكن زيد لم يجئ[1]، فما من مناصٍ من دراسة ظواهر النصوص ومراعاة ألفاظها بعيداً عن التقدير الذى يحيل اللفظ إلى آخر، فيطمس الأساليبَ خصائصَها ومقاماتِها.

جهود القرافى ٦٨٤هـ :

وضع شهاب الدين القرافى ٦٨٤هـ (رحمه الله) مصنفاً خاصاً فى الاستثناء، وسماه (الاستغناء فى أحكام الاستثناء)، وهو كتاب كبير يقع فى ستمائة وثلاثين صفحة، ولذلك عُدَّ مرجعاً أصيلاً فى هذا الباب؛ لأنه تناول كل مسائله ومباحثه بتفصيل وتدقيق.

وما يهمنا هنا هو تناول القرافى لآيات الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم، ومدى توفيقه إلى إيراد أسرار بلاغية لهذا الأسلوب؛ إذ إنه عقد الباب الثالث والعشرين لهذا النوع من الاستثناء، وتناول فيه ثنتين وثلاثين آية، وكان يضع عدة مسائل تحت كل آية تتنوع بين: اللغة والتفسير والنحو، وكان مما وضعه من أسئلة النحو: هل الاستثناء فى الآية متصل أو منقطع؟

(١) ينظر: شرح المقرب : ٢/ ٩٢٤.

على الرغم من أن الباب للمنقطع، وقد وضع هذا السؤال أيضاً فى الباب الذى عقده للاستثناء المتصل، وذلك تحت آيات هذا الباب(١).

وبهذا يتبين هدف القرافى وجهده، فهو هدف نحوى لا يتعداه إلى الأسرار البلاغية، فتجده يذكر عدة تأويلات فى الآية، وعليها يتحدد نوع الاستثناء والمعنى.

ومثال ذلك عنده ما قاله فى قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[النجم : ٣٢]، فنقل الخلاف فى معنى الكبائر والفواحش، ثم ذكر أن «اللمم» إن كان بمعنى ما ألموا به فى الجاهلية قبل الإسلام؛ فالاستثناء منقطع؛ لأن «يجتنبون» فعل مضارع يختص بالحال والاستقبال، فاستثناء الماضى منه يكون منقطعاً باعتبار الجنس من الزمان، لا باعتبار الجنس من الكبائر والفواحش. وإن كان المراد ما يلمون به من السقطات اللطيفة دون إصرار عليها، فالاستثناء منقطع كذلك؛ لأن مثل هذا لا يتناوله لفظ الكبائر ولا الفواحش، فيكون منقطعاً باعتبار الاستثناء من غير الجنس لا باعتبار الحكم. أما إن كان اللمة من السرقة أو الزنى أو الخمر ثم لا يعود، فالاستثناء متصل؛ لأن هذه الأمور يتناولها لفظ الكبائر والفواحش؛ فيكون ما بعد إلا من جنس ما قبلها، والحكم بعد إلا بنقيض ما حكم به قبل إلا، فيتحقق معنى الاتصال.

ثم نقل أن اللمة قد تكون بمعنى حديث النفس أو الخطرة الأولى، والاستثناء على ذلك منقطع(٢).

(١) ينظر: الاستغناء : ٢٩٩ – ٤٠٤.

(٢) ينظر: السابق: ٣٩٣ – ٣٩٦.

هذا مثال لصنيع القرافى فى كتابه، فهو معنىٌّ بمجرد تحديد نوع الاستثناء، ويحكمه فى هذا أصل التفريق بين نوعيه وهو الجنسية أو البعضية أو الحكم، وقد بذل مجهوداً طيباً وعظيماً فى سبيل تحقيق هذا الهدف، لكنه لم يتعد ذلك إلى تدبر السياق والمقام فيتبع صنيعه ببعض الأسرار البلاغية، ولعلها منهجية خالصة منه، (رحمه الله).

جهـود ابن القيـم ٧٥١هـ :

أفرد الإمام ابن القيم ٧٥١هـ (رحمه الله) فصلاً خاصاً من كتابه (بدائع الفوائد) للاستثناء المنقطع، وذلك فى اثنتى عشرة صفحة، تناول فى بدايتها تعريف المنقطع، والفرق بينه وبين المتصل، ثم انتقل سريعاً إلى غرضه ومنهجه الذى سار عليه فى ست عشرة آية من كتاب الله – تعالى –، فأورد أن النحاة اختلفوا فى كون الاستثناء المنقطع يقدر دخوله فى المستثنى منه بوجه، أو لا يشترط فيه ذلك، وبين أن الكثير منهم لم يشترط ذلك، وشرطه جماعة آخرون، ونقل قول ابن السراج السابق: إذا كان الاستثناء منقطعاً فلابد من أن يكون الكلام الذى قبل إلا قد دل على ما يستثنى.

وبذلك لا يحتاج المنقطع إلى تقدير عند من لا يشترط تقدير دخوله فى المستثنى منه، ويحتاج إلى تقدير عند من يشترط ذلك.

كان هذا التأصيل منطلقاً لابن القيم فى الآيات القرآنية التى درسها، فكان عمله شرح الانقطاع فيها من الوجهين، وقد يرجح وجهاً على الآخر أحياناً، وهو يدعو فى ذلك إلى البعد عن تكلف التقديرات (التى لا تخطر ببال المتكلم أصلاً، ولا تقع فى تراكيب الفصحاء، ولو سمعوها لاستهجنوها)[1].

---

(١) بدائع الفوائد : ٣/ ٥٧١ ت: سيد عمران، عامر صلاح .. دار الحديث – القاهرة ١٤٢٣ – ٢٠٠٢ ويراجع منه: ٣/ ٥٦٤ – ٥٦٥، وقد وعد أنه سيعقد فصلاً مستقلاً لتلك التقديرات المتكلفة، وتصفحت الكتاب كله فلم أجده.

وحينما كان يشرح الانقطاع على وجه عدم تقدير دخول المستثنى فى المستثنى منه كان يعتمد أصلاً فى ذلك ما أمكنه وهو نفى الشيء وإثبات ضده، أما وجه تقدير دخوله فقد أعوزه إلى التقدير الذى حذَّر منه وكرهه.

ومثال ذلك عنده ما ذكره فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ ﴾[النساء : ٢٩].

قال ابن القيم: (فهذا استثناء منقطع تضمن نفى الأكل بالباطل، وإباحة الأكل بالتجارة الحق، ومَنْ قدر دخوله فى الأول قدر مستثنى منه عاماً : أى لا تأكلوا أموالكم بينكم بسبب من الأسباب، إلا أن تكون تجارة، أو يقدر بالباطل ولا بغيره إلا بالتجارة، ولا يخفى التكلف على هذا التقدير بل هو فاسد، إذ المراد بالنهى الأكل بالباطل وحده)[1].

وقد سار ابن القيم على هذا النهج فى كل الآيات، ولم يتجاوزه إلى ذكر أسرار بلاغية خاصة بهذا الأسلوب الفريد، وهو ما لم نعهده من ابن القيم الذى كان للبلاغة نصيب كبير من فكره وعقله.

(١) بدائع الفوائد : ٣/ ٥٧٢.

المبحث الثانى
درس البلاغيين

أتناول هنا صلة البلاغيين بهذا الباب، وسيكون حديثى مركزاً على عدة نقاط حتى لا أطيل القول والنقل فيما لا يخدم موضوع البحث.

١- موضع الاستثناء المنقطع فى دراسات البلاغيين:

وردت شواهد الاستثناء المنقطع عند البلاغيين فى باب من أبواب البديع المعنوى اتفق المتأخرون على تسميته: باب تأكيد المدح بما يشبه الذم.

وقد مر هذا البابُ بمراحل عدة من حيث العنوان والشواهد والفوائد، حتى استقر على ما هو عليه، وبيان ذلك كالتالى:

١. كان ابن المعتز ٢٩٩هـ أولَ من ذكر هذا الضربَ من البديع تحت هذا العنوان (تأكيد المدح بما يشبه الذم) وهو من اختراعه وابتكاره، كما قرر الدكتور أحمد إبراهيم موسى[١] وذكر ابن المعتز شاهدين له، تصدَّرا شواهدَ كل من أتى بعده، وهما:

قول النابغة الذبيانى:

ولا عَيْبَ فيهم غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ ∴ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

وقول النابغة الجعدى:

فَتىً كَمُلَتْ أَخْلاقُهُ غَيْرَ أَنَّهُ ∴ جَوادٌ فَمَا يُبْقِى مِنَ المَالِ بَاقِيا

---

(١) ينظر: البديع، لابن المعتز: ١٥٧، ت: د/ محمد عبد المنعم خفاجى – دار الجيل – بيروت ط أولى ١٤١٠ – ١٩٩٠، ويراجع: الصبغ البديعى فى اللغة العربية، د/ أحمد إبراهيم موسى : ١٣٧، دار الكتاب العربى ١٣٨٨ – ١٩٦٩.

٢. تغيَّر عنوان الباب عند أبى هلال العسكرى ٣٩٥هـ إلى (الاستثناء) وجعله على ضربين[١]: الضرب الأول: هو أن تأتى معنى تريد توكيده والزيادة فيه فتستثنى بغيره، فتكون الزيادة التى قصدتها والتوكيد الذى توخيته فى استثنائك.

وذكر خمسة شواهد شعرية لذلك، منها بيتا ابن المعتز.

والضرب الثانى: استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان، ومثَّل له بخمسة شواهد شعرية، منها قول طرفة:

فسقى ديارك غير مُفسدِها ∴ صوبُ الربيع وديمةٌ تهمى

وقد وسَّع أبو هلال الأمر بهذا الصنيع؛ لأنه وسَّع الاصطلاح من الأساس، فأدخل فى الباب ما ليس منه، وهو الضرب الثانى، فواضح أنه من باب الاحتراس، وقد مثَّل ببيت طرفة نفسه للتتميم والتكميل[٢].

٣. واعتمد الباقلانى ٤٠٣هـ تسميتين لهذا الباب فى دراسته لإعجاز القرآن، حيث ذكر أن من البديع المقابلة بين معان ونظائرها، والضد بضده، وذكر عدداً من الشواهد الشعرية والقرآنية، لا يدخل فيها معنا منها إلا بيتاً واحداً، هو قول النابغة الجعدى:

فَتىً تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صديقَه على أنَّ فيه ما يَسُوءُ الأعَاديا

وإن لم يكن فيه استثناء، فهو تأكيد للمدح بما يشبه الذم.

ثم ذكر الباقلانى لوناً آخر من البديع، أطلق عليه (الاستثناء) مثَّل له بقول الجعدى

---

(١) ينظر: الصناعتين: ٤٥٩ – ٤٦٠، ت: د/ مفيد قميحة – دار الكتب العلمية – بيروت ط ثانية ١٤٠٩ – ١٩٨٩.

(٢) ينظر: الصناعتين : ٤٣٥.

السابق، وببيتى ابن المعتز السابقين، وبشواهد أخرى تخلو من الاستثناء[١].

ومن الواضح أنه كان لا يقصد به الاستثناء النحوى المعروف، وكان (الاستثناء) آخر ما ذكره الباقلانى من ألوان البديع، ثم قرر أنه لا يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الألوان؛ لأنه يمكن التوصل إليها بالتدرب؛ فلا سبيل إلى معرفة الإعجاز من البديع؛ لأنه ليس بخارق للعادة[٢].

وقد حمل د/ عبد الواحد علام (رحمه الله)[٣] عليه حملة شعواء، فيها كثير من الجناية والتحامل على الرجل.

٤. وأقر ابن رشيق ٤٥٦هـ (الاستثناء) عنواناً للباب، مع عِلمه بمصطلح ابن المعتز الأول، ومثَّل بأبيات النابغتين، وبيَّن أن ذلك أوكد فى المدح، ثم أورد شواهد فطن أنها للاحتراس فحكم بخروجها من هذا الباب، وقرر أن (ليس هذا الاستثناء على ما رتبه النحويون فتطلبه بحروف الاستثناء المعروفة، وإنما سمى اصطلاحاً وتقريباً، سماه هؤلاء المحدثون نحو الحاتمى وأصحابه ولم يسم حقيقة)[٤] وقد سبقه إلى هذا أبو هلال العسكرى ٣٩٥هـ.

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن للباقلانى : ٦٩ – ٧٠، ٨٠، ت: أبو بكر عبد الرزاق – مكتبة مصر ١٩٩٤، والباقلانى بهذا سابق لحازم القرطاجنى فى جعل هذه الشواهد من الجمع بين الأغراض المتضادة . ينظر: منهاج البلغاء لحازم القرطاجنى : ٣٥٠ ت: محمد الحبيب بن الخوجة – نشر دار الآفاق العربية – بدون.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن : ٨٠ – ٨٤.

(٣) ينظر: البديع المصطلح والقيمة، د/ عبد الواحد علام : ٤٥ – ٤٨ دار الكتاب الجامعى – الكويت ط ثانية ١٩٩٦.

(٤) العمدة، لابن رشيق : ٢/ ٤٨ ت: محمد محيى الدين عبد الحميد – دار الجيل ط خامسة ١٤٠١ – ١٩٨١.

كما اعتمد أسامة بن منقذ ٥٨٤ هـ أيضاً على تسمية الاستثناء، إلا أنه أراد أن يبين من العنوان ابتداءً أن ليس هو الاستثناء النحوى، فقال: (باب الرجوع والاستثناء) وهو أن تذكر شيئًا ثم ترجع عنه، واستشهد بشواهد سبقت يظهر فيها الاستثناء المنقطع(١).

٥. ثم أتى السكاكى ٦٢٦هـ وأرجع الباب إلى عنوانه الأول عند ابن المعتز (تأكيد المدح بما يشبه الذم) لكنه لم يمثل له إلا بشاهد واحد، عده المتأخرون من الاستدراك الذى يلحق بهذا الباب، وهو قول الشاعر(٢):

هو البدر إلا أنه البحر زاخراً ∴ سوى أنه الضرغام لكنه الوبل

ولم يتعدَّ السكاكى هذا المثال، حتى إنه لم يعلق عليه، فانحصر الباب عنده فى سطرين للعنوان والشاهد.

٦. ثم كان ابن أبى الإصبع ٦٥٤هـ أولَ من فرَّق بين مصطلحى (الاستثناء)، (تأكيد المدح بما يشبه الذم)؛ فجعل لكل منهما باباً خاصاً، وأراد بالاستثناء ما يفيد معنى زائداً بعد إخراج القليل من الكثير، وبذلك يعد من البديع، لا بمجرد الاستثناء، فالاستثناء مثلاً فى قوله تعالى ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت : ١٤]،

(١) ينظر: البديع فى البديع، لأسامة بن منقذ: ١٧٧ – ١٨١، ت: عبد على مهنا – دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٠٧ – ١٩٨٧. وعند ابن الزملكانى (الاستدراك والرجوع) ينظر: التبيان فى علم البيان، لابن الزملكانى : ١٨٢، ت: د/ أحمد مطلوب، د/ خديجة الحديثى مطبعة العانى – بغداد – بدون.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم للسكاكى : ٤٢٧، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ط ثانية ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

يفيد – فضلاً عن الإخبار بالمدة – التهويلَ على السامع لتمهيد عذر نوح عليه السلام فى الدعاء على قومه[1].

أما تأكيد المدح بما يشبه الذم فلم يذكر فيه إلا ما ينتمى إلى الاستثناء المنقطع، حيث ذكر فى تحرير التحبير أربعة شواهد شعرية لذلك، أما فى كتابه (بديع القرآن)[2] فقد حكم بعزة وقوع هذا اللون البديعى فى القرآن الكريم، فلم يجد منه إلا آية واحدة على تأويل، وهى قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ [المائدة : ٥٩].

والآية من قبيل الاستثناء المفرغ، وهو منقطع؛ لأن المنقطع يقع فى المفرغ لكنه لا يدخل فى هذه الدراسة؛ لأن الأوْلَى أن يُفرد بحثٌ خاص للاستثناء المفرغ؛ لأن الأمر فيه مبنىٌّ على التأويل.

ولم نجد بعد ذلك من يُعَنْوِن للباب بغير تأكيد المدح بما يشبه الذم غير الإمام العلوى ٧٠٥هـ الذى جعل (التوجيه) عنواناً للباب، وجعله على استعمالين[3]: الأول: تأكيد المدح بما يشبه الذم، والثانى: أن يُمدح شيءٌ يقتضى المدح بشيءٍ آخر، وهو لا يدخل فيما معنا.

---

(١) ينظر: تحرير التحبير: ٣٣٣ – ٣٣٨ ت: د/ حفنى شرف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٦ – ١٩٩٥، بديع القرآن : ١٢١ – ١٢٣، ت: د/ حفنى شرف – نهضة مصر – ط ثانية بدون.

(٢) ينظر: تحرير التحبير: ١٣٤، بديع القرآن: ٤٩ – ٥٠، وزاد السيوطى آيتين. انظر: الإتقان: ٣/ ٢٦٦ ت: محمد أبو الفضل إبراهيم – دار التراث بدون.

(٣) ينظر: الطراز للعلوى : ٤٦٤ – ٤٦٥ ت: محمد عبد السلام شاهين – دار الكتب العلمية ط أولى ١٤١٥ – ١٩٩٥.

ثم جاء الطيبى ٧٤٣هـ فخص (التوجيه) بما يحتمل معنيين، وأفرد باباً لتأكيد المدح بما يشبه الذم، واستشهد ببعض آيات الاستثناء المنقطع[١]، وهى قوله تعالى ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾[الواقعـــة: ٢٥ - ٢٦]، وقولـــه ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾[الدخان : ٥٦].

كانت هذه إذن جهوداً عظيمة للبلاغيين الأوائل فى تحرير هذا الباب، لكن اضطربت فيها الحدود، وتداخلت القواعد والأبواب والشواهد من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكثروا من شواهد الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم والتى تدخل فى هذا الباب على الرغم من أن القرآن كان موضع عنايتهم جميعاً، وإذا أخذنا تداخل القواعد والشواهد على الأوائل – اللهم إلا ابن أبى الإصبع – وكذلك عدم الإكثار من شواهد القرآن، فإننا نأخذ المأخذ الثانى فقط على المتأخرين من البلاغيين، كما سيتضح فيما سيأتى.

٢- جهد المتأخرين فى تحرير قواعد هذا الباب:

تحددت معالم باب تأكيد المدح بما يشبه الذم عند المتأخرين من البلاغيين، فوضعوا قواعده، وشرحوها، وبينوا ضروبه وشواهده، وكان كتابا الخطيب القزوينى ٧٣٩هـ (رحمه الله) (التلخيص، الإيضاح) هما المرجعين الأساسيين فى شرح مسائل هذا الباب ومشكلاته، وهذا مما يحسب للقزوينى من ابتكار واختراع وإبداع، ثم نهض شراح التلخيص وأصحاب الحواشى والتقارير لدراسة ما حرّره القزوينى.

(١) ينظر: التبيان فى البيان للطيبى : ٤٩٩، ت: د/ عبد الستار زموط . دار الجيل ط أولى ١٤١٦ – ١٩٩٦.

ولن أنقل هنا كل جهودهم، بل أعنى بما يمكن أن يخدم الدراسة القرآنية من فوائد أو أسرار أو مفاتيح للنظر فى أسرار هذا الأسلوب القرآنى، ثم أقرر فى نهاية الحديث عن جهود البلاغيين مدى إسهامهم فى هذا الصدد، وهل كان المتأخرون كالسابقين فى هذا الباب ؟ ذلك ما يُطرح فى السطور التالية.

تقسيم القزوينى لهذا الباب:

جعل القزوينى تأكيد المدح بما يشبه الذم ضربين[1]:

الضرب الأول: أن تستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيه، كقول النابغة الذبيانى:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ∴ بهن فلول من قراع الكتائب

ففى البيت زيادة مدح وتوكيد له؛ لأنه بعد أن نفى العيب مطلقاً، ذكر أداة استثناء أوهم بها أنه سيذكر صفة عيب لهم، فإذا به يذكر صفة مدح أخرى هى تكسُّر حد سيوفهم من مضاربة الكتائب عند اللقاء.

الضرب الثانى: أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له، كقول النبى (ﷺ): «**أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش**».

(١) ينظر: الإيضاح للقزوينى : ٦/ ٧٤ – ٧٦ ت: د/ محمد عبد المنعم خفاجى – دار الجيل ط ثالثة ١٤١٤ – ١٩٩٣ . وذكر ضرباً ثالثاً يعتمد على الاستثناء المفرغ، لا يدخل فى مادة البحث ؛ لأن الأولى أن يفرد له بحث خاص ؛ إذ هو مبنى على التقدير . وقال ابن يعقوب: (رأى الضربين هما الأكثر أو الأشهر فلم يتعرض للآخر هنا) مواهب الفتاح: ٤/ ٣٨٦ ضمن شروح التلخيص – دار الإرشاد الإسلامى، بدون.

وقرر الخطيب أن الضرب الأول أفضل؛ لأن التأكيد فيه من وجهين[1]: الأول: أنه كدعوى الشيء ببينة، والثانى: أن الأصل فى الاستثناء الاتصال، فإذا أتى بعد (إلا) ما لا يتوهم السامع حين يكون ما بعدها مغايراً لما قبلها، خرج الاستثناء إلى الانقطاع، وفى ذلك نوع من الخلابة، والتأكيد فى الضرب الثانى من الوجه الثانى فقط؛ لأنه باق على حاله لم يقدر متصلاً.

فأصل الاستثناء فى الضربين أن يكون منقطعاً؛ أما فى الأول فلأن الفرض أن معناه أن يستثنى من العيب خلافه فلم يدخل المستثنى فى جنس المستثنى منه فيه. وأما الانقطاع فى الثانى فلانتفاء العموم فى المستثنى منه فلم يدخل المستثنى فى المستثنى منه، لكن الفرق بين الانقطاع فى الضربين أنه فى الأول يقدر متصلاً لوجود العموم فيه فيضعف التكلف فى تقديره، أما الثانى فلا يقدر فيه الاتصال لكثرة التمحل بكثرة التقدير فيه[2].

---

(١) التأكيد فى الوجه الأول تخييلى وفى الثانى تحقيقى . ينظر: مواهب الفتاح ٤/ ٣٨٩، حاشية الدسوقى: ٤/ ٣٨٩.

(٢)ينظر: مواهب الفتاح: ٤/ ٣٩١، وهذا ما لفت إليه الخطيب فى عبارة موجزة، فقال: (وأصل الاستثناء فى هذا الضرب أيضاً أن يكون منقطعاً) الإيضاح: ٦/ ٧٥، وقال ابن يعقوب: (لِمَ قال المصنف: أصل الاستثناء فى الثانى الانقطاع كالأول، ولم يقل: والاستثناء فيهما منقطع؟ قلت: كأنه راعى ما عسى أن يعرض فيهما من تكلف ردهما متصلين، فيكون المراد بالأصل ما يتبادر من التركيب دون ما يتأول، أما التأويل فى الأول فكأن يقدر: لا شيء فيه إلا هذا الأمر، أو يراعى الاتصال بتقدير كون المستثنى عيباً، وأما الثانى فكأن يقدر: أنا أفصح العرب فلا شيء يخل بفصاحتى إلا أنى من قريش إن كان مخلاً، فأشار إلى أن ذلك خلاف الأصل) مواهب الفتاح: ٤/ ٣٩١، وقال فى فائدة تقدير الاستثناء متصلاً فى الضرب الأول: (أن هذا المستثنى لا يثبت العيب إلا به إن صح كونه من جنسه، فيفيد ذلك تعليق=

غـرض هـذا الأسلـوب:

من عنوان هذا الأسلوب يتضح غرضه وفائدته البلاغية وهو التأكيد، فنرى هذا الغرض بارزاً عند كل من تناول هذا الباب تقريباً، وقد سبق بيان وجهى التأكيد فيه عند الخطيب القزوينى، ثم إن إفادته المبالغة – والتى صرح بها البعض كالعلوى والدكتور أحمد موسى – هى ترتد إلى التأكيد؛ فالمبالغة تفضى إلى التأكيد.

كما نلمح لهذا الأسلوب غرضاً آخر لطيفاً وهو ما فيه من نوع تأخيذ وخلابة وإيهام، حتى أطلق عليه البعض (الاستثناء الخداعى)[(١)]؛ ومن ثم كان من الأساليب التى تنبه المخاطب أو القارئ تنبيهاً شديداً إلى ما يرد فى طياته من معان خفية تحتاج إلى عظيم وعى، وقوة تيقظ.

وقرر د/ جميل عبد المجيد أنَّ هذا الأسلوب يعمل على حبك الكلام وترابط أجزائه، عن طريق علاقة التقابل بين طرفيه، وتتجلى هذه العلاقة هنا عن طريق الإيهام[(٢)].

٣- أين القرآن فى دراسة البلاغيين لهذا الباب؟

هذا الأسلوب القرآنى اللطيف المعجز، الآسرُ للفكر، الآخذُ بالعقل، الموحى بالدقائق والعجائب، الجامعُ للأسرار والدلائل، لم تذكر مصنفات البلاغيين منه إلا خمسة مواضع.

=ثبوت العيب على المحال؛ لأن الفرض أن المستثنى مدح لازم، فتعليق إثبات الذم على كونه صفة ذم مع كونه صفة مدح تعليق بالمحال) مواهب الفتاح: ٤/ ٣٨٦-٣٨٧.

(١) يراجع: الإيضاح: ٦/ ٧٥، المطول: ٤/ ٣٠٠ – ٣٠١، حاشية عبد الحكيم: ٤/ ٣٠٤، الصبغ البديعى: ٤٨٩.

(٢) ينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، د/ جميل عبد المجيد: ١٥٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨.

ومن المثير أن تجد كتباً جعلتْ إعجازَ القرآن عنواناً لها، وبيانَ ذلك هدفاً ترمى إليه، ثم تذكر هذا الباب تحت أى عنوان، ثم لا تجد شواهدها إلا شعراً، نلاحظ ذلك فى كتاب : (التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن) لابن الزملكانى ٦٥١هـ، وكتاب (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز) للعلوى ٧٠٥هـ[١].

أما عن الآيات الخمسة التى ذكروها فهى مفرّقة فى مراجع معدودة وبيان ذلك كالتالى:

١- الإمام زين الدين التنوخى ٦٦٨هـ: ذكر فى كتابه (الأقصى القريب فى علم البيان) فى تعرضه للاستثناء من النفى وتفسيره بضم المنفى توكيداً لذلك النفى، قوله تعالى ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾[الواقعة: ٢٥ – ٢٦]، وقال: (استثنى ﴿ سَلَامًا سَلَامًا ﴾ الذى هو ضد اللغو والتأثيم، فكان ذلك مؤكداً لانتفاء اللغو والتأثيم)[٢].

٢- الخطيب القزوينى ٧٣٩هـ: قال فى الإيضاح – بعد أن فرغ من بيان ضربى هذا الباب- وأما قوله تعالى ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥ – ٢٦] فيحتمل الوجهين، وأما قوله ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴾[مريم : ٦٢]، فيحتملها ويحتمل وجهاً ثالثاً، وهو أن يكون الاستثناء من

(١) يراجع: التبيان لابن الزملكانى : ١٨٢ فى باب (الاستدراك والرجوع)، الطراز للعلوى: ٤٦٤ فى (التوجيه).

(٢) الأقصى القريب للتنوخى : ٧٤ مطبعة السعادة – أولى ١٣٢٧هـ.

أصله متصلاً؛ لأن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة، وأهل الجنة عن الدعاء بالسلامة أغنياء، فكان ظاهره من قبيل اللغو وفضول الكلام، لولا ما فيه من فائدة الإكرام)[1].

٣- الإمام الطيبى ٧٤٣هـ: قال: (ومن هذا القبيل قوله تعالى ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾، وقوله تعالى ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾[الدخان : ٥٦]، أى لا يذوقون الموت البتة، يعنى إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها فإنهم يذوقونها)[2].

٤- شراح التلخيص: لم يشتمل التلخيص على الآيتين اللتين ذكرهما الخطيب فى الإيضاح، ومن ثم لم يرد لهما ذكر فى مختصر السعد ٧٩١ هـ ولا فى مواهب الفتاح لابن يعقوب ١١١٠هـ، ولا فى حاشية الدسوقى ١٢٣٠هـ، لكن ذكرهما السبكى ٧٧٣هـ فى عروس الأفراح، والسعد ٧٩١هـ فى المطول، ولم يزيدا شيئاً على كلام الخطيب، وذكر السعد فى بداية الباب قوله تعالى ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾[النساء : ٢٢] واقترح تسمية الباب (تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه) كى يعم المدح وغيره، وكان لكل من العصام ٩٤٣هـ وعبد الحكيم ١٠٦٧هـ والشربينى تعليقات سريعة ليس فيها جديد[3].

---

(١) الإيضاح : ٦/ ٧٦.

(٢) التبيان للطيبى : ٤٩٩.

(٣) ينظر: عروس الأفراح : ٤/ ٣٩٢، المطول مع فيض الفتاح وحاشية عبد الحكيم : ٤/ ٣٠١-٣٠٣، الأطول للعصام : ٢/ ٢١٦ ط السيد أحمد الكمال ١٢٨٤هـ.

٥- الإمام بدر الدين الزركشى ٧٩٤هـ: ذكر فى باب: إبراز الكلام فى صورة المستحيل على طريق المبالغة، قوله تعالى ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء : ٢٢]، وقال (فإن المعنى: إن كان ما سلف فى الزمن السالف يمكن رجوعه فحلُّه ثابت، لكن لا يمكن رجوعه أبداً، ولا يثبت حلُّه أبداً، وهو أبلغ فى النهى المجرد)[١].

وجعل منه أيضاً قوله تعالى ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ﴾ [مريم : ٦٢]، وقال: (إن كان تسليم بعضهم على بعض، أو تسليم الملائكة عليهم لغواً، فلا يسمعون لغواً إلا ذلك)[٢].

كما عدَّ فيه قوله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان : ٥٦]، وذكر رأى الزمخشرى ٥٣٨هـ بأنه من التوكيد فى الدلالة، حيث عُرِّض بالاستثناء إلى استحالة الموت فى الجنة، وقال إن هذا على سبيل جعل الاستثناء متصلاً، فإن اعتبر منقطعاً فالمعنى: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها، ثم ذكر معنى آخر على الاتصال[٣].

ثم أورد الزركشى فى باب (الاستثناء والاستدراك) أن تأكيد المدح بما يشبه الذم قريب من هذا النوع، فعرفه ومثّل له بقوله تعالى ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴾ [الواقعة: ٢٥ – ٢٦] وقال: (التأكيد فيه من وجهين : على الاتصال فى

(١) البرهان فى علوم القرآن: ٣/ ٤٧ ت: محمد أبو الفضل إبراهيم – دار التراث ثانية.

(٢) البرهان : ٣/ ٤٨.

(٣) ينظر المرجع السابق نفسه.

الاستثناء والانقطاع)[1]، ومثّل لغير تأكيد المدح بما يشبه الذم قبل ذلك بقوله تعالى ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ [الغاشية : ٦]، وقال: (فالمعنى: لا طعام لهم أصلاً؛ لأن الضريع ليس بطعام البهائم فضلاً عن الإنس ...)[2]، وبذلك يكون الزركشى هو الوحيد الذى ذكر الآيات الخمسة فى كتابه.

هذا هو غاية ما وقفت عليه فى دراسات البلاغيين من آيات القرآن الكريم التى ورد فيها أسلوب الاستثناء المنقطع، وهنا موضع الإجابة عن السؤالين اللذين سبق طرحهما، وهما: هل كان جهد المتأخرين كالسابقين فى هذا الباب؟ وهل كان للقرآن الكريم مكان ذو بالٍ من أبحاثهم؟ وملخص الإجابة عن ذلك يتمثل فى عدة نقاط سريعة:

أ- المتأمل فى جهودهم جميعاً يجدها لا تتعدى العناية بذكر القاعدة والمثال، فهذا هو طابع كل أبحاثهم.

ب- انصرفت هممهم إلى تحرير القاعدة وتعديد الأبواب والأقسام البديعية.

ج- غلبت شواهدهم الشعرية على الشواهد القرآنية، فما هى إلا خمس آيات توارثوها جيلاً بعد جيل، ومما يسترعى الانتباه والعجب أن كتباً خلصت للإعجاز خلت من شواهد القرآن تماماً، كالتبيان لابن الزملكانى ٦٥١هـ، والطراز للعلوى ٧٠٥هـ، حتى إنَّ ابن الإصبع ٦٥٤هـ لمّا تمسك بعنوان الباب حكم بعزة وجوده فى القرآن وذكر آية واحدة من الاستثناء المفرغ[3].

---

(١) البرهان : ٣/ ٥١، وقال فى بداية الباب: (ووجه التأكيد فيه أنه ثنى ذكره مرتين مرة فى الجملة ومرة فى التفصيل).

(٢) البرهان : ٣/ ٥١.

(٣) ينظر: بديع القرآن : ٤٩ – ٥٠.

د- عنى الشراح – كعادتهم – بأمور منطقية ومسائل تقديرية وافتراضية، فيتتبع اللاحق كلام السابق فى قاعدة أو شرح شاهد، فيؤيده أو يعارضه، دون أن يحاول اللاحق إضافة مزيد من الشواهد التى تثرى الموضوع وتجدد دماء القاعدة، فتضيف إليها، أو تهذب فروعها ومسائلها، وهذا سبب خطير أضر بالدراسات البلاغية كثيراً – وكذلك النحوية – ثم انعكس هذا الضرر على دراسة الإعجاز القرآنى، فلو تخلص هؤلاء الأفذاذ من أسر القاعدة والشاهد الواحد وكلام المصنف أو الشارح أو المحشى؛ لأتوا بخير كثير فى الإعجاز البيانى للقرآن الكريم.

ومما يدل على هذا التقديس للقاعدة أو عنوان الباب عند المصنف أنَّ الإمام السعد ٧٩١هـ لّما اقترح أن يكون عنوان الباب [تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه][(١)] بدل [تأكيد المدح بما يشبه الذم] ورأى أن التسمية الأولى تتيح دخولَ شواهد كثيرة تخلو من معنى المدح والذم، ومثَّل بقوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء : ٢٢]، لم نر صدىً لهذه الدعوة، حتى فى دراساتنا المعاصرة، ومنها ما يدرسه طلابُ العلم، ثم رأينا العصام ٩٤٣هـ يعترض على تسمية السعد، وكأن الأخير قد ارتكب جرماً، واحتج العصام بحجة واهية تنطلق من تقديس النصوص، يقول: (وفيه نظر؛ لأنه لو كان تأكيد المدح بما يشبه الذم بمعنى تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه، لم يصح ذكر تأكيد الذم بما يشبه المدح مقابلاً له، ولم يصح ما ذكره فى شرح المفتاح أن المفتاح اكتفى عن تعريفه بما يفيده الاسم؛ لأن الاسم يفيد ما هو أخص من تعريفه ...)[(٢)] ويمضى الرجل فى طريق غلق الباب

(١) ينظر: المطول : ٤/ ٣٠٠ – ٣٠١.

(٢) الأطول : ٢/ ٢١٣.

على ما اقترحه السعد بما لا يخالف ديناً ولا حكماً ولا لغةً، وعلى الرغم من ذلك وجدنا شيوع تسمية السعد فى مصنفات بعض المتأخرين كالشهاب والطاهر ابن عاشور.

جهـود المحدثين :

إذا كان ما تقدم يمثل غاية ما انتهى إليه القدماء فى بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم، ويمثل كلَّ ما ورد عندهم فى هذا الباب من أساليب الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم؛ فسوف أعرض سريعاً جهود بعض المحدثين فى دراسة هذا الموضوع من ناحيتين: إحداهما: ذكرهم لفوائد وأسرار بلاغية ودلالية لهذا الأسلوب، والأخرى: مكانة شواهد القرآن الكريم من دراستهم ومدى توفيقهم فى اكتشاف أسرار بلاغية عالية، تمسُّ السياق والمقام، بعيداً عن الفوائد العامة المرسلة كالمبالغة والتأكيد والإيهام والطرافة.

وهذا عرضٌ ببعض هذه الجهود :

١) الشيخ أمين الخولى:

بلغت الدراسات النفسية والفلسفية أوجاً عظيماً فى منتصف القرن الماضى، حتى امتدت إلى كثير من العلوم، فارتبطت مباحثها بمباحث تلك العلوم.

وكان الشيخ الأستاذ أمين الخولى (رحمه الله) ممن أغرم بمناهج وذيوع تلك الدراسات، فأراد أنْ يعقد صلةً بينها وبين رؤيته فى تجديد البلاغة والأدب والتفسير، ونقل هذه الرؤية فى كتابه {مناهج تجديد}، وقد استحوذت البلاغة على الجزء الأكبر من كتابه؛ لأنها وسيلة إلى الأدب والتفسير.

وكان الأستاذ الخولى محافظاً ومجدداً فى آنٍ، فهو من المجددين المحافظين؛ الذين يلتزمون بما أنتجته عقول السابقين، ويدعون إلى تطويره بما يناسب الحياة والتطور الطبيعى لكل عناصرها؛ لذلك نراه فى كتابه يؤرخ فى إيجاز للبلاغة ويرى خضوعها أخيراً لمناهج التحليل

المنطقية والكلامية، فأصابها الجفاف وجمود الروح، مما نفَّر من درسها؛ فأراد أنْ يُخلصها من تلك المناهج بوضع منهج جديد يعتمد على إحياء الطريقة الأدبية وتنميتها، وذلك عن طريق عَقْدِ صلة بين علمى الفلسفة وعلم النفس ومباحث علم البلاغة، ومن ثم كان التجديد تجديداً تاريخياً وطيد الدعائم، فالبلاغة تتصل بكل علم أو فن أو عمل يهمه التأثير فى النفس الإنسانية والبصر بمسالكها والمعرفة بقواعدها، ومن ثم فالبلاغة ليست إلا تتبعاً لمواقع رضا النفس، ثم أتى بشواهد يستدل بها على صلة القواعد البلاغية القديمة بعلم النفس، من مثل: مراعاة حال المتكلم والمخاطب، وحديثهم عن الأمزجة الإنسانية فى الفصائل البشرية المختلفة وأثرها فى صوغ العبارات، وذكرهم للتخييل والإيهام، والغيرة، والتشويق، وطلب الإصغاء ... إلى غير ذلك من مظاهر الاعتماد القوى على الخبرة بالنفس الإنسانية، اعتماداً يدل على العلاقة الوثيقة بين البلاغة وعلم النفس، وهذا هو الأصل الذى تعتمد عليه كل الفنون الرفيعة – ومنها البلاغة –، فرأى أن تُقدَّم بين يدى الدرس البلاغى مقدمة نفسية تدرس فيها القوى الإنسانية بعامة، وما له منها أثر فنى بخاصة، وأراد الخولى أنْ يُقنن لتلك المعانى النفسية فى نقدنا البلاغى، فيكون القول بها معتمداً على غير اللمحة الخاطفة، والملاحظة السطحية، والهاجس الطائر، وبهذا لا يكون فَنُّنَا لعباً بالألفاظ، ولا خواطرَ متناثرة، كما لا يكون نقدنا فارغاً معاداً، نضعه فى كل بيت، ونلبسه لكل قصيدة[1].

وبذلك تتخلص (دراسة البلاغة من تلك التعليلات الركيكة المزيفة، التى لا تعتمد إلا على نظر عقلى بعيد عن روح الفن ...)[2].

(١) يراجع: مناهج تجديد، للأستاذ أمين الخولى: ١٤٣ – ١٩٤ دار المعرفة ط أولى ١٩٦١.

(٢) مناهج تجديد : ١٩٦.

كان هذا إيجازاً لتنظير طويل جداً لفكرة المنهج الجديد عند الشيخ أمين الخولى، ولم يمثل لتلك التعليلات الركيكة والملاحظات السطحية، إلا بموضعين من كلام القدماء، كان الثانى فى قولهم: المجاز أبلغ من الحقيقة، والكناية أبلغ من الإفصاح، وتعليل ذلك بأنه كدعوى الشيء ببينة ... وليس هذا موضع بحثنا، بل موضعه ما مثَّل به أولاً من تنظير القدماء لأسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم، وشرحِهم التأكيد فيه من الوجهين المعروفين، فيعلق على ذلك بقوله: (هذا ما يقولونه، ولو رجعنا إلى أنفسنا لوجدنا أنَّ التعليل الأول بالدعوى والدليل عليها، تعليلٌ فيه الغموض والإبهام، وإشارة إلى نقيض المدعى والمحال، والثبوت بالبطلان، وفيه فوق ذلك أنَّ الشعور بمعنى الاستدلال، أو وجدان أثره فى الإثبات لا يلمح منه شيء فى نظم الكلام، فلا يزال السامع يجد دعاوى مرسلة لم يتأيد منها شيء بشيء، وما زعموه من أثر البيِّنة وتقوية الدعوى لا وجود له، ولا يتبادر إلى النفس من فعله أثر، وليس التعليل النحوى الآخر بأحسن حظاً من سابقه الفقهى؛ فهذا الذى يذكرونه من الاتصال والانقطاع اعتباران نحويان، لا يحس المرء تدكرهما أو ملاحظة الفرق بينهما، حينما يسمع هذا الأسلوب، وليس كل من يجد أثر هذا الأسلوب فى نفسه قد درس الاتصال والانقطاع فى الاستثناء، بل لعل معرفة المرء لهذا الاتصال والانقطاع يضعف معها شعوره بميزة هذا الأسلوب، ثم هم أنفسهم قد عَدَّ بعضهم فى هذا الوجه من التعليل تمحلاً، كما لاحظوا أنَّ التعليل الأول إنما أفاد التأكيدَ بأمر تخييلى)[1].

وخلاصة ما يعترض به الشيخ الخولى على هذين التعليلين؛ هو اعتمادهما على المنطقية الجامدة التى يريد أنْ يُخلِّص البلاغةَ منها؛ لأنها تنبو عن الذوق والحس والشعور، ولسنا فى

(١) مناهج تجديد : ١٩٧.

حاجة إلى الدخول فى جدل مع الشيخ بشأن الدفاع عن جهد السابقين؛ لأن من مقومات فكر الرجل الأصيلة احترام ما أبدعته قرائح عقول البشر[1]، فهو يهدف إلى التجديد القائم على مراعاة ما يصلح من القديم للحاضر، ولكن ما يؤخذ عليه هنا هو عدم حمده أى شيء فى هذا التنظير القديم، وكان دافعه إلى ذلك – كما قلت – اعتماده على المنطقية، فَنَقَضَ دعوى الشيء ببينة بأنَّ فيه غموضاً وإبهاماً، ولا أرى غموضاً فى هذا التعليل، كما أنَّ اعتراضه بأن الشعور بالاستدلال لا يُلمح فيه، اعتراضٌ واهٍ، لأنَّ فيه شعوراً بالاستدلال، ثم إنَّ بناء اعتراضه على التعليل الثانى من أنَّ المرء لا يُحسن ملاحظة الفرق بين الاتصال والانقطاع حين يَسمع هذا الأسلوب، وإتباع ذلك بأنْ ليس كل من يجد أثر هذا الأسلوب فى نفسه قد درس الاتصال والانقطاع، ثم التدرج فى الاعتراض بأنَّ معرفة ذلك ودَرْسَهُ قد يضعف الشعور بميزة هذا الأسلوب؛ كلَّ هذا من الشيخ (رحمه الله) أقوالٌ يغشاها الشَّطَطُ والإبعاد فى الاعتراض، ويتجافى مع غرضه هو من هذا التجديد الذى يوجهه إلى أهل العلم بالبلاغة والأدب، ومُدرِّسى هذين الفنين؛ إذ إنهم لَمَّا يدرسون مباحث علم النفس وصلتها بقواعد القدماء، ويبثون ذلك فى تلامذتهم؛ يتحقق اتصال البلاغة بالحياة العاملة، (فتبث فى الحياة روحاً آملة، وهمة طامحة، فتسمو الآمال، بقدر ما تدق المشاعر، ويعمق الإحساس، فيأنف من احتمال الظلم، والرضا بالضيم، وينفر من حياة لا معنى فيها ...)[2].

أقول إنَّ اعتراضه يتعارض مع هذا الهدف؛ لأنه ينبغى أنْ يتوفر فى هؤلاء المعلِّمين معرفة قواعد النحو، ومنها: الاتصال والانقطاع فى الاستثناء؛ وإلا فسيجد مَنْ يزعم أنَّ

(١) يراجع: مقدمة مناهج تجديد للدكتور شكرى عياد : ٨.

(٢) مناهج تجديد : ١٩٥ بتصرف يسير.

الشيخ يريد هدم ذلك – وما هو بذلك – ففى ظاهر كلامه تأييدٌ لبعض مَنْ ينادون بهذا الهدم[1]، وقد استغل كثير من "الحداثيين" مثل هذه النصوص؛ فشطحوا وضلوا، وما قدموا شيئاً نافعاً.

فاعتراضُه بأنَّ المرء لا يُحسن ملاحظةَ الفرق بين الاتصال والانقطاع حين يسمع هذا الأسلوب، هو عذرٌ أقبح من ذنب، أو قل: كلاهما مستويان فى القبح؛ لأنَّ المتصل بالعلم والأدب يُدرك ذلك ويُحسنُه بمجرد سماعه.

أما قولُه بأنْ ليس كل من يجد أثر هذا فى نفسه قد درس الاتصال والانقطاع؛ فهى مغالطة؛ لأنه ما وجد أثر ذلك إلا بهذا الانقطاع؛ أما عدمُ علمِه به فهذا شأن جهله.

وأخطر ما فى اعتراضه هو خوفه من أنَّ المعرفة بنوع الاستثناء تُضعف الشعور بميزة هذا الأسلوب؛ وهذا لَعمرى أمرٌ خطير فى العلم؛ مؤداه أنَّ العلم والمعرفة لا ينفعان أحياناً فى تذوق الأساليب، وهذا عظيم الخطر عند مَنْ يعتد به خاصة فى البلاغة القرآنية، وما يؤدى إليها من الشعر القديم، وسوف يتضح فى المبحث الثالث أهمية معرفة نوع الاستثناء فى التوصل إلى كثير من الدلالات والأسرار واللطائف.

ولنستمع الآن إلى فكرة التجديد التى سجلها الأستاذ أمين الخولى فى فهم هذا الأسلوب، بعد اعتراضه على كلام القدماء وكونه لا يصلح تعليلاً قوياً، يقول: (ولعل السر النفسى لذلك فيما يظهر، هو ما فى هذا الأسلوب من معنى المباغتة والمفاجأة التى تكسبه طرافة، وتثير حوله تنبُّهاً، وسواء أكانت هذه الطرافة تقوم على اتصال الاستثناء أو يتحول معها منقطعاً؛ فإنَّ المباغتة هى الأصل، لا ملاحظة الاستثناء وحالته، وقد نجد آخرَ قولهم فى

(١) يراجع: المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، د/ شكرى عياد: ١٢-١٨ سلسلة عالم المعرفة رقم ١٧٧ وغيره مما كتب فى الحداثة الشاردة.

هذا المقام لمحةً كخفقٍ للبرق، نستخرج منها هذا المعنى النفسى، لشعورنا به لا للفت عبارتهم إليه، وتلك اللمحة هى قولهم: تَأَكَّدَ المدحُ لكونه مدحاً على مدح، وإنْ كان فيه نوعٌ من الخلابة، فما أحوجَ هذه الخلابة إلى البيان، لأنها روح التعليل، وسر الحياة فى الأسلوب)[1].

أرأيتَ! هذا هو التجديد، إنَّ القارئ يُدرك أنَّ الشيخ لم يأت بجديد فى فهم هذا الأسلوب؛ لأنه قصره على معنى المفاجأة والطرافة والتنبه، وقد سبق فى بيان غرض هذا الأسلوب عند القدماء، أنه يفيد: التأكيد، والمبالغة، والإيهام، كما أنَّ فيه نوعَ تأخيذٍ وخلابة، حتى أطلقوا عليه (الاستثناء الخداعى)، فهذه مفردات تفيد أكثر من معنى المبالغة التى أوردها، وقرر أنها تحتاج إلى دراسة علم النفس، فالشيخ يعود إلى رياض القدماء، ويقطف منه هذه الزهرة، وهو يقر بذلك حين ينقل عنهم كلمة (الخلابة).

ولم يتناول الشيخ أىَّ نموذج للأسلوب بالتحليل وفق منهجه الجديد، وأعتقد أنه هرب من هذا؛ لأنَّ تحليله – وفق فكرته الجديدة القديمة – سيعود به إلى طريقة السابقين رغم أنفه، كى يحقق هذه الخلابة والمفاجأة.

لذلك أرى فى النهاية أن القدماء سبقوا الشيخ؛ لأنهم جمعوا بين أمرين – أراد هو إضعاف أحدهما –: الأول: التقعيد والتنظير لهذا الأسلوب بما يمكن به أن يُدْرَسَ فى مباحث وقضايا العلم. والثانى: الجانب النفسى والشعورى الذى يفيده هذا الأسلوب.

٢) الدكتور أحمد إبراهيم موسى:

لم يذكر فى كتابه (الصبغ البديعى فى اللغة العربية) أى شواهد من القرآن الكريم فى حديثه عن أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم، وذلك فى القسم الثانى من كتابه، والذى

(١) مناهج تجديد : ١٩٧.

خصصه لمكان الصبغ البديعى من البلاغة، وكان غرضه فيه (إنصاف البديع من جور المتأخرين وإنقاذه من عسفهم، بوضعه فى مكانه اللائق به من البلاغة، والاقتصاص له من هذا الحكم الجائر الذى حط من مكانته، وأضعف من قوته، وقلل من بهائه وروعته، وقضى عليه بأن يكون ذيلاً من ذيول البلاغة، وذنباً من أذنابها، وعَرَضاً من أعراضها ...)[1] فعمد إلى إثبات الحُسْنِ الذاتى لألوان البديع فى الأسلوب، فذكر شواهد شعرية فى الباب الذى معنا، وشرحها على طريقة الخطيب المنطقية، وقرر أنَّ هذا الأسلوب يفيد المبالغة والتأكيد، وهو ما ناسب مقامات تلك الأبيات من مدح أو فخر، وذكر مع الشعر قول النبى (ﷺ) «**أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش**»[2] ولم يخرج شرحه وتحليله عن شرح القدماء.

٣) الدكتور عبد العظيم المطعنى :

لشيخنا العلامة المرحوم الدكتور المطعنى كتابٌ فى البديع سماه: {البديع من المعانى والألفاظ}، ذكر فيه تأكيد المدح بما يشبه الذم، وعكسه، وأثبت ثلاثة شواهد من القرآن الكريم تنتمى إلى الاستثناء المفرغ[3]، ولم يزد (رحمه الله) فى شرحه وتحليله على مجرد تطبيق القاعدة عليها كما عند الخطيب.

---

(١) الصبغ البديعى : ٤٧٠.

(٢) ينظر: الصبغ البديعى : ٤٨٨ – ٤٩٠.

(٣) هى قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا ﴾ الأعراف : ١٢٦، ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ المائدة : ٥٩، ﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ البروج: ٨ ينظر: البديع من المعانى الألفاظ : ٦٨ – ٧٥ وهبة ط أولى ١٤٢٣ – ٢٠٠٢.

٤) الدكتور صبَّــاح عبيــد دراز :

لشيخنا الأستاذ الدكتور صبَّاح دراز قدرة عجيبة فى تذوق أساليب العربية عامة، ومن مظاهر هذه القدرة البراعة فى الإحاطة بألوان الأسلوب الواحد ثم بشواهد هذه الألوان فى الشعر والقرآن الكريم، فيجمع النظير إلى النظير، ثم يعطيك زبدة فكره وخلاصة نظره فى تعبير راق.

وقد عُنى العلامة الدكتور صبَّاح دراز عناية كبيرة بهذا الأسلوب فى كتاب: {بحوث بلاغية فى علم البديع}، فهو يصفه أولاً بقوله: (وهو لون من الأساليب المثيرة التى تجمع بين المتباينات والصفات المتقابلات أو المتجاذبات ... ولذا فهو يثير الفكر والخيال، ويحتل من البلاغة مكاناً عالياً، وفيه إثارة وخلابة، ولا يأتى إلا فى المقامات الجهيرة القوية التى تقتضيه)[١].

ثم ذكر أنَّ شواهد الاستثناء المنقطع تنتمى إلى هذا الباب المتسع سيما إذا اعتبرنا اصطلاح السعد: تأكيد الشيء بما يشبه ضده، ثم حذر من رد بعض العلماء المنقطع إلى المتصل تأويلاً، فقال: (ولو حاولنا التقدير فى المنقطع دائماً لكان الاستثناءُ كلُّه متصلاً، وهو خروج على طبيعة الأساليب العربية)[٢].

فشدَّد على ضرورة مراعاة ظواهر الأساليب حتى لا نفقدها قيمتها، وبعد أنْ بيَّن قيمة هذا الأسلوب ذكر كثيراً من الشواهد القرآنية وحللها بأسلوبه العذب البديع، وهو ما لا تجده عند غيره، وبدأ ذلك بقوله: (وقد جاء هذا اللون التنزيلى الذى نزل فيه التضاد منزلة

---

(١) بحوث بلاغية فى علم البديع، د/ صبَّاح دراز : ١٣٧، الأزهر للطباعة ١٤١٧ – ١٩٩٧.

(٢) السابق : ١٤١.

التجانس فى عديد من الآيات التى تثير التعجيب والدهشة الغالبة من محاولة الالتئام بين المتقابلات)[1].

وهذا الالتئام بين المتقابلات، والجمع بين المتناقضات، يُعد مدخلاً أصيلاً من مداخل دراسة الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم، وسوف نقف على شواهد كثيرة له فى المبحث الثالث، ومن ثم يُعدُّ ذلك من بدائع شيخنا الدكتور صبَّاح فى بيان القيمة الذاتية لهذا الأسلوب.

ثم ذكر شواهد لهذا الجمع بين المتقابلات من باب الاستثناء المفرغ – الذى يخرج من نطاق هذا البحث – فيذكر قوله تعالى فى رد قوم لوط على نبيهم (عليه السلام): ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (الأعراف : ٨٢)، ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ (النمل : ٥٦)، ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (العنكبوت: ٢٩)، وكذلك رد الكفار على سيدنا إبراهيم (عليه السلام): ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (العنكبوت: ٢٤)، ويعلق على كل هذه الآيات بقوله – حفظه الله – : (والآياتُ تصور موقفَ المكذبين، فقد جاءوا بما لا يكون جواباً، ذلك أن الإيمان عندهم أصبح معدنَ عذاب، ونبعَ انتقام، فهو قلبٌ حاد للمواضعات والحقائق، دالٌّ على تشويه الفِطَر، وشذوذ الطبائع، وما أصابهم من جنون الانفعالات، إنَّ الآيات هنا تثير فيضاً من

(١) بحوث بلاغية فى علم البديع : ١٤٢.

المشاعر المتداخلة، أبسطها أن تمنح القارئ شيئاً من الاستعلاء الأخلاقى والتطهير النفسى والاستواء فى المشاعر، الذى على ضوئه يكون نقد الباطل ونصرة الحق)[1] تأمل فلن تجد هذا عند غيره ...

ثم يذكر آيات أخرى فى الاستثناء المفرغ، يُعلِّق عليها مثلَ هذا التعليق الثمين، وقد أبدع شيخنا فى شرح وتحليل شواهد هذا النوع من الاستثناء الذى لا يُذكَر فيه المستثنى منه، أما عندما أتى إلى شواهد الاستثناء المنقطع فقد كاد يقتصر فيه على مجرد الترجيح بين الاتصال والانقطاع كبعض القدماء، دون أنْ يُعَلِّقَ عليها تلك التعليقات التى لا يَنطق بها إلا مثل شيخنا أعزه الله، وقد مهد لهذه الشواهد بقوله: (وقد يتوقف العلماء عند أساليب فيها هذا التباين المثير بين الطرفين، فتختلف الآراء بين اتصال الاستثناء أو انقطاعه ...)[2].

فيذكر تسعَ آياتٍ[3] من هذا الأسلوب الذى أعيا الكثير، ولكنْ كان غايةُ جهده موجهاً نحو بيان وجه الاتصال والانقطاع والترجيح ما أمكن، فلم نَرَ تحليلاً بلاغياً طويلاً كما فى

(١) السابق : ١٤٣.

(٢) بحوث بلاغية فى علم البديع : ١٤٨.

(٣) هى على ترتيب الكتاب قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ النمل : ٥٦، ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ الحجر: ٣٩ – ٤٠، ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ آل عمـــران : ٤١، ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ﴾ مريم : ٦٢، ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴾ الواقعة : ٢٥ – ٢٦، ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ الـــــدخان : ٥٦، ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ الغاشية : ٦، ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ الحاقة : ٣٦، =

المفرغ، بل خرج إلى موضوعات أخرى تتفرع عن الآيات كالحقيقة والمجاز فى بعض المفردات.

ومن الشواهد التى تناولها قولُه تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ (مريم: ٦٢)، ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ (الواقعة: ٢٥ – ٢٦)، فيبين الانقطاعَ بأنَّ السلام ليس من جنس اللغو، وذَكَرَ قولَ مَنْ أجاز اتصاله وقولَ مَنْ جعل السلامَ هو الدعاء بالسلامة من الآفات، وردَّ هذا القولَ، وانتهى إلى أن السلام المراد فى الآية مقصود به التحية والتكريم[1] ولم يزد على هذا.

ومن شواهده أيضاً قوله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الدخان: ٥٦)، يقول: (ولما كانت الموتة الأولى قد سبقت نهاية لما مضى من الدنيا فهو منقطع، وقد وضع ﴿ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ موضع "لا يذوقون فيها الموت أبداً"؛ إذ ما مضى لا يذاق فيما يستقبل، والانقطاع على طريقة الحجازيين، أما طريقة بنى تميم المجوز فيها البدل من غير الجنس فالزمخشرى كثير الاتباع لها، ويجعل الاستثناء متصلاً على سبيل الفرض، وسرها تأكيد النفى على وجه لا يبقى فيه مطمع فى الإثبات)[2].

وطريقة الدكتور صبَّاح تقترب من هذا فى بقية شواهده.

=﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ النبأ: ٢٤ – ٢٥ .. ينظر: بحوث بلاغية فى علم البديع: ١٤٨ – ١٥٧.

(١) ينظر: بحوث بلاغية فى علم البديع: ١٥٢ – ١٥٣.

(٢) بحوث بلاغية فى علم البديع: ١٥٣.

والخلاصة أنَّ الدكتور صبَّاح دراز عُنى بهذا الأسلوب أكثر من غيره، فقد تناوله فى عشرين صفحة من كتابه، فوصفه وبيَّن قيمته وخَطَرَ تأويله، ثم وَجَّهَ اهتمامه نحو شواهد الاستثناء المفرغ فأبدع فيها أيَّما إبداع، وهو ما لم يصنعه مع شواهد الاستثناء المنقطع، لكنه نبَّه على مدخل أصيل لفهم بلاغة هذا الأسلوب فى القرآن الكريم، تمثَّل فى قدرة هذا الأسلوب على الجمع بين المتباينات بطريقة خاصة تقتضيها مقاماتٌ بعينها، مما يحتاج مزيداً من النظر والتدبر لاستخراج ما وراءه من معان.

٥) الدكتور محمد عبد المطلب:

• يعد الدكتور محمد عبد المطلب أحد أبرز المعتدلين الذين جمعوا بين [الأسلوبية والحداثة] والتراث البلاغى القديم، فهو حريص فى مؤلفاته الكثيرة[١] على ألا يشن هجوماً على التراث بل تراه يصُدُّ عنه سهامَ الرماة والمتهجمين.

وما يعنينا هنا هو ما قدمه فى كتابه: {البلاغة العربية – قراءة أخرى}؛ إذ حاول فيه أنْ يضع تصوراً شمولياً لمفردات البلاغة، والكشف عن تفسير عميق لتحولاتها الظاهرة والعميقة، بعد أن قُدِّمت للناشئة فى قوالب جافة أفقدتها وظائفها الجمالية[٢].

كان هذا هو منهجه الذى مضت عليه قراءته لعلوم البلاغة الثلاثة؛ وبما أنَّ أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم من فنون البديع، فيهمنا تناول د/ عبد المطلب له.

• أكد الدكتور محمد عبد المطلب فى تقدمته لعلم البديع على أنَّ البلاغيين لم يكد يفلت منهم وسيلة تعبيرية إلا وكشفوا عنها، وحددوا خواصها البنائية، واستخلصوا من هذه

(١) منها: البلاغة والأسلوبية، بناء الأسلوب فى شعر الحداثة، جدلية الإفراد والتركيب، قراءات أسلوبية فى الشعر الحديث، كتاب الشعر، النص المشكل.

(٢) ينظر: البلاغة العربية قراءة أخرى : ١، الشركة المصرية العالمية للنشر ط أولى ١٩٩٧.

الخواص (المصطلح) الذى يُعبِّر عنها، وبذلك تنبهوا للمستوى الشكلى المحسوس بوصفه انعكاساً للمستوى الباطنى، فتحركت متابعتهم داخل دائرة المعنى الذهنى، ودائرة المستوى الصياغى، ثم يقول: (وبرغم هذه الحركة المزدوجة لا يمكن الادعاء ببلوغ أعماق المعنى فى كل دراسة؛ لأنَّ مِثْلَ هذا الادعاء فيه مصادرة على اجتهادات إضافية يمكن أَنْ تَطرح بتحليلها معانى أخرى، أو دلالات إضافية؛ لأنَّ خصوصية الخطاب الأدبى فى قابليته للاحتمالات المتعددة)(١).

ثم يؤكد على أنَّ البديع من العلوم الأساسية فى البلاغة، فهو جزء من كل، ونتيجة لمقدمتين {المعانى والبيان}، ثم يؤسس منطلقاً لقراءته الجديدة للبديع، فيرى بعد تدقيق وتأمل (أنَّ مجموعة الأشكال البديعية ترتبط بعلاقة عميقة تكاد تسيطر عليها وتوجه عملية إنتاجها للمعنى، وهذه العلاقة تتمثل فى البعد التكرارى الذى تجلى على مستوى السطح الصياغى، وعلى مستوى العمق الدلالى)(٢).

ثم شرع فى رصد أنواع البديع وتحديد النظام الذى يحكم حركتها الداخلية، وكان من بينها : أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم، وعكسه، وقرر أنها بنية دلالية يجتمع فيها التخالف السطحى مع التوافق العميق، وشرح أضرب هذين النوعين كما عند الخطيب القزوينى، لكن بطريقة محدثة، ومثال ذلك ما قاله فى قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ∴ بهن فلول من قراع الكتائب

قال د/ محمد عبد المطلب: (ويُلاحظ فى هذا الشكل وجود علاقة جامعة بين الصفتين، كما أنَّ حضور المتلقى إلى رحاب الصياغة أمرٌ ضرورى لإنتاج البنية لبلاغيتها؛ لأنه بمتابعته

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى : ٣٥٠.

(٢) السابق : ٣٥٠.

للصياغة يتوهم بدايةً أنَّ الصفة الثانية صفةُ ذم، فإذا بها تفاجئه بانتمائها إلى الجملة الأولى المادحة، وبالنظر فى إنتاجية البنية داخلياً نلاحظ أنها تدخل منطقة (الدليل) العقلى، إذ إن المبدع استدل على (عدم العيب) بأن (ثبوت العيب) مرتبط بكون فلول السيف عيباً، وهو محال، كما أنها تدخل منطقة (الإيهام)؛ لأن الأصل فى الاستثناء (الاتصال)، فإذا جاءت الصياغة بأداة الاستثناء تهيأت لإخراج ما بعدها مما قبلها، فإذا بما بعدها ينتمى لما قبلها، وهنا يتحقق نوع من (التراكم) المدحى، بتتابع صفات المدح فى العمق، وإنْ أوهم السطحُ بالمخالفة)[1].

ثم يشرح بقية أشكال هذا الأسلوب – وهى أضربه عند الخطيب – مثل هذا الشرح المتسلسل، وينتهى إلى أنَّ حركة المعنى فى هذا الأسلوب قائمة على (حالة تصادم بين السطح الموهم بالتضاد والعمق المنتج للتوافق)[2].

هذه هى القراءة الأخرى للدكتور محمد عبد المطلب لأسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم، وأُجمل التعليق عليها فى النقاط الآتية:

أ) هَدَفَ د/ عبد المطلب فى كل فصول كتابه إلى تخليص البلاغة من القوالب الجافة التى أفقدتها قيمتها الجمالية، عن طريق الكشف عن تفسير عميق لتحولاتها الظاهرة والعميقة، فكان هذا منهجاً له فى تناوله لكل علوم البلاغة، ومن ثم فسر حركة البنية فى هذا الأسلوب بأنها بنية دلالية يجتمع فيها التخالف السطحى مع التوافق العميق؛ فظاهر التعبير ذم، ولكن باطنه العميق مدح، وهما ضدان يتوافقان فى النهاية.

(١) ينظر: البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٨٩ – ٣٩٠.

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٩٢.

ب) جعل المتلقى عنصراً رئيساً فى إمكانية تحقيق هذا الشكل البنائى لفائدته ووظيفته التعبيرية والجمالية.

ج) وبعد أن اعتمد على المتلقى مضى فى التحليل على نفس طريقة الخطيب المنطقية (دعوى الشيء ببينة) مع تغيير فى المفردات والمصطلحات مما يشعر ويوهم بالجدة والحداثة، وهذا هو بيت القصيد فى قراءته؛ فالقراءة ليست جديدة؛ لأنها تسير على نفس خط القدماء فى أن التأكيد فى هذا الضرب حاصل من وجهين – كما سبق عند الخطيب – وهما يلمحان هنا بأدنى نظر، بل هو يعتمد عليهما اعتماداً أصيلاً، مع تغيير أو عدم تغيير فى المفردات، ومن ذلك:

- المتلقى ⟵ المخاطب - يتوهم ⟵ الإيهام

- الدليل ⟵ البينة

- الأصل فى الاستثناء الاتصال (لاحظ أنه نحَّى ذكر الانقطاع حتى ييسِّر الأمر)

- التراكم المدحى ⟵ مدحاً على مدح - الشكل البنائى ⟵ الضرب

فلا يخفى أنه نفس المنهج المنطقى الذى أراد أن يُخلِّص البلاغة منه، وما هى إلا مفردات جديدة من مثل: الشكل البنائى، المستوى الشكلى (السطح)، المستوى الباطنى (العمق) ... إلى غير ذلك من استحداث مصطلحات كانت سبباً فى إحداث تمزقات وشروخ فى الثقافة العربية[1].

د) وعلى الرغم من اعتقادى بأن ليس ثمة قراءة أخرى فى هذا الأسلوب؛ فإننى أشكر للدكتور محمد عبد المطلب ما نبَّه إليه من أنه لا يمكن الادعاء ببلوغ أعماق المعنى فى

(١) يراجع مثلاً: المذاهب الأدبية والنقدية: ١٢ – ١٣، المرايا المقعرة، د/ عبد العزيز حمودة: ١٧ – ٩٨ سلسلة عالم المعرفة رقم ٢٧٢.

كل دراسة، مهما تعددت القراءات، وتواردت المناهج على تلك الأساليب، مما يلفت إلى أنَّ أمثال تلك الأساليب صالحة إلى أن تكون محل اجتهادات ورؤى متنوعة[1].

٦) الدكتور محمد العبد:

تعد دراسة الدكتور محمد العبد – كما يقول –: (هى أول دراسة موسعة فى العربية تدخل إلى المفارقة : تنظيراً وتطبيقاً من مدخل لغوى متخصص، وهى – من ناحية أخرى – أول دراسة تحليلية متكاملة لخطاب المفارقة فى النص القرآنى)[2].

---

(١) من الدراسات التطبيقية التى ركنت إلى د/ محمد عبد المطلب فى التنظير كتاب {بناء المفارقة دراسة بلاغية تحليلية – شعر المتنبى نموذجاً} د/ رضا كامل، وهو يدرس ألوان المفارقة فى شعر المتنبى، وكان من بينها أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم، فنقل فى الجزء الذى عقده لذلك شرح د/ عبد المطلب لبيت النابغة، وقرر أن هذا الأسلوب يتحقق فيه مفهوم المفارقة، القائم على بنية تعتمد على ثنائية الدلالة – وهذا ما سبق إليه القدماء فى قولهم بالتضاد – ثم قسم فى التطبيق شواهد المتنبى إلى قسمين : الأول: بنية المدح بما يشبه الذم القائمة على الاستثناء – وهو الضرب الأول – وأورد فيه بيتا واحداً للمتنبى، ودخوله فى هذا الباب صحيح

والثانى: المدح بما يشبه الذم الناتج عن انقلاب المديح إلى هجاء، وأورد فيه تسعة عشر موضعاً من شعر المتنبى، وكلها لا يدخل فى هذا الباب أصلاً ؛ لأنه إن صح قصد الهجاء فيها فقد تكون من باب التعريض أو غيره، وهذا خطأ فاحش فى الكتاب ؛ لأن تلك المواضع لا تدخل تحت أىٍّ من الضربين ولا حتى الاستدراك. يراجع منه: ٢٣٤ – ٢٤٨.

(٢) المفارقة القرآنية دراسة فى بنية الدلالة، د/ محمد العبد: ٨، دار الفكر العربى ط أولى ١٤١٥ – ١٩٩٤، ومن تعريفات المفارقة: هى نوع من الدلالة المحولة فى مقابل الدلالة الأولية، أو هى: صيغة من التعبير تفترض من المخاطب ازدواجية الاستماع، أو هى: تعبير لغوى بلاغى يرتكز أساساً على تحقيق العلاقة الذهنية بين الألفاظ أكثر مما يعتمد على العلاقة النغمية أو التشكيلية. يراجع: المفارقة القرآنية : ١٥-١٦، بناء المفارقة، د/ رضا كامل: ٧ – ٨.

وقد جعل الباب الثانى من الكتاب للدراسة التطبيقية للمفارقة القرآنية، فدرس فيه الأنواع المختلفة للمفارقة التى أمكنه استخراجها من القرآن الكريم، وقام بتحليل بعض النماذج القرآنية لكل نوع.

وكان أسلوب (الاستثناء بعد النفى) من الأساليب التى ذكرها تحت أساليب مفارقة (الحكاية أو الإيهام) وعرف هذا النوع من المفارقات القرآنية بأنه (خطاب بالشيء عن اعتقاد المخاطب دون ما فى الأمر نفسه ... فاللفظ الذى تختاره المفارقة هنا له معنيان: أحدهما قريب تُوهم به المفارقة بصحة المعتقد، والآخر بعيد تنتقض به المفارقة هذا المعتقد وتنفيه، لتثبت ضده تماماً)[1].

وأسلوبُ (الاستثناء بعد النفى) من الوسائل التركيبية التى تصنع المفارقة فى القرآن الكريم، وذكر د/ العبد ثلاثة شواهد لذلك من القرآن الكريم، كلها من الاستثناء المنقطع، هى:

أ. قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ (الغاشية: ٦)

واعتمد شرحه على أنَّ الأسلوب هنا يفيد الإيهام بأنَّ الضريع طعاماً، مما يُثبت نوعا من المفارقة التهكمية، ثم عُنى ببيان ماهية (الضريع) الذى لا يصلح أنْ يكون طعاماً، وينتهى إلى أنَّ الأسلوب يفيد السخرية والتهكم والتحقير؛ لأنَّ الإبل لا تقوى على تذوق الضريع، فكيف بالإنسان حين يُجعَل هُوَ طعامُه[2].

ب. قوله تعالى: ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ (الحاقة: ٣٦)

(١) المفارقة القرآنية: ١١١ بتصرف.

(٢) ينظر: السابق: ١٢٩ – ١٣١.

وهو يفيد عنده – ما أفاده سابقه من – السخرية والتهكم[1].

ج. قولـــــه تعـــــالى: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ (النبأ: ٢٤ – ٢٥)

وهو يفيد أيضاً المفارقة التهكمية؛ لأنَّ "الغساق" – وهو ما يقطر من جلود أهل النار – ليس شراباً فى الحقيقة يَروى من ظمأ، بل خُصَّ به أهل النار[2].

وأُعلِّق على صنيع د/ محمد العبد فى النقاط الآتية:

أ- يعد بالفعل كتاب {المفارقة القرآنية} رائداً لجمهور الباحثين فى دلالات المفارقة فى القرآن الكريم، فقد عَبَّد لهم طريقاً – وإن لم يكن وعراً – فالكتاب مرجع أساسى لكل من كتب فى المفارقة القرآنية أو غيرها.

ب-لم يكن استخراج أنواع وأساليب المفارقات – التى ذكرها – من القرآن الكريم أمراً شاقاً وعسيراً كما تُوهمُ فى عبارته فى المقدمة: (التى أمكننى استخراجها)[3]؛ لأنَّ كل الأساليب التى ذكرها تحت أنواع المفارقات المختلفة، نص عليها القدماء فى علوم البلاغة، فهو يذكر: التهكم فى (المفارقات النغمية) ويستشهد بقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ (الدخان: ٤٩)، ويعتمد على تحليلات القدماء للآية، إلا أنه اهتم كثيراً بالناحية الصوتية[4].

---

(١) ينظر: السابق : ١٣١ – ١٣٢.

(٢) ينظر: السابق : ١٣٣.

(٣) ينظر: السابق : ١٣١ – ١٣٢.

(٤) المفارقة القرآنية: ٥٤ – ٧٠.

ويذكر فى المفارقة اللفظية شواهد فى المجاز (الاستعارة التهكمية)، كقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة : ٣)، فينقل من أقوال القدماء، ثم يعنى بالناحية الصوتية، وهو يعتمد فى تحليله على نفس الفكرة التى عند الدكتور عبد المطلب من توفير الأسلوب لمستويين: السطح والعُمق(١).

ويذكر فى مفارقة (الإيهام) التورية، والاستثناء بعد النفى، كما يذكر فى (المفارقة البنائية) قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ (هود : ٨٧)، وما فيه من معنى التهكم، وقد ذكر ذلك القدماء . ولن أستطرد فى هذا، فتكاد جميع شواهده يسبقه إليها القدماء فى مختلف مصنفاتهم (النحو، البلاغة، الأصول، التفسير) إلا أنه رَتَّبَ وبَوَّبَ.

ج- هو يعتمد طريقة (الاستدلال) المنطقية، فى سبيل وصوله إلى الدلالة العميقة للبنية الأسلوبية، وهو ذاتُ ما يَتهم به الحداثيون القدماءَ، فأذاعوا فى أوساطهم أنَّ طريقة الأقدمين لا تنفع فى تذوق النصوص واستخراج مكنوناتها.

د- حرص الدكتور محمد العبد فى تحليله لبنية أسلوب (الاستثناء بعد النفى) فى شواهده التى خلصت للاستثناء المنقطع؛ على ألا يذكر مصطلحى الاتصال والانقطاع، وأخشى أنْ يكون هذا بقصد التقرب إلى أهل الحداثة.

هـ- يقف الناظرُ إلى تحليل د/ العبد للآيات على عنايةٍ بالغةٍ بدراسة وتحليل النظم المحيط بالأسلوب، وكاد أنْ يقتربَ مِن منهجنا الذى نسير عليه؛ إلا أنه باعد بينه وبيننا أمران: أحدهما: الاهتمام الزائد بالتحليل الصوتى للمفردات، على الرغم من إبداعه وبراعته

(١) ينظر: السابق: ٧٣ – ٧٩.

فيه، والثانى: شغفه بنقل المصطلحات الأجنبيه للمفارقة وترجمتها إلى ما يناسب تحليله.

ولو خَلَعَ رِبقةَ الأخيرِ من عنقه لانطلق فى آفاق لن يلحقه فيها أحد، ولعل عُذره فى ذلك أنه كان معنياً بالتنظير والتطبيق فى كتاب واحد، نفع الله الجميع به وبغيره من العلماء المخلصين للغتهم ودينهم.

و- وعلى الرغم من عظيم قَدْرِ كتاب د/ العبد، فإنه يُخْشَى أن يُفْهَمَ من تحليلاته لنماذج قليلة من القرآن الكريم، أنه يقصر فائدة المفارقة بهذا الأسلوب على (الإيهام) – وهو ما ذبذب أركانَه ابن يعقوب قديماً كما مَرَّ – وأنَّ هذا هو السبيل الوحيدُ للفوز بدلالاتٍ باطنةٍ ومستترة وراء هذه البنية التركيبية، وهذا خطرٌ شديدٌ وقع فى شراكه كثيرٌ ممَّن درس هذا الأسلوبَ؛ لأنهم نأوا عن السياق القريب والبعيد الذى ورد فيه التركيب، وهو ما سأعتمده منهجاً فى دراستى التحليلية، وهو ما سأخرج به من إسار هذا التكرير والتقليد.. والله المستعان.

٧) دراســات أخــرى :

أُلِّفتْ كثيرٌ من الدراسات فى البديع، وكثيرٌ منها تناول هذا الأسلوب، وبيان بلاغته فى القرآن الكريم، ومن هذه الدراسات:

- (علم البديع – دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) للدكتور بسيونى عبد الفتاح فيود – أعزه الله –، ذكر فيه سبع شواهد من القرآن الكريم، ولم يتعد حدود تطبيق القاعدة على كل شاهد[1].

(١) ينظر: علم البديع، د/ بسيونى فيود: ٢٣٢ – ٢٣٧ مؤسسة المختار ط ثانية ١٤١٨ – ١٩٩٨.

• (البديع فى ضوء أساليب القرآن الكريم) للدكتور عبد الفتاح لاشين، ذكر فيه أربعة شواهد من القرآن الكريم، وهو كسابقه فى عدم تجاوزه تطبيق القاعدة[١].

• (البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية) للدكتور جميل عبد المجيد، قرر فيه فائدة هذا الأسلوب وأنها تتجلى فى السبك عن طريق إيهام الربط المنعكس، وهو إيهام يتناسب وطبيعة الكلام الأدبى[٢]، وقد سبقه القدماء إلى هذا الإيهام، لكنه مجرد تجديد فى المصطلحات، مع العلم بأنه لم يذكر أية شواهد شعرية أو قرآنية.

• (الاستثناء فى القرآن الكريم) دراسة تفسيرية، للدكتور أبو بكر السيد الباز، وقد سعدتُ كثيراً بعلمى به، وسعدتُ أكثر حين عثرت عليه، ثم زالت هذه السعادة لَمَّا قرأته؛ إذ جمع فيه مؤلفُه ما يزيد على ثمانين آية من الاستثناء بكل أنواعه فى القرآن الكريم، منها تسعة عشر آية فى الاستثناء المنقطع[٣]، لكن الكتاب ليس فيه إلا حسن التقسيم وجودة التصنيف

(١) ينظر: البديع فى ضوء أساليب القرآن، د/ عبد الفتاح لاشين: ٨٦ – ٩٠، دار الفكر العربى ٢٠٠١م.

(٢) ينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ١٥٤.

(٣) ينظر: الاستثناء فى القرآن الكريم، دراسة تفسيرية، د/ أبو بكر الباز: ٥١ – ٧٠ مطبعة الشروق بالراهبين ٢٠٠١م .. ومن هذه الدراسات التى تقتصر على تطبيق القاعدة على الشاهد: مباحث فى وجوه تحسين الكلام، د/ رفعت السودانى: ١٤٠-١٥٣. الأمانة ط أولى ١٤١١-١٩٩١، وشى الربيع بألوان البديع فى ضوء الأساليب العربية، د/ عائشة حسين فريد: ١٣٠ – ١٣٧ دار قباء ٢٠٠٠، رؤى فى البلاغة العربية دراسة تطبيقية لمباحث علم البديع، د/ أحمد محمود المصرى: ١٠٢ – ١٠٩، دار الوفاء أولى ٢٠٠٨، فن البديع، د/ عبد القادر حسين: ٩٣ – ٩٥ دار الشروق ط أولى ١٤٠٣ – ١٩٨٣، فن البديع، د/ محمد حسن حجازى. بدون: ٩٣ – ٩٩. =

والتبويب، فيورد الآية ويشرح معناها كما عند المفسرين، ويُبين موضعَ الانقطاع كما عند المفسرين أيضاً، ولم يتعد عملُه نقلَ آراء أهل التفسير، ويقع فى مائة وأربع وسبعين صفحة.

- تعليــق ومدخــل:

إذن دراسات البلاغيين فى هذا الصدد لا تنقع غلة طالب أسرار الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم؛ لأن قواعدهم كانت تطل على شواهده من بعيد، فلا يمكن إذن أن يُعتمد تنظيرهم لباب تأكيد المدح بما يشبه الذم، طريقاً إلى فهم أسرار بلاغة الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم؛ لأنها قواعد قاصرة من ناحية، ويمكن أن ينشئ المبدعون على هديها ما يكون مطابقاً لها، والقرآن غير هذا، فلا يُؤتى بمثله.

وأستأنس هنا بما قرره الباقلانى ٤٠٣هـ - بعد أن ذكر ضروباً من البديع، وكان آخرها باب (الاستثناء) - من أنه لا يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب وحدها؛ (لأن

=ومن الدراسات البنيوية كتاب (البديع وفنونه – مقاربة نسقية بنيوية) د/ شكرى الطوانسى، نشر مكتبة الآداب ط أولى ٢٠٠٨، وقد مثل فى دراسته بشواهد القدماء، وشرحها مثلهم، وقرر أن علاقة (التقابل) هى التى حققت هذا الانسجام هنا، ولم يزد على ذلك .. يراجع فيه: ٢١٤ – ٢١٦.

وقد أشار د/ الشحات أبو ستيت (رحمه الله) إلى أن هذا الأسلوب يساعد على ربط أجزاء الكلام . ينظر: دراسات منهجية فى علم البديع: ١٩٥ ط أولى ١٤١٤ -١٩٩٤.

ولم يعلق الدكتور محمد أبو موسى – حفظه الله – على قول النابغة:

لا عيب فيها إذا ما اغتر فارسها ∴ شأو الفجاءة إلا أنها تثب

إلا بقوله: [وهذا هو الذى يسميه العلماء تأكيد المدح بما يشبه الذم، وهو من باب قوله: (ولا عيب فيهم ...) وكأن هذا الحذو من البناء كان محبباً إلى النابغة فكرره فى كلامه] الشعر الجاهلى دراسة فى منازع الشعراء: ٤٣١ وهبة ط أولى ١٤٢٩ – ٢٠٠٨.

هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدرب والتعود والتصنع لها ... والوجوهُ التى تقول إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه بحال ... فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذى ادعوه فى الشعر ووصفوه فيه، وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له)[1].

ومما يؤيد قولى بأن قواعدهم قاصرة لا تسمو إلى أن تحيط بأساليب القرآن، أو بالأحرى بأفانينه فى الأسلوب الواحد؛ أننا لاحظنا فيما سبق ما قاله القزوينى فى آيتى مريم والواقعة، من أنهما يحتملان الوجهين، وتحتمل آية مريم وجهاً ثالثاً، فإذا قرأتَ فى (الأطول) ألفيت العصام يسترسل فى شرح ذلك ويجيز أوجهاً أخرى، حتى دفعته محاولة وضع آية مريم تحت ضرب بعينه إلى أن يقرر أن تعريف الضرب الأول يختل وينهدم ما ذكر فيه بالدفعة، حين تجعل الآية منه[2].

فهذه آية واحدة أعيتهم وما استطاعوا أن يسلّموا بأنها من ضرب بعينه، فكيف بكل آيات هذا الأسلوب، وإذا كان الأمر كذلك فإن على البلاغيين المعاصرين أن يكملوا ما نقص فى دراسات السابقين، ويميطوا اللثام عن الأسرار البلاغية لكثير من أساليب القرآن الكريم.

وها أنا أحاول كشف بعض تلك الأسرار فى الصفحات القادمة، ولّما لم أجد فى دراسات السابقين ما ينفع فى المنهج، أثبت هنا أن مدخلى فى دراسة بعض آيات الاستثناء

(١) إعجاز القرآن : ٨٠ – ٨٣ بتصرف.

(٢) ينظر: الأطول : ٢/ ٢١٦.

المنقطع فى القرآن الكريم – دراسة بلاغية، سيتمثل فى التحليل البلاغى الهادف إلى الوصول إلى سر بلاغى لهذا الأسلوب، بمعونة السياق والمقام، فى محاولة تكون خطوة على الطريق.

فالسياق هو الذى يكشف عن سمات ومعانٍ جديدة ومتنوعة لهذا الأسلوب، فلكل مقام سماته وخصائصه ولطائفه، سيما سياقات القرآن الكريم.

ويبقى أن ألفت القارئ الكريم – قبل قراءة المبحث التحليلى – إلى أنَّ ما أقوله هنا لا يمثل إلا اجتهاد فرد من أفراد الأمة، والأمر يتطلب جهاداً يتبعه اجتهادات أخرى، فأسلوب الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم مما لا يمكن أن يدعى أحد أنه بلغ عمقه وقراره. والله المستعان.

المبحث الثالث
من آيات الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم
مدخل بلاغى تحليلى

١ - قال الله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

[البقرة : ٧٨]

عرض السياق والمعانى :

السياق فى اليهود، وهو سياق طويل، يبدأ من الآية الأربعين، حيث يذكرهم الله – تعالى – بنعمه عليهم، ويدعوهم إلى الإيمان بالقرآن المصدِّقِ للتوراة، ثم يقص الله – تعالى – نعمه عليهم مع نبيه موسى (عليه السلام) وما كان منهم إلا الكفر والتولى، إلى أن ينتهى السياق بقصة البقرة والحكم بأن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة، وبعد هذا السياق الطويل، يخاطب الله – تعالى – المؤمنين هنا – فى السياق القريب – بقوله جل شأنه ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥]، وهذا أول خطاب للمؤمنين بعد بداية سياق الحديث عن اليهود وجرائمهم وفضائحهم، فينكر الله - تعالى – على المؤمنين أن يطمعوا فى إيمان يهود زمانهم بعد أن سمعوا أخبار أسلافهم؛ (فإنهم متماثلون فى شدة الشكيمة والأخلاق الذميمة، لا يتأتى من أخلافهم إلا مثلُ ما أتى من أسلافهم)[1] ثم ذكر من شنيع عملهم ما يزيد شدة

(١) إرشاد العقل السليم، لأبى السعود : ١/ ١٥٠ ت: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية ط أولى ١٤١٩ – ١٩٩٩.

يأس المؤمنين من إيمانهم، وهو تحريفهم للتوراة، ومما حرفوه صفة النبى (ﷺ) وآية الرجم، ثم يمضى السياق فى ذكر الشنائع المؤيسة عن إيمانهم من نفاقهم وتصلبهم فى دينهم، إلى أن يأتى إلى ذكر هذا الفريق الأمّى الذى لا يعلم من التوراة إلا تلك الأمانى الفارغة التى أخبرهم بها رؤساؤهم من مثل عفو الله عنهم وشفاعة أنبيائهم لهم وأنهم لا يمكثون فى النار إلا أياماً معدودة، فكيف يُرجى إيمانُ مَنْ هذا حاله؟!

بلاغة الاستثناء المنقطع :

قوله تعالى: ﴿ أَمَانِيَّ ﴾ مستثنى منقطع من علم الكتاب؛ لأنّ الأمانى جمع أمنيّة، مشتق من منَّى بمعنى (قدَّر)؛ لأن المتمنى يقدر فى نفسه ويحزر ما يتمناه، أو بمعنى (تلا) والاستثناء منقطع على المعنيين؛ إذ ليس ما يتمنى وما يتلى من جنس علم الكتاب، فهذه الطائفة لا تعلم من الكتاب شيئاً، لكن يتمنون بعض الأمانى حسبما منَّتهم أحبارهم، فيقدرون ذلك فى نفوسهم، أو لا يعلمون الكتاب لكن يتلقونه قدر ما يتلى عليهم فيقبلونه من غير أن يتمكنوا من التدبر فيه[1]، فكلا المعنيين لا يثبت لهم العلم بالكتاب، أى إن كان ذلك يسمى علماً بالكتاب فهم يعلمونه، وهذا آكد فى نفى علمهم بالكتاب؛ لأن التأكيد فيه من وجهين كما قرر الخطيب ٧٣٩هـ سابقاً، ففيه دعوى الشيء ببينة، ثم إن الأصل فى الاستثناء الاتصال؛ إذ يتوهم المخاطب هنا لمّا ذُكرت «إلا» بعد نفى علم الكتاب عنهم مطلقاً، يتوهم أن يثبت لهم طرفاً من العلم، فلما ذكر «الأمانى» - وهى لا تدخل فى جنس العلم - خرج الاستثناء من الاتصال إلى الانقطاع، وفى ذلك نوع تأخيذ وخلابة ومبالغة.

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشرى : ١/ ٢٨٨ ط العبيكان أولى ١٤١٨ - ١٩٩٨، إرشاد العقل السليم : ١/ ١٥٤، روح المعانى للألوسى : ١/ ٣٠١، ٣٠٢ دار الفكر ١٤٠٣ - ١٩٨٣، حاشية القونوى على البيضاوى: ٣/ ٤٤٣ دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٢٢ - ٢٠٠١.

هذا ما يمكن أن يقال فى الآية على وفق تنظير البلاغيين، وأرجو من الله الفتح بأسرار أخرى، وقبل ذلك أود أن ألفت هنا إلى أمر ذى شأن، وهو:

اعتراض ابن يعقوب على فكرة الإيهام:

لابن يعقوب ١١١٠هـ (رحمه الله) ملحظ دقيق، يجدى فى الدراسة التحليلية لشواهد الاستثناء المنقطع عموماً؛ إذ إنه يعترض على رد التأكيد الذى يفيده هذا الأسلوب إلى فكرة إيهام السامع أو المخاطب، ويرى أن ذلك التأكيد مصدره الكلام ذاته والمتكلم، وأضطر هنا إلى إيراد كلامه واعتراضه بطوله؛ لأهميته ونفاسته، يقول:

(وقوله: « ذِكرُ الأداة يُوهمُ إخراجَ شيء دخل»، لا يخلو من تمحل وإيهام، أما التمحلُ فلأن الإيهامَ المذكورَ إنما يتحقق فى الخارج إنْ فُرض أن الأداة ذُكرت ثم ذُكر المستثنى بعد مُهلة، وأمَّا إنْ ذكر بإثرها فلم يتحقق إيهامُ إخراج شيء دخل؛ لأنه بنفس سماع الأداة سمعتْ صفةُ مدحٍ بعدها، والإيهامُ حيث تَعَلَّقَ بإخراج شيء دخل يحتاج إلى مهلة فى حصوله لطوله. وأما الإيهامُ؛ فلأن هذا الكلام يتبادر منه أن التأكيد يتوقف على حصول إيهام استثناء ما هو عيب، وأن ذلك التأكيد لا يحصل حتى يذهب الوهمُ إلى الاتصال ثم يعود إلى الانقطاع، وليس كذلك؛ بل إنما يتوقف على كون الأصل فى الاستثناء الاتصال، فالفائدة إنما هى فى بيان أن المتكلم لَمَّا كان الأصل فى الاستثناء ما ذُكر فُهم بعد الفراغ من الكلام أنه كان طلب الأصل وهو الاتصال، إذ هو الذى ينبغى أن يرتكب ويحمل عليه طلب الطالب فلم يجده؛ فلذلك تحول إلى الانقطاع باستثناء المدح، فيفهم التأكيد، والمدحُ الذى يُطلب معه عيب ولا يوجد أصلاً أوكد، فتأمل)[1].

(١) مواهب الفتاح: ٤/ ٣٨٩. قلت: وربما أمكن الإبقاء على (الإيهام) – كمدخل لفهم التوكيد فى هذا الأسلوب – من ناحية أن (الانقطاع) – الذى هو مسبب للإيهام – هو الباعث على إعمال الفكر=

وهذا النص الثمين لابن يعقوب يهدد كثيراً من الأغراض البلاغية فى كثير من قواعد البلاغة التى تعتمد المخاطب وتجعله محور التغيرات الأسلوبية داخل التراكيب، وهذا موضوع طويل يعوزه بحث خاص.

أما هنا فابن يعقوب يسقط فكرة الإيهام لدى المخاطب وأن التأكيد نبع من ذلك لسببين:

أولهما: أن الإيهام غير متصور لدى المخاطب؛ لأن المستثنى يذكر مع الأداة مباشرة بلا مهلة تسمح بوقوع إيهام، وخاصة فى تلك النصوص الموجودة بين أيدينا، ونتلوها ليل نهار منذ قرون عديدة.

وثانيهما: أن التأكيد هنا نتج عن أن المتكلم طلب صفة ذم فلمَّا لم يجدها استثنى صفة مدح، وكأنه أعياه وجود صفة ذم، فاستثنى مدحاً، فكان مدحاً على مدح، فحصل التأكيد، بعيداً عن فكرة المخاطب.

ولاشك أن التأكيد على نفى العلم عن الأميين من اليهود فى الآية التى معنا لا يمكن أن يتحقق بفكرة الإيهام لدى المخاطب؛ لأنه إن تحقق ساعة نزول الآية وحين تلاوتها على المسلمين أول مرة، لا يتحقق فيما بعد حين تقدُم الآية وتُتلى ويُتعبَّد بتلاوتها، ويكثر المخاطبون بها، ولا يفجأهم الاستثناء ولا المستثنى المنقطع، فلا يقع فى وهمهم الاتصال ثم يعودون إلى الانقطاع، ومن ثم يرتد التأكيد إلى الكلام ذاته أولاً، ثم يبحث عن أسرارٍ أخرى للانقطاع، تتغير تلك الأسرار تبعاً لتباين النظر بين القصر والطول، والتدبر فى السياق البعيد والقريب، وتبعاً للإخلاص والصبر والصفاء، والفتح من الله تعالى، وبذلك تبعد فكرة

=والنظر فى سر هذا الاستثناء، ومن هنا أيضاً يمكن الإبقاء على فكرة (المخاطب) ويعنى به حينئذ: كل متدبر لهذا الأسلوب، وليس من خوطب به أولاً.

المخاطب، ويسيطر المتكلم على الإبداع فى نصه، فيكون هو مصدر كل ذلك، وليس الحديث عن القرآن حديثاً عن الإبداع، بل هو الإعجاز الذى تحمله كلماته وأساليبه، فالأمر يتجاوز المخاطب بكثير؛ لأننا الآن مجرد باحثين عن الأسرار والدلالات والإيحاءات بأساليب ومناهج وأفكار عديدة، ولسنا منشئين لها.

وكذلك يتحقق التأكيد فى الآية – بعيداً عن إيهام المخاطب – من اعتبار وتصور أنَّ هذا الفريق من اليهود لَمَّا نفى الله – تعالى – عنهم علم الكتاب، وطُلب لهم مستثنى يحصُل به إثبات نوع من العلم لهم، ما وُجد ذلك، فكانت (الأمانى)، وكان تجهيلاً فوق تجهيل، سيما إذا راعينا سود السياق الطويل لأخبارهم السيئة وأخلاقهم الذميمة، ولاسيما أيضاً إذا تدبرنا قول الله – تعالى – قبل هذه الآية مباشرة ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (البقرة : ٧٧)، والأمانى المستثناة هنا من الأسرار ودخائل النفوس التى عقدوا صدورهم عليها، فهى متلبسة بجوانحهم، وتملك عليهم شغاف قلوبهم، فآمنوا بها وصدقوها حتى صارت بمنزلة الثوابت واللوازم عندهم، فعدت علماً فى زعمهم.

وهذا التقرير يسلمنا إلى ما يأتى:

السياق لتأييس المؤمنين من إيمان اليهود:

إذا أردنا أن نقف على سرٍّ خاص للتأكيد الذى أفاده الاستثناء المنقطع فى الآية، أى لم طلب المقام التأكيد وبهذا الأسلوب بالذات؟ فلابد من النظر سريعاً إلى السياق الذى وردت فيه الآية؛ لأن صدرها يربطها ربطاً شديداً به، وذلك فى قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ فالضمير يعود على اليهود الذين سبق الحديث عنهم.

وخلاصة السياق أنه لَمَّا تمنى بعض المؤمنين إسلام اليهود لما كان بينهم من جوار ولأنهم أهل كتاب وشريعة، أنزل الله – تعالى – هذه الآيات التى تقضى باستبعاد إسلامهم، على تعدد فرقهم وطوائفهم أو عناصرهم.

قال أبو حيان ٧٥٤هـ: (واستبعد إيمانهم لأنهم كفروا بموسى مع ما شاهدوا من الخوارق على يديه، ولأنهم ما اعترفوا بالحق مع علمهم، ولأنهم لا يصلحون للنظر والاستدلال)[١].

وقد قرر أبو حيان أن الآيات هنا تحدثت عن أربع فرق من اليهود، هم[٢]:

١) الفرقة التى حرفت كتاب الله بعدما ضبطوه وفهموه. ٢) فرقة المنافقين.

٣) فرقة المجادلة. ٤) فرقة العامة المقلدة.

أما الفرقة الأولى فتتمثل فى علمائهم وخاصتهم وأحبارهم الذين سمعوا التوراة ولم يعملوا بمقتضى علمهم بها، ثم حرفوها وبدلوها، وأوعزوا إلى العامة بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الله لن يعذبهم، وأن أنبياءهم ستشفع لهم، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، وأنه ليس عليهم فى الأميين سبيل ... فضلوا وأضلوا؛ جاء ذلك فى صدر السياق: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة : ٧٥).

---

(١) البحر المحيط : ١/ ٤٣٨ دار الفكر ١٤١٢ – ١٩٩٢.

(٢) ينظر: البحر المحيط : ١/ ٤٤٤، إرشاد العقل السليم : ١/ ١٥٤، وجعلهم زادة فرقتين: (الأولى: علماؤهم ورؤساؤهم الذين كانوا يعرفون الحق ولا يقبلونه عناداً واستكباراً، والفرقة الثانية جهلتهم الأميون الذين شأنهم التقليد بالفرقة الأولى) وهذا ناتج من تداخل التراكيب . حاشية زادة : ١/ ٣٣٥ دار إحياء التراث العربى • بيروت بدون.

أما الفرقة الثانية (المنافقون) فيصورها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ (البقرة : ٧٦)، فهذه طائفة ثانية إذا كانت الجملة مستأنفة[١]، وقد تكون جملة حالية معطوفة على قوله: ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ وبذلك تكون من صفات الفريق الأول، فيجمع بين التحريف والنفاق.

والفرقة الثالثة (المجادِلة) يصورها قوله تعالى ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ٧٦)، وهو فريق متصلِّبٌ فى دينه، ينكر على من آمن نفاقاً أن يحدثوا المؤمنين بما فى التوراة من صفة سيدنا محمد (ﷺ) أو غير ذلك[٢].

والفريق الرابع (الأميون) – وهو موضع الاستثناء المنقطع – يختم الله به أصناف اليهود فى هذا السياق، فيقول جل شأنه ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (البقرة : ٧٨)، فهى فرقة عامة لا تعلم شيئاً من الكتاب، وأمْرُهُم مبنىٌّ على الظن، فيُسيِّرهم رؤساؤهم كيف شاءوا.

وإذا كان هذا هو حال فرق اليهود فكيف يُطمع فى إيمانهم؟

---

(١) قال أبو حيان: (وقال بعضهم : المؤمنون هنا جماعة من اليهود آمنوا وأخلصوا فى إيمانهم، والضمير فى ﴿ لَقُواْ ﴾ لجماعة من اليهود غير معينة باقية على دينهم، أو لجماعة منهم أسلموا ثم نافقوا، أو لليهود الذين أمرهم رؤساؤهم من بنى قريظة أن يدخلوا المدينة ويتجسسوا على أخبار النبى (ﷺ) قالوا: دخلوا المدينة وأظهروا الإيمان، فإنه نهى أن يدخل المدينة إلا مؤمن) البحر المحيط : ١/ ٤٤٠.

(٢) وذكر أبو حيان أن مما أنكروه عليهم فى التحديث: ما عذب به أسلافهم، وأن رسول الله (ﷺ) قال لبنى قريظة : يا إخوان القردة والخنازير، فقال الأحبار لأتباعهم: ما عرف هذا إلا من عندكم . وأورد أقوالاً أخرى. ينظر: البحر المحيط : ١/ ٤٤١، الكشاف : ١/ ٢٨٨، إرشاد العقل السليم : ١/ ١٥٢.

الخيط الجامع بين الفرق الأربعة:

المتدبر فى أسلوب القرآن الكريم عن هذه الفرق يلحظ تداخلاً عجيباً بينها، حتى لا يرى تقسيمها وتشعيبها إلا لقصد الشرح والتقريب، فالمعانى والتراكيب متداخلة تداخلاً بديعاً ومعجزاً، وليس هنا مقام تفصيل ذلك، فمن يتصفح كتب التفسير يشهد أن الاختلاف فى تأويل المعنى هنا نابع من تداخل تراكيب السياق.

وما يعنينا هنا هو الالتفات إلى ذلك الخيط الدقيق الذى يجمع هذه الفرق كلها تحت فرقة واحدة هى (اليهود)، ويتجلى ذلك الخيط فى (العلم) وما يتبعه من عمل؛ فقبائح اليهود التى ذكرت هنا، والتى عُدت دلائل استبعاد إيمانهم، كان مرجعها سلب العلم عنهم لمّا لم يعملوا بمقتضى هذا العلم، ولذلك ترى مادة العلم تسود السياق وتلفه ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ - أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ - وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وثمة مفردات أخرى فى السياق تطل على العلم وتتصل به: ﴿ أَن يُؤْمِنُواْ - يَسْمَعُونَ - كَلَٰمَ ٱللَّهِ - تُحَرِّفُونَهُۥ - عَقَلُوهُ - أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ - لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ - إِلَّآ أَمَانِيَّ - يَظُنُّونَ ﴾.

فثمة طائفة من اليهود سمعت كلام الله ثم حرفته من بعد ما عقلته وعلمته فلم تشتبه عليهم صحته، ثم اشتروا به ثمناً قليلاً فضلوا وأضلوا، وكان هؤلاء هم أحبارهم الذين أثروا فى غيرهم؛ فانبثق منهم فريق منافق تربى على أيديهم، فتسلل إلى صفوف المسلمين يطوى تحت صدره علماً مشوَّهاً وعقيدة باطلة أصَّلها فيه المحرفون الأوائل، فأظهر الإيمان وأبطن الكفر الذى يعتقده علماً صحيحاً لا ريب فيه، ثم انبثقت فرقة أخرى تجادل فرقة المنافقين حين تحدثت ببعض علم التوراة مما يفضح اليهود ويزكى النبى (ﷺ) فأرادوا منهم كتم ذلك العلم حتى لا يكون حجة للمؤمنين، ثم امتد أثر المحرفين إلى أدنى فرقهم وأحطها وهم العامة

الأميون الذين لا يقرءون ولا يكتبون، وإن قرءوا لا يفهمون؛ فأوعزوا إليهم أنهم على علم، وما هى إلا أمانى.

وإذا تقرر هذا فإننى لست مع البقاعى ٨٨٥ هـ (رحمه الله) حين قرر أن فريق الأميين أعلى وأعتى كفراً من المحرفين، فقال: (ولما ذكر سبحانه هذا الفريق الذى هو من أعلاهم كفراً وأعتاهم أمراً عطف عليه قسماً أعتى منه وأفظ؛ لأن العالم يرجى لفته عن رأيه أو تخجيله بالحجاج، بخلاف المقلد العاتى الكثيف الجافى، فقال: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾)[1].

لأنه إذا تقرر ما سبق من أن الفريق الأول هو الذى تحكم فى مقاليد الأمور وساعد على وجود هذه الفرق، فيتقرر أنه الأعتى والأغلظ، كما كان الأمر مع فرعون.

ثم إن الأسلوب فى السياق – وكذلك المعانى – مبنىٌّ على التدنى لا على التدرج، فهو يتدنى بهم فى نفى العلم عنهم؛ لأنهم لو علموا علماً صحيحاً، وتلقوا ذلك من أحبارهم لكان الإسلام مقتضى ذلك؛ لكن الأمر أخذ فى التدنى من علم صحيح سمعوه وعقلوه – ثم حرفوه – ثم نافقوا به – ثم جادلوا فيه وكتموه – ثم انتهى إلى صورة الأمانى عند العامة، ومثل هذا العلم لا يرجى ولا يطلب من صاحبه الإيمان.

وأود أن أنبه إلى أنه إذا كان العلم يلف هذا السياق؛ فإنه يلف السورة كلها، كما أن أول خطاب لليهود فى سورة البقرة اشتمل على دعوتهم للإيمان بالقرآن لأنه مصدق للتوراة، ونهاهم عن التحريف فيما علموه، فقال تعالى ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ

(١) نظم الدرر، للبقاعى : ١/ ١٧٦ دار الكتب العلمية ط ثانية ١٤٢٤ – ٢٠٠٣.

أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٤٠-٤٢) فكان كل حديث عن اليهود فى القرآن بعد ذلك مرده إلى تلك الآيات التى تثبت جحودهم، ونقضهم العهود وكتمهم العلم، وطمعهم فى حطام الدنيا.

إطلالــة السيــاق على بدايات السـورة:

من البديع والمعجز أيضاً أن نلمح صلة وثيقة بين سياق اليهود هنا وأول السورة فى حديثها عن الكافرين، ثم المنافقين؛ فإذا تبين لنا أن السياق هنا يثبت لليهود خصال العناد عند من علم الحق وكفر به وصدَّ عنه، والنفاق، والجدال، وإكبار الذات بغير حق؛ فإننا نرى ذلك فى بداية حديث السورة عن الكافرين وأنهم لن يؤمنوا لعنادهم ولأن الله – تعالى – عطّل فيهم أدوات العلم وآلاته، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة : ٦-٧)، أما عن النفاق والجدال وإكبار الذات طغياناً واستكباراً، فهو واضح فى الحديث الطويل عن المنافقين فى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ

ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (البقرة : ٨-٢٠)، وفيها نفى للشعور والعلم عنهم، وفيها تعطيل لأدوات العلم فيهم ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ ﴾، ﴿ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم ﴾، ثم نادى الله - تعالى – على الناس جميعاً وأمرهم بعبادته وذكرهم ببعض نعمه العظيمة، ثم قال ﴿ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٢٢)، وقد تكرر الأمر بالعلم فى السورة فى اثنتى عشر موضعاً، وهى السورة الأولى فى ذلك؛ فالعلمُ ركيزة بارزة من ركائز السورة الكريمة ومحاورها، وبذلك يعلم أن اليهود جمعوا الخصال الذميمة للكافرين والمنافقين – وإن زادوا عليها – إلا أن باقى قبائحهم يمكن ردها إلى ما نُصَّ عليه من شنائع وفضائح.

دلالات أخرى فى قطع الاستثناء:

إن الغرض الذى دار حوله هذا السياق يصل إلى غايته فى هذه الآية، وذلك الغرض هو تأييس المؤمنين من إيمان اليهود، وغاية هذا الغرض تبرز هنا من أمور عدة، هى:

أولاً: التعبير بالأميين، والأميُّ هو الذى لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسنهما، أو من يحسنهما لكنه غليظ الطبع بعيد عن الفهم، ولذلك فهم لم يطلعوا على التوراة ولم يعلموا ما فيها إلا عن طريق رؤسائهم وأحبارهم.

ونسبة الأميّ مختلف فيها، فقيل: منسوب إلى الأم كأنه باق على أصل الخلقة.

وقيل: إلى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادات أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها[1].

والمراد بهم هنا جهلة اليهود، وأقر الشيخ زادة ٩٥٠ هـ جهة حصول اليأس من إيمانهم بأنه (كيف يؤمن هؤلاء وهم إنما يأخذون دينهم ويتعلمون من قوم هم متعمدون التحريف عناداً فأولئك إنما يعلمونهم ما حرفوه وغيروه، ومقلدوهم لا يقبلون إلا ذلك ولا يلتفتون إلى قول أهل الحق)[2] وأرى أن غاية التأييس هنا مرتبطة بتأثير فريق العلماء والرؤساء فى هؤلاء الأميين تأثيراً بالغاً، فلا تُفهَم الغاية بمنأى عن هذا، وإلا فإيمان العوام قد يكون أيسر وأقرب.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية : ١/ ١٦٩، الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى : ١/ ٤٠٠ ط الريان – بدون، نظم الدرر : ١/ ١٧٦، حاشية زادة : ١/ ٣٣٥، إرشاد العقل السليم : ١/ ١٥٣، حاشية الجمل : ١/ ٦٩ دار الفكر – بدون.

(٢) حاشية زادة : ١/ ٣٣٤.

ثانياً: الاستثناء المنقطع فى قوله تعالى: ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ وقد اكتفى كثير من المفسرين بتأويل «إلا» فيه بمعنى «لكن» وأن الأمانى ليست من جنس علم الكتاب[1]، وحاول الإمام البقاعى ٨٨٥هـ أن يقترب من السر البلاغى لقطع الاستثناء، فقال: (ولمّا كان المراد سلب العلم عنهم رأساً أبرز الاستثناء مع كونه منقطعاً فى صورة المتصل فقال: ﴿ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ ... أى إن كانت الأمانى مما يصح وصفه بالعلم فهى لهم لا غيرها من جميع أنواعه)[2] وهذا جار على الوجه الثانى للتأكيد فى الضرب الأول عند القزوينى ٧٣٩هـ ويرتد أيضاً إلى ما قرره الخوارزمى ٦١٧هـ من أن (الاستثناء المنقطع عائد فى المعنى إلى المتصل)[3].

والأمانى جمع أمنية، وهى فى الأصل ما يقدره الإنسان فى نفسه، من منّى إذا قدَّر، ولذلك تطلق على الكذب، وما يتمناه الإنسان وما يشتهيه، وعلى القراءة؛ لأن القارئ يقدر ترتيب أجزاء الكلام ويقول فى نفسه : إن كلمة كذا بعد كلمة كذا ، وأمانيهم المستثناة هنا هى ما حدثهم به علماؤهم المحرفون مثل قولهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، وأنه لن يدخل

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن : ١/ ٤٠٠، البيضاوى : ١/ ٣٠٣، مفاتيح الغيب: ٣/ ١٤٩، الدر المصون: ١/ ٢٦٨، حاشية ابن التمجيد: ٣/ ٤٤٢، حاشية زادة : ١/ ٣٣٥، إرشاد العقل السليم : ١/ ١٥٤، حاشية الجمل : ١/ ٧٠، روح المعانى: ١/ ٣٠١، ٣٠٢، التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور : ١/ ٥٧٥ ط دار سحنون – تونس.

(٢) نظم الدرر: ١/ ١٧٧.

(٣) شرح المفصل للخوارزمى : ١/ ٤٦١ – ٤٦٢.

الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الله سيعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن أنبياءهم يشفعون لهم(١).

وإذا كانت الأمانى بهذا المعنى الفضفاض الذى لا ينضبط، بحيث يدخل فيه كل ما يشتهيه المرء ويتمناه، ويلبى طلبته وهواه؛ فهى بلاشك بمعزل عن علم الكتاب وعن جملة العلم المنضبط، ومن ثم فالكلمة معبرة عن أثر الرؤساء فى الجهلة السفلة وأنهم يعبثون بعقولهم كيف شاءوا من ناحية، ومعبرة من ناحية أخرى عن عظيم امتهان هؤلاء الرؤساء والعلماء لعلم الكتاب وتلاعبهم به وتسخيرهم إياه لأهوائهم وأطماعهم، فنقضوا الميثاق الذى أخذه الله – تعالى – عليهم فى قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (آل عمران: ١٨٧)

فإن كان فى كلمة «أمانى» ذمٌّ للأميين والجهلة من تصديقهم لهذه الأمانى، وعدم بحثهم عن العلم الصحيح، ففيها ذم أيضاً للعلماء المحرفين الذين قصروا علم هؤلاء على هذه الأكاذيب؛ وبذلك يتداخل السياق وتتلاءم المعانى، ويرتد الذنب الأعظم إلى المحرفين كما سبق أن قررت؛ فالسياق كله كما قلت يدور حول العلم والأصل أنهم أهله، فإن انتفى العلم الصحيح عن الأميين، وكان متمثلاً فى أحبارهم الذين تحملوه؛ فإنهم ينوءون بالإنكار الأشد والسخط والذم.

وهذا هو ما أريد أن أصل إليه وأحققه فى ختام حديثى عن بلاغة الاستثناء المنقطع فى الآية، وهو أنه يسير فى الخط الأسلوبى الذى يرتبط به السياق كله ويصب فى غرض التأييس

(١) ينظر: الجامع: ١/ ٤٠١، البحر: ١/ ٤٤٤ – ٤٤٥، إرشاد العقل السليم: ١/ ١٥٤.

الذى تغذيه روافد أسلوبية كثيرة فى السياق؛ فاستثناء «الأمانى» من جنس علم الكتاب يلقى باللائمة على هؤلاء الأحبار المحرفين الذين قصروا علم الأميين من الكتاب على هذه الأخلاط والأكاذيب؛ ولذلك كان العذاب خاصاً بهم فى قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة : ٧٩)، فلا نرى هذا التفصيل الذى ورد فى السياق فرُدَّ العذاب إلى أخطرهم أثراً وأفظعهم جرماً، وإذا تقرر أن الذم يلحق بالعلماء هنا بهذا الأسلوب، يتقرر أنه لا يحصل لهم هذا الذم هنا بدونه إذا قيل مثلاً : لا يعلمون إلا أمانى؛ لأنه يمكن تسليط العامل على المستثنى؛ إلا أنه جاء على طريقة الاستثناء المنقطع، وذكر فيه المستثنى منه (علم الكتاب) ثم استثنى منه ما ليس من جنسه؛ ليؤكد على أمرين، الأول: اشتراك المحرفين فى صدِّ الأميين عن الإيمان لأنهم أخفوا عنهم العلم الصحيح، والثانى: عِظمُ هذا التحريف وبالغُ أثره فى الأميين، حيث إنهم لم يعلموا من الكتاب إلا الأمانى، وهى ليست بعلم فى الحقيقة، وهنا ترتد المسئولية أيضاً إلى العلماء.

وبذلك يعلم أن السر البلاغى لهذا الأسلوب يتجاوز حد نفى العلم رأساً عن الأميين، ويمتد إلى الفريق الأول فى السياق وهم العلماء المحرفون فهم أساس الصد عن سبيل الله، وهذا هو معنى حبك الكلام الذى يفيده هذا الأسلوب.

ثالثاً: التصريح بما يضاد العلم فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ وهى جملة حالية مؤكدة لنفى العلم عنهم، والتأكيد حاصل من قصر حالهم على الظن، وقيل فى معنى يظنون هنا: يكذبون، يتحدثون، يشكون، وهو التردد بين أمرين لا يترجح أحدهما على الناظر فيهما، وقرر أبو حيان ٧٥٤هـ أنَّ (الأولى حمله على موضوعه الأصلى، وهو الترجيح لأحد الأمرين على الآخر؛ إذ لا يمكن حمله على اليقين، ولا يلزم من الترجيح عندهم أن يكون ترجيحاً فى

نفس الأمر)[١]، ولّما احتمل أن يكون فيهم جازمون بالحكم قرر البيضاوى ٦٩١هـ أن الظن قد يطلق بإزاء العلم، فهو يقابل العلم اليقينى عن دليل قاطع[٢]. فالعلم (هو الحكم الجازم الثابت المطابق للواقع لابتنائه على الدليل القاطع، وما ليس كذلك من الحكم قد يطلق عليه الظم كما يطلق على الحكم غير الجازم)[٣].

وأورد الشيخ زادة ٩٥٠هـ أن المعنى يمكن أن يوجه بأن شأن هؤلاء الأميين الجهلة (أن يروا ويعتقدوا ما سمعوه من رؤسائهم المعاندين بناء على حسن الظن بهم، تحقيقاً لتماديهم فى التقاعد عن طلب الحق وتحصيل اليقين)[٤].

وفى البحر المحيط: (وقال مقاتل: معناه ليسوا على يقين؛ إن كذب الرؤساء أو صدقوا بايعوهم)[٥].

وكل ذلك يفضى إلى ما قررته فى شرح بلاغة الاستثناء المنقطع وأن الأمر مرتبط بالعلماء المحرفين المضلِّين، وهذه الجملة الحالية هنا تؤكد جُرم هؤلاء بعدما تأكد فى الاستثناء المنقطع، ولكن تدرج الأمر هنا حتى بلغ غايته؛ لأن تأكيد نفى العلم عن الأميين فى الأسلوب السابق، وإن تحقق وحصل إلا أن العلم بقى بارزاً فى الأسلوب ولو شكلاً وظاهراً، أما فى هذه الجملة الحالية فقد توارى العلم تماماً، وبقى الظن الذى لا يَثْبُتُ به عِلمٌ.

---

(١) البحر المحيط : ١/ ٤٤٥.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوى : ١/ ٣٠٣، ٣٠٤ ومعه حاشية الشهاب.

(٣) حاشية زادة : ١/ ٣٣٦.

(٤) حاشية زادة : ١/ ٣٣٦.

(٥) البحر المحيط : ١/ ٤٤٥.

ومما يثرى هذه الدلالة – بعد القصر – التعبير بالمضارع؛ (لأنه يدل على حدوث الظن وتجدده لهم شيئًا فشيئاً، فليسوا ثابتين على ظن واحد، بل يتجدد لهم ظنون دالة على اضطراب عقائدهم واختلاف أهوائهم)[1] وهذا التجدد وعدم الثبات حاصل من لعب المحرفين بعقولهم. ومما يبرز التأكيد على تلك المعانى فى جملة الحال أنها سبقت بالواو فكأن استئنافاً جديداً حصل بها، فأريد إثبات خبر آخر[2]، وفى هذا توجيه للأنظار إلى ختام هذا السياق، وتسليط للضوء عليه، ولذلك أيضاً حُذف مفعولى ظن، لزيادة التركيز على الحدث نفسه (يظنون) وأنه مُحَصَّلُ الأمر كله، والذى تسبب فيه العلماء المحرفون؛ فإذا انتقل علمُ هؤلاء من الأمانى إلى الظنون التى لا تنتهى، فكيف يُطمع منهم فى إيمان لا يبنى إلا على قواعد العلم؟!.

(١) البحر المحيط : ١/ ٤٤٥.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجانى: ٢١٣، ت: الشيخ محمود شاكر ط المدنى ثالثة ١٤١٣ – ١٩٩٢.

٢- قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

[النساء : ٢٢]

المعنى والسياق :

كان من العرب من اعتاد أن يتزوج الرجل فيهم امرأة أبيه، وكان ذلك الأمر مباحاً فى قريش مع التراضى، وكان سيرة لازمة فى الأنصار، حتى صارت النساء كالمال يُورَثْن عن الرجال، فأولياءُ الميت أحق بامرأته؛ إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وربما ألقى ابنُ الرجل من غيرها أو أقربُ عصبته ثوبَه على المرأة فيصير أحق بها من نفسها ومن أوليائها، فإن شاء تزوجها بغير صداق، أو يزوجها ويأخذ صداقها، وإن شاء يحبسها ويعضلها حتى تفتدى منه بما ورثته أو تموت فيرثها، فأنزل الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ١٩)، ثم تطرقت الآيات إلى حكم الفراق الذى سببه الزوج، فأُمر بألا يأخذ صداق المرأة؛ لأنه بهتان وإثم مبين ونقض للميثاق الغليظ.

ولمّا كان فى الآيات السابقة ما يحرم نكاحَ امرأة الأب على سبيل الإرث وعدم الرضا، وكان الناس يتزوجون امرأة الأب بغير رضاها، أنزل الله – تعالى – ما يحرم ذلك مطلقاً،

فقال ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم ... ﴾ فصار ذلك حراماً فى الأحوال كلها؛ لأنه من الفواحش ومما يستوجب مقت الله تعالى، فهو بئس الطريق، وبين الله أن ما سلف منهم لا يدخل فى الإثم والعقاب؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله(١).

وقرر الإمام القرطبى ٦٧١هـ أن ذلك هو المعنى الأصح للآية؛ لأن الصحابة – رضوان الله عليهم – تلقتها على ذلك المعنى، فتكون (ما) فى قوله: ﴿ مَا نَكَحَ ﴾ موصولة بمعنى (من) والمراد بها النساء، وليست مصدرية كما اختار الإمام الطبرى ٣١٠هـ وعليه فالمعنى عنده: لا تنكحوا نكاح آبائكم الفاسد المخالف لدين الله(٢).

الاختلاف فى توجيه الاستثناء فى الآية:

اختلف المفسروف فى معنى الآية تبعاً لأمرين: **الأول**: نوع الاستثناء من حيث الاتصال والانقطاع، **والثانى**: المراد بالنكاح المنهى عنه هل هو بمعنى العقد أو الوطء؟ لأن الكلمة تستخدم فى كلا المعنيين، وهذه خلاصة توجيهاتهم(٣):

---

(١) يراجع: جامع البيان للطبرى: ٤/ ٢١٩، المحرر الوجيز : ٢/ ٣٠، الجامع لأحكام القرآن : ٣/ ١٦٦٤ – ١٦٧٣.

(٢) يراجع: جامع البيان، للطبرى: ٤/ ٢١٩، المحرر الوجيز : ٢/ ٣١، الجامع: ٣/ ١٦٧٣، البحر المحيط : ٣/ ٥٧٤ – ٥٧٥.

(٣) يراجع: المحرر الوجيز: ٢/ ٣١، الكشاف : ٢/ ٤٨، البيضاوى: ٣/ ٢٣٥، الجامع لأحكام القرآن : ٣/ ١٦٧٤، البحر المحيط : ٣/ ٥٧٥، الدر المصون للسمين: ٢/ ٣٤٣، حاشية زادة: ٢/ ٢١، إرشاد العقل السليم: ٢/ ١١٥-١١٦، حاشية الجمل: ١/ ٣٦٩، روح المعانى: ٤/ ٢٤٨، التحرير والتنوير: ٣/ ٢٩٢-٢٩٣، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ١/ ٣٥١، شرح التسهيل لابن مالك: ٢/ ١٨٩، إعراب القرآن للنحاس:١/ ٤٤٤.

١. رأى جمهور المفسرين أن الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، من النكاح المنهى عنه فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم ﴾ وهو من المخرج تقديراً؛ لأن المستثنى ماض والمستثنى منه مستقبل، ولا يجامع الاستقبال الماضى، وعليه فالمعنى: ولا تنكحوا منكوحات آبائكم، إلا إذا أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوه، فلا يحل لكم غيره، ويتضح من هذا التوجيه أن النكاح هنا بمعنى العقد، و(ما) موصولة.

٢. فسَّر ابن زيد النكاح هنا بالعقد الصحيح، وحمل قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ على الزنا، والمعنى عليه: ولا تعقدوا على من عقد عليه آباؤكم، إلا ما قد سلف من زناهم، فإنه يجوز لكم أن تتزوجوهن، إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً، وبذلك يكون الاستثناء منقطعاً كالأول.

٣. تأوله بعضهم بقوله: لكن ما قد سلف لا مؤاخذة عليه لا أنه مقرَّر؛ لأن النبى (ﷺ) ما أقر أحداً على نكاح امرأة أبيه وإن كان واقعاً فيما مضى من زمن الجاهلية، وبذلك يكون الاستثناء منقطعاً.

٤. قيل عن ابن زيد: إن معنى الآية النهى عن أن يطأ الرجل امرأة وطئها أبوه إلا ما قد سلف من الأب فى الجاهلية من الزنا فإنه يجوز للابن تزوجها، وبذلك يكون الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناءً متصلاً؛ لأنه حمل النكاح على معنى الوطء وهو معنى متحصل فى المستثنى والمستثنى منه.

٥. قيل: قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناءٌ متصلٌ مما يستلزمه النهى ويستوجبه مباشرة المنهى عنه، كأنه قيل: لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء فإنه موجب للعقاب إلا ما قد مضى فإنه معفو عنه.

هذا إجمال لما ذكره السادة المفسرون فى هذا الاستثناء، ومن رجع إلى كتبهم وشروحها وجد خبطاً شديداً وسوء فهم لأقوال بعضهم مما يزيد من مشقة تعيين نوع الاستثناء فى بعض تأويلاتهم، نتيجة التناقض، مثال ذلك ما علق به الشهاب الخفاجى ١٠٦٩هـ (رحمه الله) على قول البيضاوى ٦٩١هـ ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء من المعنى اللازم للنهى وكأنه قيل: تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف)[١] قال الشهاب: (قوله: استثناء من المعنى اللازم الخ يعنى أن النهى للمستقبل وما قد سلف ماض فكيف يستثنى منه ...)[٢] وليس هذا هو لازم النهى الذى أراده البيضاوى؛ بل هو وجوب العقاب والإثم كما ذكره أبو السعود ٩٨١هـ، وتفسير اللازم بوجوب الإثم والعقاب عند البيضاوى يجعل الاستثناء متصلاً، وتفسير الشهاب للازم بالمستقبل والمضى يجعل الاستثناء منقطعاً وهو متأثر فى هذا بالمعنى الذى اشتهر للآية فى كتب النحو والتفسير، وبذلك حصل التناقض.

تعليق على هذه التوجيهات:

مضت خمسة توجيهات ذكرها العلماء لهذا الاستثناء، منها ثلاثة توجيهات تجعل الاستثناء منقطعاً، ومنها توجيهان يجعلانه متصلاً، ولست ممن يكثرون القول فى ترجيح إعراب على إعراب فى القرآن الكريم، خاصة إذا كان لتلك الأعاريب وجوهٌ صحيحة فى

(١) تفسير البيضاوى: ٣/ ٢٣٥.

(٢) حاشية الشهاب: ٣/ ٢٣٥.

العربية، وتتضمن مزيداً من الدلالات والمعانى التى لا تصطدم مع الدين والشرع ولا تخالف منهما معلوماً بالضرورة، وهذا لا يعفينا من النظر فى بعض الأعاريب التى تغض من قيمة الإعجاز البيانى للقرآن الكريم، سواء من ناحية ضعف الإعراب أو اتجاهه نحو تقديرات تُنحِّى التعبيرَ القرآنى المعجز، فهنا يكون التصدى والنقد، وهذا متصل بقول جار الله الزمخشرى ٥٣٨هـ (رحمه الله): (القرآن لا يُعمَل فيه إلا على ما هو فاشٍ دائرٌ على ألسنه فصحاء العرب، دون الشاذ النادر الذى لا يُعثر عليه إلا فى موضع أو موضعين)[١].

والتوجيهات السابقة للاستثناء أشهرها وأقواها عند المفسرين هو الوجه الأول وفيه القول بقطع الاستثناء، حيث استثنى الماضى من المستقبل، وهو المعنى المتجه والرائج عند النحاة والمفسرين، وتلقى الصحابة هذاالتأويل للآية بالقبول، وليس فيه مغمز نحوى ولا بلاغى.

ونظراً لشيوع هذا التأويل اختلط الأمر على الشهاب حين فسر كلام البيضاوى السابق.

وضعَّف الإمام أبو السعود ٩٨١هـ الوجهين: الثالث والخامس، وقال: (ويأباهما قولُه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ فإنه تعليل للنهى وبيان لكون المنهى عنه فى غاية القبح مبغوضاً أشدَّ البغض، وأنه لم يَزَلْ فى حكم الله – تعالى – وعلمه موصوفاً بذلك ما رَخَّصَ فيه لأمة من الأمم؛ فلا يلائم أن يُوَسَّطَ بينهما ما يُهوِّن أمرَه من ترك المؤاخذة على ما سلف منه)[٢].

(١) البرهان فى علوم القرآن : ١/ ٣٠٤.

(٢) إرشاد العقل السليم : ٢/ ١١٦.

أما التوجيه الثانى الذى يفسر النكاح بالعقد، وقوله ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ بالزنا، فإنه قول فيه اضطراب، ومن أكبر ما فيه عود الضمير فى ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ على الزنا الذى ليس له ذكر فى الكلام ولا يدل عليه دليل، ثم إنه لا يقارن الزنا بالنكاح ولا يقابله فلا يستثنى منه فلا يطلق على الزنا نكاحاً ثم يستثنى من النكاح الشرعى ولو على سبيل الانقطاع، ولذلك قال الطاهر ابن عاشور ١٣٩٣هـ: (وأما الوطء الحرام من زنى فكونه من معانى النكاح فى لغة العرب دعوى واهية)[١]. أى إن اللغة نفسها عفَّت عن هذا الإطلاق، فكيف نقبله على كتاب الله تعالى.

أما التوجيه الرابع والذى حمل فيه ابن زيد النكاح على معنى الوطء ثم استثنى منه وطء الزنا، فكان الاستثناء متصلاً؛ فإن فيه إطلاق النكاح على الوطء حقيقة وليس على هذا إجماع، ولذلك علق القرافى ٦٨٤هـ على ذلك بقوله: (غير أن ها هنا نكتة، وهى أن الشرع له عرف فى النكاح؛ فينبغى أن يحمل النكاح فى الآية على النكاح الشرعى، وعلى هذا النكاح المستثنى بعد إلا ليس من جنس الأول؛ لأنه زنى، فيكون منقطعاً، أما إن حملنا النكاح على اللغوى فيكون متصلاً)[٢] ومن الواضح أن العلماء ينأون عن تفسير النكاح بالوطء.

وأرى أنه مما يضعف التوجيهات الأربعة الأخيرة اشتمالها على تأويلات وتقديرات تنأى بنا عن ظاهر التعبير القرآنى الحامل للبلاغة والإعجاز، فنرى من يقدر أن الاستثناء مما يستلزمه النهى من الإثم أو العقاب، ونرى من يقحم الزنا فى الكلام دون دليل عليه، مع أن ظاهر الآية والعمل بها زمن النبى (ﷺ) لا يجعل للزنا مكاناً فى الآية.

(١) التحرير والتنوير : ٣/ ٢٩١، وينظر: الاستغناء : ٣٧٢.

(٢) الاستغناء : ٣٧٢.

ولذلك نرى الطاهر ابن عاشور ١٣٩٣هـ (رحمه الله) لا يستقر على توجيه الاستثناء، ولا يصرح بنوع الاستثناء فى الآية، فينطلق أولاً من فكرة عدم اجتماع الزمانين : الماضى والمستقبل فى طرفى الاستثناء، يقول: (فتعين أن الاستثناء يرجع إلى ما يقتضيه النهى من الإثم، أى لا إثم عليكم فيما قد سلف)[١] مع أن الحاجة ليست بداعية إلى تقدير الإثم مع ما قدمه من فكرة عدم اجتماع الزمانين، فتخبط فى التأويل. ثم انطلق ثانياً من لازم آخر للنهى وهو العقوبة – على الرغم من استلزام الإثم للعقوبة – فقال: (وجوزوا أن يكون الاستثناء من لازم النهى وهو العقوبة، أى لا عقوبة على ما قد سلف، وعندى أن مثل هذا ظاهر للناس فلا يحتاج للاستثناء، ومتى يظن أحد المؤاخذة على أعمال كانت فى الجاهلية قبل مجئ الدين ونزول النهى)[٢]، ثم ذكر ما يوافق التوجيه الأول هنا، وأنه من تأكيد الشيء بما يشبه ضده، ثم قرر أن الظاهر أن قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (قصد منه بيان صحة ما سلف من ذلك فى عهد الجاهلية، وتعذر تداركه الآن لموت الزوجين، من حيث إنه يترتب عليه ثبوت أنساب، وحقوق مهور ومواريث، وأيضاً بيان تصحيح أنساب الذين ولدوا من ذلك النكاح)[٣]، وهذا رأى جدير بالتقدير، وهو مستفاد من قول ابن القيم ٧٥١هـ: (فأفاد الاستثناء فائدة جليلة عظيمة، وهى أن ولد من نكح ما نكح أبوه قبل التحريم ثابت النسب، وليس ولد زنا)[٤].

(١) التحرير والتنوير : ٣/ ٢٩٢.

(٢) التحرير والتنوير : ٣/ ٢٩٢.

(٣) التحرير والتنوير : ٣/ ٢٩٣.

(٤) بدائع الفوائد :/ ٢/ ٥٦٨.

تـأويـلات أخـرى:

نقـل المفـسرون آراء أخـرى فى الاسـتثناء[1]، وهـى آراء تتـأول معنـى «إلا»، فمـنهم مـن جعلها هنا بمعنى بعد، أى بعد ما سلف، ومنهم من جعلها بمعنى : ولا ما سلف، كقوله تعالى:﴿ وَمَّا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا ﴾(النساء: ٩٢) يعنى : ولا خطأ. ومنهم من قال: إن فى الآية تقديماً وتأخيراً، تقديره: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً إلا ما قد سلف، وردَّ هذا الإمام أبو حيان ٧٥٤هـ فقال: (وهذا جَهْلٌ بعلم النحو وعلم المعانى، أما من حيث علم النحو؛ فما كان فى حيز إن لا يتقدم عليها، وكذلك المستثنى لا يتقدم على الجملة التى هو من متعلقاتها بالاتصال أو الانقطاع، وإن كان فى هذا خلاف ولا يلتفت إليه، وأما من حيث المعنى؛ فإنه أخبر أنه فاحشة ومقت فى الزمان الماضى فلا يصح أن يستثنى منه الماضى، إذ يصير المعنى: هو فاحشة فى الزمان الماضى إلا ما وقع منه فى الزمان الماضى فليس بفاحشة، وهذا معنى لا يمكن أن يقع فى القرآن، ولا فى كلام عربى لتهافته)[2].

وقيل فى الآية إضمار لقوله: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء، فإنكم إن فعلتم تعاقبون وتؤاخذون إلا ما قد سلف.

وهذه تأويلات بعيدة واهية لأنها أغفلت التعبير القرآنى وبدلت لفظاً بآخر، أما التأويل الأخير؛ فإنه شرح لمعنى الآية ولا يرتقى إلى تأويل لغوى دقيق.

---

(١) يراجع: الجامع لأحكام القرآن : ٣/ ١٦٧٤، البحر المحيط : ٣/ ٥٧٦.

(٢) البحر المحيط : ٣/ ٥٧٦.

من خصائص النظم فى الآية الكريمة:

- قال أبو السعود ٩٨١هـ: (وإنما خص هذا النكاح بالنهى ولم ينظم فى سلك المحرمات الآتية مبالغة فى الزجر عنه حيث كانوا مصرين على تعاطيه)[١].

«ما» فى قوله ﴿ مَا نَكَحَ ﴾ يراد بها الصفة، فليس المراد خصوصية ذات المرأة كى يعبر بـ «مَنْ»، بل المراد وصف كونها منكوحة الأب، ثم إن «مَنْ» و«ما» قد يتعاقبان[٢]، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ (الشمس : ٥)، ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ﴾ (النور: ٤٥)، ولا أرتضى قول البقاعى ٨٨٥هـ بأن التعبير بها هنا يشير إلى ما فى النساء غالباً من السفه المدنى لما لا يعقل[٣] على الرغم من أنه قال ما يخالف ذلك فى قوله تعالى ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ (النساء : ٣)، فقرر أن التعبير بها يشير إلى الرفق بهن والتجاوز عنهن[٤].

وبإطلالة الآية التى معنا على الآية الثالثة من السورة والتى ورد فيها أمر بنكاح ما طاب من النساء، يتضح منهج القرآن والدين فى التأكيد على جانب مهم من جوانب التشريع فى الحث على النكاح أو النهى عنه فى مواضع محددة، فعُبِّر عن المرأة فى كلا المقامين بـ«ما» توجيهاً إلى الوصف والنوع دون الذات، مراعاةً لأمور عظيمة تتجاوز حدود الشهوة ومآربها إلى آفاق أخرى تتصل بالفضائل والمروءات وصلات المجتمع، وقد أوسعتُ بيانَ

(١) إرشاد العقل السليم : ٢/ ١١٥.

(٢) ينظر: البيضاوى : ٣/ ٢٣٥، البحر المحيط : ٣/ ٥٧٤ – ٥٧٥، حاشية زادة : ٢/ ٢١.

(٣) ينظر: نظم الدرر : ٢/ ٢٣١.

(٤) ينظر: نظم الدرر : ٢/ ٢٠٨.

ذلك شرحاً فى أطروحتى للدكتوراه[1] فيما يخص الآية الثالثة من سورة النساء والتى وردت فى مقام اجتماعى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ ...﴾، وكذلك الأمر هنا مع النهى عن نكاح منكوحات الآباء، فكان التعبير بما لافتاً إلى أن ليس المراد خصوصية ذات المرأة، بل هو خصوص نكاح منهيٍّ عنه؛ إذا خولف فيه نهى الشرع انفصمت وصلات المجتمع، وتبددت أواصر المودة.

﴿ ءَابَآؤُكُم ﴾ فى الإضافة إشارة إلى شدة القرب والوصلة؛ مما ينفر من هذا النكاح ويهيئ للتذييل الحاكمِ بفحشه ومقته وسوء سبيل مَنْ يسلكه.

﴿ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ بيان يفيد التعميم، فمنكوحات الآباء حرام كلُّهن، سواء كنَّ إماء أو لا، بنكاح أو ملك يمين[2]، وذلك تأكيد على قبح وفحش هذا النكاح.

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ تذييل يشتمل على تعليل للنهى عن هذا النكاح، والضمير فى «إنه» يعود على النكاح المنهى عنه، و«كان» بمعنى لم يزل[3]، أى الآن وما بعده كوناً راسخاً، فهو فاحشة ما رخص الله فيه لأمة من الأمم، وقد اجتمع فى التذييل ثلاثُ صفات تؤكد على قبح وشناعة هذا النكاح، وهى صفات تعود إلى مراتب

(١) البدل المفرد فى القرآن الكريم : ٤٥٠ – ٤٥٢.

(٢) ينظر: البيضاوى : ٣/ ٢٣٥، نظم الدرر : ٢/ ٢٣١، إرشاد العقل السليم : ٢/ ١١٦.

(٣) ينظر: البيضاوى : ٣/ ٢٣٦، البحر المحيط : ٣/ ٥٧٦، نظم الدرر : ٢/ ٢٣١، إرشاد العقل السليم : ٢/ ١١٦.

القبح الثلاث[1]: الشرعى، والعقلى، والعادى، فجعله (فاحشة) مرتبة قبحه العقلى، فالفاحشة لا يُقدم عليها تامُّ العقل، وذلك أن زوجة الأب كالأم، فنكاحُها يشبه نكاحَ الأم الذى هو من أفحش الفواحش، وجَعْلُه (مقتاً) مرتبةُ قبحه الشرعى، أى ممقوت عند ذوى المروءات والمقتُ هو البغض المقرون بالاستحقار فهو أخص منه، فهو ممقوت عند الله وعند الناس، وكانت العرب تسمى الولد الذى يجئ من زوج الوالد المقتىّ . أما القبحُ العادى فوارد فى قوله ﴿ وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ أى سبيل من يراه ويفعله، فهو بئس الطريق والمنهج.

بلاغة الاستثناء المنقطع فى الآية:

نخلص مما سبق أن الوجه الأصح والأقوى إعرابياً فى الآية التى معنا، هو جعل الاستثناء منقطعاً، على معنى: لا تنكحوا منكوحات آبائكم إلا ما كان فى الماضى من زمن الجاهلية، فإن ذلك حلال لكم إن أمكنكم، وبذلك يكون من استثناء الزمن الماضى من الزمن المستقبل وهما لا يجتمعان.

والحديث هنا عن بلاغة هذا الاستثناء، وأبدأ بما لفت إليه السادة المفسرون.

يقول العلامة الزمخشرى ٥٣٨هـ: (فإن قلت: كيف استثنى ما قد سلف، مما نكح آباؤكم؟ قلت: كما استثنى : «غير أن سيوفهم» من قوله: «ولا عيب فيهم» يعنى: إن أمكنكم أن تنكحوا ما سلف فانكحوه، فلا يحل لكم غيره، وذلك غير ممكن، والغرض المبالغة فى

(١) ينظر: حاشية زادة : ٢/ ٢١، إرشاد العقل السليم : ٢/ ١١٦، ووجه ابن الزبير زيادة المقت هنا دون ما فى الإسراء بقوله: (إن المقت هو النقص والاستحقار، ومتزوج امرأة أبيه فاعل رذيلة يمقت فاعلها ويشنأ، وتستخسه الطباع السليمة، فوسمت فعلته بالمقت، وساوت الزنا فيما وراء ذلك) ملاك التأويل: ١/ ٣٤٠ – ٣٤١، ت: سعيد الفلاح دار الغرب ط أولى ١٤٠٣ – ١٩٨٣. ولا أراه قويا.

تحريمه وسد الطريق إلى إباحته، كما يعلق بالمحال فى التأبيد، نحو قولهم: حتى يبيض القار، وحتى يلج الجمل فى سم الخياط)[1].

ومن البين أن مسلك الزمخشرى فى تقرير بلاغة هذا الأسلوب هو نفس ما سلكه بعده الخطيب القزوينى ٧٣٩هـ فى إرجاع التأكيد فى الضرب الأول من تأكيد المدح بما يشبه الذم إلى أمرين، أحدهما: أنه كدعوى الشيء ببينة، والثانى: أن الأصل فى الاستثناء الاتصال ...، والأمران محققان فى كلام الزمخشرى؛ وإن لم يكونا على الطريقة المنطقية الخالصة كما هى عند الخطيب وأصحاب الشروح، وبذلك يكون الزمخشرى (رحمه الله) أول من سجل تلك الفائدة لهذا الأسلوب، واستنبطها منه القزوينى؛ فرتبها وقعدها فكُتب له السبق عند البلاغيين.

ومما يدل على تأثر القزوينى بالزمخشرى فى هذه الفكرة أنه أورد فى التلخيص نفس أمثلة الزمخشرى فى هذه الآية، وهى: بيت النابغة، وقولهم : حتى يبيض القار، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ (الأعراف: ٤٠)

وعلى كل فالزمخشرى يقرر أن غرض الاستثناء المنقطع هنا هو المبالغة فى تحريم نكاح منكوحات الآباء وسد الطريق إلى إباحة ذلك. والمبالغةُ مما يفيده هذا الأسلوب كما سبق تقريره فى درس البلاغيين.

ونقل أبو حيان ٧٥٤هـ كلام الزمخشرى فى بلاغة هذا الاستثناء، وكذلك أبو السعود ٩٨١هـ[2]، واكتفى القرطبى ٦٧١ هـ بقوله: (وهذا استثناء منقطع، أى لكن ما قد سلف

(١) الكشاف : ٢/ ٤٨، وهو يقصد قول النابغة : ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب.

(٢) ينظر: البحر المحيط : ٣/ ٥٧٦، إرشاد العقل السليم : ٢/ ١١٥ – ١١٦.

فاجتنبوه ودعوه)[1] وتقديره «لكن» مكان «إلا» متجه نحوياً، أما قوله: فاجتنبوه ودعوه، فلم يقل به غيره، ولا يتحمله السياق، ولا تظهر به بلاغة لهذا الاستثناء.

وقال ابن المنير ٦٨٣هـ: (وعندى فى هذا الاستثناء سرٌ آخر، وهو أن المنهىَّ عنه – لفظاعته وبشاعته عند أكثر الخلق حتى كان ممقوتاً قبل عدم وقوعه – جدير أن يمتثل النهى فيه فيجتنب، فكأنه قد امتثل النهى عنه حتى صار مخبراً عن عدم وقوعه، وكأنه قيل: ما يقع نكاح لأبناء المنكوحات للآباء ولا يؤاخذ منه شيء إلا ما قد سلف، وأما فى المستقبل بعد النهى فلا يقع منه شيء البتة)[2] وهو على وجاهته بعيد لأن إيراد الإنشاء فيه بمعنى الخبر ليس جارياً على طريقة القرآن الواضحة والظاهرة فى ذلك، مثل قوله تعالى ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ (التوبة : ٨٠)، فمعناه لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، والإنشاء فى الآية أمر بمعنى الخبر، ولم أقف على نهى بمعنى الخبر فى القرآن الكريم فى دراسات العلماء للأساليب الإنشائية[3]، فلم يذكروا شواهد لذلك.

(١) الجامع: ٣/ ١٦٧٤.

(٢) الانتصاف بهامش الكشاف : ٢/ ٤٨.

(٣) ينظر مثلاً: البرهان للزركشى : ٢/ ٣٢٠، ٣/ ٣٤٧ – ٣٥٢، الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم، د/ صبَّاح دراز : ١٠٢ – ١٠٦ ط الأمانة أولى ١٤٠٦ – ١٩٨٦، الأساليب الإنشائية فى البلاغة العربية، د/ عبد العزيز أبو سريع : ٣٢٧ – ٣٣٥ ط السعادة أولى ١٤١٠ – ١٩٨٩.

حديث الإمام البيضاوى فى هذا الاستثناء:

ما زال الحديث متصلاً بالأسرار البلاغية لهذا الاستثناء عند العلماء، لكنى أفردت عنواناً للإمام البيضاوى ٦٩١هـ لأننى سأقف معه ومع شراحه وقفة خاصة.

يقول البيضاوى (رحمه الله): (﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ استثناء من المعنى اللازم للنهى، وكأنه قيل: تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف، أو من اللفظ للمبالغة فى التحريم والتعميم، كقوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ∴ بهن فلول من قراع الكتائب

والمعنى: ولا تنكحوا حلائل آبائكم، إلا ما قد سلف إن أمكنكم أن تنكحوهن، وقيل: الاستثناء منقطع ومعناه: لكن ما قد سلف فإنه لا مؤاخذة عليه لا أنه مقرر)[1].

تعليقات:

أولاً: ظاهر كلام البيضاوى ٦٩١هـ أن الاستثناء متصل فى الآية على التوجيهين الأولين، ومنقطع على التوجيه الثالث الذى ذكره فى نهاية كلامه، وأذكِّر هنا بأن الإمام أبا السعود ٩٨١هـ (رحمه الله) ردَّ على مثل هذا التأويل فى الاستثناء بأن قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ يأباه؛ لأنه بيان لكون هذا النكاح المنهى عنه فى غاية القبح، فلا يلائم أن يشتمل الاستثناء على معنى يهوّن هذا الأمر من ترك المؤاخذة على ما سلف منه.

ثانياً: جَعْلُه الاستثناءَ من اللفظ، وجَعْلُ غرضه المبالغة، واستشهادُه ببيت النابغة جارٍ على اعتبار الاستثناء متصلاً، وهو ما صرح به الشيخ زادة ٩٥٠هـ[2]، وقرر العلامة الشهاب

---

(١) تفسير البيضاوى : ٣/ ٢٣٥ – ٢٣٦.

(٢) ينظر: حاشية زادة : ٢/ ٢١.

١٠٦٩هـ أنه من باب تأكيد الشيء بما يشبه نقيضه – ولاحِظْ هذه التسمية التى اقترحها العلامة السعد ٧٩١هـ واعترض عليه فيها العصام ٩٤٣هـ كما سبق تفصيله –وبَيَّن أنه من تعليق الشيء بالمحال، كقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾(الأعراف: ٤٠)، والمعلَّقُ على المحال محال[١]، قلت: وهذا الشرح والتنظير يقتضى أن الاستثناء منقطع لا متصل، وهو بَيِّنٌ.

ثالثاً: ثم انظر إلى هذا التكلف فى التقدير لَمَّا حملوا الاستثناء على الاتصال حين رأوا فى طرفى الاستثناء نكاحاً مع أن تنظيرهم وشرحهم له يؤدى به إلى الانقطاع، يقول الشيخ زادة ٩٥٠هـ فى رد ما يمكن أن يعترض به على اتصال الاستثناء : (ولما ورد أن يقال: استثناء ما قد سلف من النساء مما نكح الآباء يدل على جواز نكاح من سلف ومضى، ونكاحُ من مضى محال، فما معنى تجويزه؟ أجاب عنه بأنه ليس المقصود من الاستثناء تجويز نكاح من سبق من النساء بل المقصود المبالغة فى النهى عن نكاح منكوحة الأب، فإنه إذا انحصر من جاز نكاحه مما نكح الآباء فيمن سلف منهن ولم يجز نكاح غيرهن، ومن المعلوم أن نكاحهن غير ممكن فقد ثبت حرمة نكاحهن مطلقاً على أبلغ وجه)[٢].

أرأيت هذا التطويل والتكلف الذى أورده تفسيراً للاستثناء فى الآية، مع العلم بأن المعنى فى غاية القرب لكل مخاطب بالقرآن.

رابعاً: توجيه البيضاوى الأول للاستثناء بأنه استثناء من المعنى اللازم للنهى، وتقديره: تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف؛ توجيه ضعيف لأنه تأوَّل النهى هنا وجعله بمعنى الخبر، وهو ما سبق رده عند ابن المنير، وإن كان الأخير تأوَّل خبراً آخر،

(١) ينظر: حاشية الشهاب : ٣/ ٢٣٥.

(٢) حاشية زادة : ٢/ ٢١.

فكلاهما لا يراعى أسلوب القرآن ولا لفظه الشريف، ولا منهجه السامى فى فرض الشرائع والأحكام، فأين ذلك التأويل المتهجم العنيف (تستحقون العقاب ...) من لغة القرآن الهادئة اللطيفة التى تمس الأخلاق والعواطف والمروءات، ثم يأتى الاستثناء حاملاً لنفحات العفو والمغفرة والرحمة، باسطاً لهم أيادى الحنو والقبول، وناشراً فيهم أملَ الميلاد الجديد لكل من سمع وأطاع، ثم إن الإمام الطاهر ١٣٩٣هـ قد ضعف هذا الوجه، فقال: (وجوزوا أن يكون الاستثناء من لازم النهى وهو العقوبة، أى لا عقوبة على ما قد سلف، وعندى أن مثل هذا ظاهر للناس فلا يحتاج للاستثناء، ومتى يظن أحد المؤاخذة عن أعمال كانت فى الجاهلية قبل مجئ الدين ونزول النهى)[1].

وكان من العواقب الوخيمة على بلاغة أساليب القرآن - جراء جعل الاستثناء فى الآية من المعنى اللازم للنهى - أَنْ رأينا مَنْ يقول إن التعليل فى قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ وإن كان تعليلاً للنهى وبياناً لكون المنهى عنه فى غاية القبح؛ إلا أنه مقدم على الاستثناء من حيث المعنى، وهذا تحقيق العلامة الجمل ١٢٠٤هـ (رحمه الله)، ومن ثم قال الجلال - على حد قول الجمل - : (فإنه معفو عنه)[2]، أى ما سلف، لأنه ليس فاحشة ولا مقتاً لعدم المؤاخذة به، لعدم التكليف به.

ولاشك أن العفو مفهوم دون تقدير، ولكنهم لَمَّا أرادوا إظهاره، رأوا أن قوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ لا يناسب هذا العفو، خوفاً أن يُفْهَمَ عَوْدُ الضمير على ماسلف، فحكموا

(١) التحرير والتنوير : ٣/ ٢٩٢.

(٢) حاشية الجمل : ١/ ٣٦٩ وينظر منه: ٣٧٠.

بـأن جملـة التـذييل متـأخرة لفظاً ومتقدمـة معنـى بجـوار مـا يناسـبها مـن النكـاح المنهـى عنـه الممقوت؛ فأوقعوا بذلك تقديماً لكلام على كلام كـى ينـتظم مـع سـلك تـأويلاتهم التـى تـستر المعنى القرآنى وتحجب أسراره البيانية، وما هى بتفسير له؛ لأنه ينبغى مراعـاة النـسق القرآنـى وترتيبه للجمل والتراكيب، وبناء معنى عقب معنـى، لا أن نعيـد تنظـيم معانيـه ومبانيـه وفـق أهوائنا وتأويلاتنا؛ وإلا فمن أين يتحقق الإعجاز إذا جاء وفقـاً لعاداتنـا فى الكـلام وأسـاليبنا فى التفكير والتعبير.

توجيه أبى حيان للاستثناء وفكرة الإبهام:

نقل الإمام أبو حيان٧٥٤هـ توجيه الزمخشرى ٥٣٨هـ السابق لبلاغـة الاسـتثناء المنقطـع هنا، ثم ذكر توجيهـا آخـر قـال فيـه: (والاسـتثناء فى قولـه ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ منقطـع؛ إذ لا يجامع الاستقبال الماضى، والمعنى أنه لما حرم عليهم أن ينكحـوا مـا نكـح آبـاؤهم، دل عـلى أن متعاطى ذلك بعد التحريم آثم، وتطرق الوهم إلى ما صدر منهم قبل النهى ما حكمه، فقيـل: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أى لكن ما قد سلف فلم يكن يتعلق به النهى فلا إثم فيه)[1].

وهـذا التوجيـه عـلى الـرغم مـن قوتـه واستحـضاره لأسـلوب القـرآن الكـريم فى فـرض الأحكام التى تغير أوضاعاً أو عادات تمكنت فى الناس، مثل نزول قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡ ﴾ (البقرة : ١٤٣)، عقب فرض تحويل القبلـة وسـؤال النـاس عمـن مـات ولم يُصَلِّ إلى البيت الحرام؛ إلا أنَّ ركونه إلى فكرة تطرق الإيهام إلى المخاطب يضعفها ما تقـرر سابقاً فى مواهب الفتاح لابن يعقوب، ثم إنْ تطرق الوهم أول مرة تتلى فيها الآية عـلى أسـماع الصحابة (ﷺ)، هل يتطرق الوهم بعد ذلك إلى الناس بعد مئات من السنين تـتردد فيهـا الآيـة

(١) البحر المحيط : ٣/ ٥٧٥.

كل حين؟ لاشك إذن أنه لابد من القول بتوجيه آخر للاستثناء يتناسب مع تغير المخاطب؛ ناهيك عن ضعف فكرة الإيهام من الأساس كما حققه ابن يعقوب.

توجيه البقاعى وجمعه بين لزم الحكم والإيهام:

جمع الإمام البقاعى ٨٨٥ هـ فى توجيهه للاستثناء المنقطع فى الآية بين قول البيضاوى ٦٩١هـ بأن الاستثناء من لازم الحكم وهو العقوبة، وبين تطرق الإيهام الذى قال به أبو حيان ٧٥٤هـ فقال: (ولما نهى عن ذلك فنزعت النفوس عما كان قد ألف بهاؤه، فلاح أنه فى غاية القباحة وأن الميل إليه إنما هو شهوة بهيمية لا شيء فيها من عقل ولا مروة، وكانت عادتهم فى مثل ذلك مع التأسف على ارتكابه السؤال عما مضى منه – كما وقع فى استقبال بيت المقدس وشرب الخمر – أتبعه الاستثناء من لازم الحكم، وهو: فإنه موجب لمقت من ارتكبه وعقابه، فقال: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أى لكن من فعل ذلك فى أيام الجاهلية، كما قال الشافعى (رحمه الله) فى الأم)[1] وقد سبق تفنيدُ مُعتَمدِ البقاعىِّ فى ذلك.

سرٌّ آخر فى بلاغة الاستثناء المنقطع:

أرى فى استثناء الماضى من المستقبل هنا – على الرغم من عدم اجتماعهما – إشارةً إلى ما كان عليه المرء من رذائلَ وفواحش فى سابق عهده، فطهُر فى الإسلام، وتزكَّى بشرعه، كما أنه يدل على رحمة الله وجميل عفوه، وأنَّ مَنْ دخل فى دينه الحنيف طُوَى صفحةُ ماضيه التى اسودت بما يخالف المروءةَ وسائرَ الفضائل، وتُفْتَحُ له صفحةُ المستقبل بيضاءَ مزهرةً، فهكذا جمع الاستثناء المنقطع بين تلك المعانى على جانبى «إلا»، وهو ما لا يكون إلا به، فهو جَمْعٌ وانقطاعٌ فى آنٍ، جَمْعٌ بإلا بين طرفى المستقبل والماضى كى يستحضرَ المرءُ صورةً قبيحةً من الماضى، وقد عُفى عنها، فينطلق من ذلك إلى آفاق المستقبل الرحيبِ المشرقِ.

(١) نظم الدرر : ٢/ ٢٣١.

٣- قال الله تعالى :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾

[النساء : ١٥٧]

المعنى والسياق :

يبدأ السياق من قوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ... ﴾(النساء : ٥٣)، حين سأل أحبار اليهود النبى (ﷺ) أن يصعد إلى السماء وهم يرونه، فيأتيهم بكتاب من السماء جملةً، كما جاء موسى بالتوراة[١] وما كان ذلك منهم إلا على سبيل التعنت والصد عن دين الله، فنزلت الآيات تسلية للنبى (ﷺ) حتى لا يستكبر ذلك، فلا يبالى بهم؛ لأنهم على شاكلة أسلافهم فى التعنت وشدة الكفر، ولذلك عدَّد الله فى تلك الآيات - التى تمتد إلى الآية (١٦٢) – جرائم اليهود وقبائح أعمالهم وسوءاتهم، حتى تداخل فى السياق المعاصرون منهم للنبى (ﷺ) ومَنْ كانوا قبل ذلك فى زمن موسى (عليه السلام) إعلاماً بأن اليهود جميعاً – فى كل زمان ومكان – مطبوعون على صفات واحدة من التعنت، وشدة الكفر، ونقض الميثاق، وقتل الأنبياء، والتكبُّر، والجحود، وقسوة القلب، وكتمان العلم، والصد عن سبيل الله، وأخذ الربا، وأكل الأموال بالباطل.

(١) ينظر: جامع البيان، للطبرى: ٦/ ٩ – ١٣، المحرر: ٢/ ١٣٠-١٣١، الكشاف، ٢/ ١٧١ – ١٧٢، الجامع للقرطبى: ٣/ ٢٠٠٢، البحر المحيط : ٤/ ١٢٠.

وكان من تلك الجرائم ادعاؤهم قتل وصلت عيسى (عليه السلام) وابتهاجهم بذلك، وهم فى الحقيقة لم يقتلوه ولم يصلبوه، بل وقع ذلك بمن أُلقى عليه شبه عيسى (عليه السلام) ولذلك اختلفوا وتشككوا فى أمره[1]، فقالوا بالظن البعيد عن العلم، والحَقُّ واليقينُ أنه لم يُقتل ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء : ١٥٨).

---

(١) اختلف الرواة فى كيفية القتل والصلب، ولم يثبت عن رسول الله(ﷺ) فى ذلك شيء غير ما دل عليه القرآن، ومنتهى ما آل إليه أمر عيسى (عليه السلام)، أنه طلبته اليهود فاختفى هو والحواريون فى بيت، فدلوا عليه، وحضروا ليلاً وهم ثلاثة عشر، أو ثمانية عشر، ففرقهم تلك الليلة ووجههم إلى الآفاق، وبقى هو ورجل معه، فرفع عيسى، وألقى شبهه على الرجل فصلب، وقيل: هو اليهودى الذى دل عليه، وقيل: قال لأصحابه: أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل ويخلص هؤلاء وهو رفيقى فى الجنة؟ فقال سرجس : أنا، فألقى عليه شبه عيسى

وقيل: ألقى شبهه على الجميع، فلما أخرجوا نقص واحد من العدة، فأخذوا واحداً ممن عليه الشبه فصلب، وروى أن الملك والمتناولين لم يخف عليهم أمر عيسى لما رأوه من نقصان العدة واختلاط الأمر، فصلب ذلك الشخص وأبعد الناس عن خشبته أياماً حتى تغير ولم تثبت له صفة، وحينئذ دنا الناس منه، ومضى الحواريون يتحدثون فى الآفاق أن عيسى صُلب، وقيل: لم يلق شبهه على أحد، وإنما معنى ﴿ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ ﴾ أى شبه عليهم الملك الممخرق ليستديم بما نقص واحد من العدة، وكان بادر بصلب واحد وأبعد الناس عنه، وقال: هذا عيسى، قال أبو حيان: (وهذا القول هو الذى ينبغى أن يعتقد فى قوله ﴿ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ ﴾ أما أن يلقى شبهه على شخص، فلم يصح ذلك عن رسول الله (ﷺ) (فيعتمد عليه) البحر : ٤/ ١٢٦، وقال البيضاوى: (وأمثال ذلك من الخوارق التى لا تستبعد فى زمان النبوة) البيضاوى: ٣/ ٣٩٠، وقال ابن عطية: (الذى صح فيه نقل الكافة عن حواسها هو أن شخصاً صلب، وأما هل هو عيسى أم لا؟ فليس من علم الحواس، فلذلك لم ينفع فى ذلك نقل كافة اليهود والنصارى) المحرر : ٢/ ١٣٤، ويراجع: الكشاف : ٢/ ١٧٥، أبو السعود: ٢/ ٢١٧.

من خصائص النظم فى الآية:

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ ﴾ من جملة قبائح اليهود وجرائمهم التى أوجبت لهم اللعن والعذاب، وهو معطوف على قوله تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ فى الآية السابقة حيث أثبتت لهم الكفر بعيسى بعد الكفر بموسى (عليهما السلام) ورميَهم مريم (عليها السلام) بالبهتان العظيم، وإذا كان قوله: ﴿ وَقَوْلِهِمْ ﴾ هنا معطوف على ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ فإن الأخير معطوف على قوله تعالى ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ ﴾ (النساء : ١٥٥)، قال الزمخشرى: (فإن قلت ما معنى مجئ الكفر معطوفاً على ما فيه ذكره، سواء عطف على ما قبل حرف الإضراب أو على ما بعده وهو قوله: ﴿ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ وقوله ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾؟ قلت: قد تكرر منهم الكفر؛ لأنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد – صلوات الله عليهم –؛ فعطف بعض كفرهم على بعض، أو عطف مجموع المعطوف على مجموع المعطوف عليه، فكأنه قيل: فبجمعهم بين نقض الميثاق والكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقولهم : قلوبنا غلف، وجمعهم بين كفرهم وبهتهم مريم وافتخارهم بقتل عيسى، عاقبناهم)[1]، فتقرير كفرهم يلف السياق، وفيه إشارة إلى أنه مصدر قبائحهم، يقوى ذلك عطف ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴾ على قوله ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾، ثم عطف هذا القول هنا على ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾، فكلها افتراءات وأقوال فارغة لا صحة لها ولا دليل عليها، وما بعثهم على افتراء ذلك والقول به إلا كفرهم الذين تمكنوا فيه.

---

(١) الكشاف : ٢/ ١٧٤ – ١٧٥.

﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ﴾ أكدوا القتل بإنَّ، ونسبوه إليهم جميعاً، مبالغة فى الافتخار والزهو بهذا الجرم العظيم، قال الجمل ١٢٠٤هـ: (فما جاءهم الضرر إلا من افتخارهم بما ذكر)[١] لأنه فى الحقيقة لم يُقتل؛ لكن لزمهم الذنب دون أن يقتلوه؛ لأنهم صلبوا شخصاً على أنه عيسى (عليه السلام) وعلى أن عيسى كذاب وليس برسول، فلزمهم الذنب من حيث اعتقدوا أنهم قتلوه[٢].

ويزيد من شناعة تراضيهم وإجماعهم على هذا المنكر وفرحهم به تلك الأوصاف التى أطلقوها على المسيح المقتول فى زعمهم، فقالوا: ﴿ ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ فوسَّطوا اسمه بين لقبين يقتضيان التشريف والتكريم، فالمسيح كما قال الطاهر١٣٩٣هـ: (كان لقباً لعيسى (عليه السلام) لقبه به اليهود تهكماً عليه؛ لأن معنى المسيح فى اللغة العبرية بمعنى المِلك ... وهو لقب قصدوا منه التهكم، فصار لقباً له بينهم، وقَلَبَ اللهُ قَصْدَهم تحقيرَه فجعله تعظيماً له)[٣] ثم إنَّ وصفه بالرسالة وإضافتَه إلى اسم الله تعالى، مما يقتضى المنزلة العظيمة والمكانة العليا، ولكنهم تبجحوا وتعنتوا فازدادوا كفراً على كفرهم وهموا بقتل مَنْ هذه صفاته.

هذا إذا كان ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ من كلامهم المحكى عنهم، فيكون المقصود منه التهكم والاستهزاء به وبمن أرسله (عز وجل)، وتبارك وتعالى عن قولهم - وذلك على حد قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر : ٦)، وقول فرعون: ﴿ إِنَّ

(١) حاشية الجمل : ٢/ ٤٤٢.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٢/ ١٣٣.

(٣) التحرير والتنوير : ٦/ ١٩.

رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ (الشعراء : ٢٧)، وقول أهل مدين لشعيب: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ (هود : ٨٧).

ولا أفجر فى الكفر ممن يجرى الله الحق على لسانه، فينطقه به، ثم لا يهديه إلى الإيمان والصدق.

أما إذا كان قوله: ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ من الحكاية، فيكون من كلام الله (ﷻ) قُصد به الثناء على عيسى (عليه السلام) فيكون من وضع الذكر الحسن موضع ذكرهم القبيح، رفعاً له وتعظيماً، وإيماءً إلى أن الذين يتبجحون بقتله أحرياء بما رتب لهم على قولهم ذلك، ولذلك لزمهم الذنب من هذه الجهة[1].

وإعراب القرطبى ٦٧١هـ ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ بدلاً[2] يعظم من تبجحهم؛ لأن البدل هو المقصود بالحكم، فكأنهم ما قتلوه إلا لأنه رسول الله.

وقدَّر العلامة الجمل ١٢٠٤هـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا قَتَلۡنَا ﴾ بقوله: (أى وصلبناه، بدليل قوله: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ ففيه اكتفاء)[3]، وسيأتى توجيه بلاغة ذلك.

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ ﴾ الجملة حالية أو اعتراضية، ترد زعمهم وكذبهم بقتل عيسى (عليه السلام) ويجوز أن تكون خبراً من الله – تعالى – معطوفاً على ما سبق من

(١) يراجع: الكشاف: ٢/ ١٧٥، المحرر : ٢/ ١٣٣، زادة : ٢/ ٨١، أبو السعود : ٢/ ٢١٧، التحرير : ٦/ ٢٠.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن : ٣/ ٢٠٠٥.

(٣) حاشية الجمل : ٢/ ٤٤٣.

أخبارهم، ولو اعترض على ذلك بأن الحال تقتضى تأكيده حينئذ، يجاب بأنه تجرد من التأكيد لاعتبار أن المخاطب به المؤمنون، أو لمجيئه على خلاف مقتضى الظاهر فيكون غنياً عن التأكيد، أو لكونه لم يُتلق إلا من الله – تعالى – فكان أعظم من أن يأتى مؤكداً[1].

وقوله ﴿ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ استدراك على أصل ظنهم المبنى على جزمهم بالقتل؛ لأنه قد يفهم افتخارهم بقتله أنهم على علم يقينى بذلك، فنبه هنا على أنهم مترددون فى ذلك مختلفون فيه.

و ﴿ شُبِّهَ ﴾ مبنى للمفعول أسند إلى الجار والمجرور ﴿ لَهُمْ ﴾، كأنه قيل: لكن وقع لهم التشبيه بين عيسى (عليه السلام) والمقتول، أو هو مسند إلى الأمر، بمعنى لم يُقتل أحد ولكن أُرجف بقتله فشاع بين الناس، وقيل: أسند إلى ضمير المقتول لدلالة ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ﴾ على أن ثمَّ مقتولاً وعلى كل فليس المسند إليه ضمير المسيح لأنه مشبه به لا مشبه[2]، وهذا الخلاف مؤسس على الاختلاف فيما ورد من روايات فى قصة إلقاء الشبه[3] وإثبات التشبيه هنا وبناء الفعل للمجهول هو بداية تصوير حال القوم وما وقعوا فيه من اختلاط واختلاف وشك وظن، فكل آرائهم ومذاهبهم فى شأن عيسى مبنية على اللبس والاختلاط وانعدام الأدلة والشواهد.

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٦/ ٢٠.

(٢) يراجع: الكشاف : ٢/ ١٧٥، البيضاوى : ٣/ ٣٩٠، البحر المحيط : ٤/ ١٢٦، أبو السعود: ٢/ ٢١٧ – ٢١٨، حاشية الجمل : ١/ ٤٤٣.

(٣) يراجع: البيضاوى: ٣/ ٣٩٠، التحرير والتنوير : ٦/ ٢١.

معطوف على ﴿ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ لأن التشبيه يفهم الاختلاف، فاختلفوا بسبب التشبيه على أقوال عديدة، والظاهر أن الضمير فى ﴿ فِيهِ ﴾ يعود على القتل، فليس لهم فيه رأى يجتمعون عليه، بل أمرهم مبنى على الشك والتردد.

والمراد بالذين اليهود أو النصارى، فكلا الطائفتين على اختلاف فى شأن المسيح (عليه السلام)[1].

---

(١) قيل: لما وقعت تلك الواقعة من القتل والتشبيه والصلب اختلف الناس، فقال بعض اليهود: إنه كان كاذباً فقتلناه حقاً، وتردد آخرون فقال بعضهم : إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟، وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا، وقال من سمع منه أن الله يرفعنى إلى السماء: أنه رفع إلى السماء، وقال بعضهم: صلب الناسوت وصعد اللاهوت.. البيضاوى: ٣/ ٣٩٠، وقال القرطبى: قيل: إن الإخبار هنا عن جميعهم، وقيل: إنه لم يختلف فيه إلا عوامهم، ومعنى اختلافهم : قول بعضهم إنه إله، وبعضهم: هو ابن الله، وقيل: اختلافهم أن عوامهم قالوا قتلنا عيسى، وقال من عاين رفعه إلى السماء : ما قتلناه، وقيل: اختلافهم أن النسطورية من النصارى قالوا: صلب الناسوت دون اللاهوت، وقالت الملكانية: وقع الصلب والقتل على المسيح بكماله، وقيل: اختلافهم هو أن اليهود قالوا: نحن قتلناه، لأن يهوذا رأس اليهود هو الذى سعى فى قتله، وقالت طائفة من النصارى: بل قتلناه نحن.. ينظر الجامع: ٣/ ٢٠٠٥.

وقال الطاهر ابن عاشور: (والخلاف فيه موجود بين المسيحيين، فجمهورهم يقولون: قتلته اليهود، وبعضهم يقول : لم يقتله اليهود، ولكن قتلوا يهوذا الاسخريوطى الذى شبه لهم بالمسيح، وهذا الاعتقاد مسطور فى إنجيل برنابى – الذى تعتبره الكنيسة اليوم كتاباً محرفاً – فالمعنى أن معظم النصارى المختلفين فى شأنه غير مؤمنين بصلبه، بل يخالج أنفسهم الشك ويتظاهرون باليقين، وما هو باليقين، فما لهم به من علم قاطع إلا اتباع الظن) التحرير والتنوير : ٦/ ٢٢، ومن يراجع كتب التفسير يجد هذا الخلاف المطول القائم على جعل المختلفين اليهود أو النصارى، ومرجع ذلك إلى تداخل التراكيب، وأن أصل السياق لقبائح اليهود، ولما ورد ذكر مفصل لقضية المسيح (عليه السلام) دخل النصارى فى الخلاف.

و﴿ مِّنْهُ ﴾ صفة لـ ﴿ شَكٍّ ﴾ أى هم فى شك حادث من جهة قتله، فهى لابتداء الغاية[1].

وأورد العلامة الجمل ١٢٠٤هـ فى هذه الجملة إشكالين، وردهما بقوله: (وفى الآية إشكالان : أحدهما: أن الظاهر من قوله تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ ﴾ أن جميع اليهود على اعتقاد أنهم قتلوا عيسى، وهذا القول أعنى قوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ على ما فسره القاضى يدل على أن بعضهم فى التردد، والثانى: أن الذين اختلفوا فيه بعضهم غير متردد بل جازم بقتله، فكيف يصح إطلاق الحكم بأن الذين اختلفوا فيه لفى شك؟ والجواب أن المراد بالشك ههنا ما يقابل العلم، وكلهم فى الشك بقتله فى هذا المعنى؛ إذ ليس لهم علم به، وأما تردد بعضهم فى قتله فمعناه أنهم اعتقدوا اعتقاداً راجحاً فى قتله فاختلع فى قلوبهم الشبهة المذكورة)[2] وهذا ما سيتأكد فى جملة الاستثناء وما بعدها.

بلاغة الاستثناء المنقطع:

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ استثناء منقطع مما قبله؛ لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم، وهذا قول جمهور المفسرين، ويعد هذا الاستثناء أشهر مثال للاستثناء المنقطع عند النحاة، وإن كان من الغريب أن الإمام القرافى ٦٨٤ هـ لم يذكر هذه الآية فى كتابه (الاستغناء) مطلقاً.

(١) ينظر: حاشية الجمل : ٢/ ٤٤٣.

(٢) حاشية الجمل : ٢/ ٤٤٣ - ٤٤٤.

ولم يخرج عن القول بقطع الاستثناء هنا إلا ابن عطية ٥٤٦هـ فقال باتصاله، ورده أبو حيان ٧٥٤هـ[١]، ولم يثبت كثير من المفسرين لهذا الاستثناء سراً بلاغياً، بل اكتفوا بتقديره بلكن، فقالوا: أى ولكنهم يتبعون الظن[٢].

لكنا نرى الإمام البقاعى ٨٨٥هـ بحكم منهجه ينص على سر هذا الاستثناء، فيقول: (ولَمَّا كانوا يكلفون أنفسهم اعتقادَ ذلك بالنظر فى شهادته، فربما قويت عندهم شبهة فصارت أمارةً أوجبت لهم – لشغفهم بآمالها – ظناً، ثم اضمحلت فى الحال لكونها لا حقيقة لها، فعاد الشك وكان أبلغ فى التحير؛ قال ﴿ إِلَّا ﴾ أى لكن ﴿ ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ أى يكلفون أنفسهم الارتقاء من درك الشك إلى رتبة الظن، وعبر بأداة الاستثناء دون لكن الموضوعة للانقطاع

(١) قال ابن عطية: (وهو استثناء متصل ؛ إذ الظن والعلم يضمهما جنس واحد أنهما من معتقدات النفس، وقد يقول الظان على طريق التجوز: علمى فى هذا الأمر أنه كذا، وهو يعنى ظنه) المحرر الوجيز: ٢/ ١٣٤، ورده أبو حيان فقال: (وليس كما ذكر ؛ لأن الظن ليس من معتقدات اليقين ؛ لأنه ترجيح أحد الجائزين، وما كان ترجيحاً فهو ينافى اليقين، كما أن اليقين ينافى ترجيح أحد الجائزين، وعلى تقدير أن الظم والعلم يضمهما ما ذكر فلا يكون أيضاً استثناءً متصلاً ؛ لأنه لم يستثن الظن من العلم، فليست التلاوة : ما لهم به من علم إلا الظن، وإنما التلاوة : إلا اتباع الظن، والاتباع للظن لا يضمه والعلم جنس ما ذكر) البحر المحيط: ٤/ ١٢٧، ويراجع : بدائع الفوائد: ٣/ ٥٦٦، قلت: والرد الثانى لأبى حيان هو الأليق ؛ لأن رده الأول مؤسس على أن عبارة ابن عطية هى أن الظن من معتقدات اليقين، وهو خطأ ؛ لأن عبارته كما فى المحرر: أنهما من معتقدات النفس، وبذلك يسقط الرد الأول.

(٢) ينظر: الكشاف : ٢/ ١٧٥، الجامع : ٣/ ٢٠٠٥، البحر : ٤/ ١٢٧، البيضاوى : ٣/ ٣٩١، الدر المصون : ٢/ ٤٥٨، أبو السعود : ٢/ ٢١٨، زادة : ٢/ ٨٢، الجمل : ١/ ٤٤٤، روح المعانى : ٦/ ١١، إعراب القرآن للنحاس : ١/ ٥٠٢.

إشارة إلى أن إدراكهم لما زعموه من قتله مع كونه فى الحقيقة شكاً يكلفون أنفسهم جعله ظناً، ثم يجزمون به، ثم صار عندهم متواتراً قطعياً، فلا أجهل منهم)[1].

وهذا التوجيه للبقاعى (رحمه الله) مؤسَّسٌ على معنى اضطراب القوم وتحيرهم فى شأن عيسى (عليه السلام)، وهذا التحير والتخبط والاختلاف تُفيده عدة أساليب فى قوله تعالى ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ وقوله ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ﴾ فالتخبط والاختلاف ظاهر أولاً من تنقلهم بين الشك الذى يعتدل فيه النقيضان ويتساويان لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين أو لعدم الأمارة فيهما، ولذلك كان الشك ضرباً من الجهالة، وبين الظن الذى يحصل عن أمارة إذا قويت أدت إلى العلم[2].

فقد تقوى حجة قتله وصلبه عندهم فيظنون، ثم ما تلبث أن تضمحل فيترددون ويشكون.

واختلاف الروايات والقصص الواردة عنهم فى ذلك مما يزيد من هذا الاضطراب والتخبط. ثم يظهر هذا التخبط والاختلاف ثانياً من دلالة قوله: ﴿ ٱتِّبَاعَ ﴾ على التكلف عند البقاعى فى كل مقاماتها؛ فهم يكلفون أنفسهم الارتقاء من منزلة الشك إلى رتبة الظن حتى تطمئن قلوبهم وتستوى عقيدتهم، ثم يظهر هذا ثالثاً فى صورة الاستثناء المنقطع الذى يطيح بكل محاولاتهم فى الاهتداء إلى علم يقينى فى هذا الشأن، فيشير إلى أن علمهم الذى

(١) نظم الدرر : ٢/ ٣٥٠ – ٣٥١.

(٢) هذا مستفاد من تعريف الراغب للشك والظن. ينظر: المفردات فى غريب القرآن: ٢٦٩، ٣٢٠. المكتبة التوفيقية بدون.

جزموا به وصار عندهم متواتراً قطعياً ما هو إلا شك كلفوا أنفسهم جعله ظناً، فلم يخرجوا من دائرة الشك والظن.

ومن سياق حديث البقاعى عن الآية يتضح أنه يثبت هذا التخبط لليهود الذين اختلفوا فى أمر عيسى (عليه السلام)؛ لأن اليهود كانوا توهموا أنهم قتلوه، وكانت شبهتهم فى ذلك ما رأوه ظاهراً من وقوع قتل وصلب على ما اعتقدوه ذاتاً للمسيح(١).

والظاهر من كلام الطاهر ابن عاشور ١٣٩٣هـ (رحمه الله) أن الحديث عن النصارى من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ فقرر أن هذا الخلاف متحقق بين النصارى، فجمهورهم على أن اليهود قتلوا عيسى (عليه السلام)، ومنهم من يقول بعدم قتل اليهود له، ثم قال: (فالمعنى أن معظم النصارى المختلفين فى شأنه غير مؤمنين بصلبه، بل يخالج أنفسهم الشك، ويتظاهرون باليقين، وما هو باليقين، فما لهم به من علم قاطع إلا اتباع الظن، فالمراد بالظن هنا معنى الشك، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (الحجرات : ١٢)، فالاستثناء فى قوله: ﴿ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ منقطع)(٢).

وبذلك يكون المقصود من جملة الاستثناء هم النصارى، ويتحقق سر الاستثناء المنقطع فى فضح عقيدة جمهور النصارى الذين يؤمنون بقتل اليهود للمسيح وصلبهم له، فهم يتظاهرون بأنهم موقنون بذلك، مع أن الشك يخالج نفوسهم، ونلاحظ أن الطاهر جعل الظن بمعنى الشك فى المستثنى، رداً لهم إلى مرتبة أدنى من الظن.

(١) يراجع : التحرير والتنوير : ٦/ ٢٠-٢١.

(٢) التحرير والتنوير : ٦/ ٢٢ بتصرف.

وبهذا تتجلى أسرار قطع الاستثناء، وذلك عن طريق التدبر والنظر فى السياق ودلالات التراكيب ومراعاة المقامات، فهو يصور هنا تلك المعانى من الاختلاف والتخبط سواء كانت من اليهود أم من النصارى، ويكشف ثانياً عن خبايا عقيدة النصارى وأنها ليست قائمة على علم يقينى راسخ؛ لأن حقيقة علم ذلك ثابتة فى القرآن الكريم الذى أنزله الله على محمد (ﷺ) والذى كفر به اليهود والنصارى، فتخبطوا وضلوا، ولو طلبوا علم ذلك وحقيقته ما وجدوه إلا فيما أُنزل على محمد (ﷺ)، ولذلك قال الله تعالى فى نهاية هذا السياق: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (النساء : ٦٢)، ومن ثم قرر الطاهر ابن عاشور[1] أن هذا الاستدراك ناشئٌ على ما يوهمه الكلامُ السابق الذى ابتدأ به السياق من قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (النساء : ١٥٣)، مِن توغُّل هؤلاء فى الضلالة، فلا يُرجى فيهم الخير والصلاح، فاستدرك بأنهم ليسوا جميعاً كذلك، بل فيهم راسخون فى العلم يؤمنون بما أُنزل إلى النبى (ﷺ)، ولذلك هم بعيدون عن التكلف والتعنت؛ لأنهم يعرفون الحق، ويعلمون ما يشكل على الناس من وحى الله الصادق.

وبذلك يكون مدار السياق على العلم منذ بدايته إلى نهايته، وأرى أن تكون جملة الاستثناء المنقطع فى التأكيد على خلو اليهود من علم فى شأن عيسى (عليه السلام)؛ لأن السياق كله عن اليهود وبيان رذائلهم وقبائحهم التى أوجبت لهم العقاب، فلا تتشتت الضمائرُ والمعانى، ثم لأنه إذا انتفى علمُ أمر عيسى (عليه السلام) على اليهود الذين باشروا محاولة قتله وصَلبه،

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ٦/ ٢٨-٢٩.

وعاينوا إقدامَ كُبرائهم على ذلك، ثم اختلفوا واضطربوا فى أمره، فانتفاءُ علمِ ذلك عن النصارى آكدُ وأعظمُ.

ولّما كان المقام قائماً على العلم خُتمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ أو على قوله: ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ والضمير عائد على عيسى بجعل الضمائر كلها كشيء واحد فلا تختلف[1] وهو قولٌ فصلٌ من الله – تعالى – بعدم قتل عيسى (عليه السلام)، وإثباتِ رفعه كما فى الآية التى تلى تلك الآية، بعد إثبات تخبط الناس فى أمره.

وانتصب ﴿ يَقِينًا ﴾ على أنه مصدر فى موضع الحال من فاعل قتلوه، أى متيقنين أنه عيسى كما ادعوا ذلك، أو على أنه نعت لمصدر محذوف أى قتلاً يقيناً، وقيل: هو مؤكد لمضمون الجملة، بمعنى ما قتلوه حقاً، أى حَقَّ انتفاء قتله حقاً[2] وبذلك يكون تأكيدُ النفى موجهاً إلى كل أجزاء الجملة : فاليقينُ منفىٌّ عن الفاعل، ومنفىٌّ عن الحدث (القتل)، ومنفىٌّ عن مضمون الجملة.

---

(١) وقيل: الضمير عائد على الظن، تقول: قتلت هذا الأمر علماً إذا قطعت به وجزمت الجزم الذى لا يخالجه شك، فالمعنى: ولا قطعوا الظن باليقين، وقيل: الضمير: عائد على العلم، أى ما قتلوا العلم يقيناً، يقال: قتلت العلم والرأى يقيناً ؛ لأن القتل للشيء يكون عن قهر واستعلاء، فكأنه قيل: لم يكن علمهم بقتل المسيح علماً أحيط به، إنما كان ظناً، قال الزمخشرى: وفيه تهكم لأنه إذا نفى عنهم العلم نفياً كلياً بحرف الاستغراق ثم قيل: وما علموه علم يقين وإحاطة لم يكن إلا تهكماً. يراجع: الكشاف: ٢/ ١٧٦، البحر المحيط: ٤/ ١٢٧-١٢٨

(٢) ينظر: الكشاف : ٢/ ١٧٦، البحر المحيط: ٤/ ١٢٨، حاشية الجمل: ١/ ٤٤٤.

وخُتم الكلامُ هنا باليقين فى مقابلة الظنون التى اتبعها المرجفون، والاقتصارُ على نفى القتل هنا دون الصَّلب مطلٌّ على الاقتصار على ذلك فى قوله: ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ ﴾ والذى قدره الجمل ١٢٠٤هـ بقوله: (أى: وصلبناه، بدليل قوله: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾، ففيه اكتفاء)(١).

ولم يذكر العلامة الجمل سراً لذلك، كعادته فى مواضع كثيرة من فتوحاته الإلهية، فيلفت إلى أمر أسلوبى فى التنزيل الحكيم، ولا ينص على سرٍّ لذلك، وهو يثبت ذلك ولا يحذفه أملاً فى أن يفتح الله له أو لغيره باباً إليه، وهى مواضعُ خَليقةٌ بأن تُجمَعَ ويُبذَلَ فيها الجهد(٢).

ولعل فى الاكتفاء بالقتل هنا تركيزاً على كبيرةٍ من كبائر قبائح اليهود، لصقت بهم وبرذائلهم، وهى قتلُ الأنبياء، فالقتلُ من شأنهم وغايتهم ومنتهى طلبتهم، ولذلك اقتصروا على الافتخار والزهو به فى قولهم: ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ ﴾، ومن ثم جاء ردُّ هذا الزعم فى نهاية الآية مقتصراً على القتل؛ دحضاً لسبب هذا الافتخار.

أما ذكرُ الصَّلبِ منفياً فى قوله: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ عقب نفى القتل فممَّا تطلبه الحالُ؛ لأنَّ الصلبَ هو الذى أدخل عليهم الاشتباهَ واللَّبسَ والاختلاطَ، فكان منشأً للاختلاف.

والله أعلم.

---

(١) حاشية الجمل: ١/ ٤٤٣.

(٢) من ذلك مثلاً قوله فى قوله تعالى: ﴿ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ (النساء: ٢٣)، قال: (لِمَ لم يقل هنا: إنه كان فاحشة) حاشية الجمل: ١/ ٣٧١.

٤- قال تعالى :

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

[مريم : ٦٢]

٥ قال تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾

[الواقعة : ٢٥-٢٦]

جمعتُ بين هاتين الآيتين لوحدة المعنى والغرض فيهما، وكذلك وحدة الأسلوب، ثم لما فيهما من تشابه لفظى بالزيادة والنقص، وما فى ذلك من أسرار تقتضى إبانتُهاالجمعَ بينهما، وسوف يمضى التحليل على الفصل بينهما، إلى أن يأتى النظر فى توجيه المتشابه فيها، فيُجْمَعُ بينهما حينئذ.

معنى الآية الأولى وسياقها:

بعد أن ذكر الله – تعالى – عدداً من أنبيائه الذين اصطفاهم واجتباهم وأبقى ذكرهم فى العالمين، ذكرت الآياتُ عقبَ السوء الذين خلفوهم، فضلُّوا السبيل وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات؛ فكا ن جزاؤهم شراً وهلاكاً وخسراناً، ثم استثنت الآيات مَنْ أعلن توبته، فآمن، وصَدَّقت جوارحُه اعتقادَ قلبه فعمل الصالحات، فأولئك لهم جنات عدن وعدهم الله بها بسبب تصديقهم بالغيب؛ لأنها من جملته، أو لأنهم كانوا يعبدون الله بالغيب أى سراً، وكان من صفات تلك الجنات أنَّ أهلها لا يسمعون فيها فاحشَ الكلام وفضولَه وساقطَه؛ لأنهم لا يَلْغُون أصلاً، لكن تُسَلِّم عليهم الملائكةُ أو يُسَلِّمُ بعضُهم على بعض تكريماً وتشريفاً وتعظيماً، ثم يُتبع هذا الجزاء بما هو أعظم وهو إثباتُ الرزقِ الدائمِ لهم.

خصائص النظم فى الآية:

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ﴾ جملة فعلية فى محل نصب حال من ﴿ عِبَادَهُۥ ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾.

واللغو هو ما لا يعتد به من الكلام وغيره، وهو الذى يورد لا عن روية وفكر، فهو كلام سبيله أن يُلْغَ ويُطرح لخلوه عن الفائدة، وهو أنواع مختلفة كلها ليست فى الجنة[1]، فالنكرة مفيدة للتعميم لأنها فى سياق النفى.

ونفىُ سماع اللغو عن أهل الجنة كنايةٌ عن عدم صدور اللغو منهم، كما أنَّ فى ذلك تنبيهاً على أنه مما ينبغى أنْ يُجتنب ما أمكن فى دار الدنيا[2]، ولذلك كان من صفات عباد الرحمن: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ (الفرقان : ٧٢)، وكان من صفات المؤمنين: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ (القصص : ٥٥)، وفى نفى سماع اللغو لأهل الجنة كنايةٌ عن خلو الجنة من أقل المكدرات، قال تعالى: ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ﴾ (الغاشية : ١١)[3].

وقوله: ﴿ سَلَـٰمًا ﴾ استثناءٌ منقطع، سيأتى الحديث عنه، والسلامُ المستثنَى هنا هو قول الملائكة: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ (الرعد: ٢٤)، أو سلامُ الله عليهم عند دخولها، كما فى قوله: ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ (يس : ٥٨)، أو تسليمُ بعضهم على بعض، كما فى

(١) ينظر: المفردات : ٤٥٥، الكشاف : ٤/ ٣٤، المحرر : ٤/ ٢٣، بصائر ذوى التمييز: ٤/ ٤٣٤، زادة: ٣/ ٢٩٣، أبو السعود: ٤/ ٢٤٩.

(٢) ينظر: أبو السعود : ٤/ ٢٤٩.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير : ١٦/ ١٣٧.

قوله تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ (يونس : ١٠)، فهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون وينعمون به.

وقيل: إنَّ السلام بمعنى السلامة وهو التعرى من الآفات الظاهرة والباطنة، والسلامةُ الحقيقية ليست إلا فى الجنة؛ إذ فيها بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وصحة بلا سقم، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (الأنعام : ١٢٧)، أى السلامة، والسلامُ من الناس بالقول، ومن الله تعالى بالقول والفعل جميعاً، وهو إعطاء ما تقدم ذكره مما يكون فى الجنة من السلامة(١).

وتنكير ﴿ سَلَٰمًا ﴾ هنا يفيد التعميمَ الذى يَقبل كلَّ تلك المعانى التى تزيد نعيم أهل الجنة.

﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ جملة معطوفة على ما سبق، تُثبت لأهل الجنة نعيماً وفضلاً آخر بعد ما ذُكر، فهم ينعمون بكل أنواع الرزق فى كل وقت وحين.

وهى جملة اسمية تفيد ثبوت ودوام هذا الرزق، وهذا الدوامُ مفادٌ ثانياً من قوله: ﴿ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾، فالجمعُ بينهما كناية عن استغراق الزمن(٢).

---

(١) يراجع : الكشاف : ٤/ ٣٤، البيضاوى : ٦/ ٢٩١، الجامع: ٦/ ٤١٦٥، البحر: ٧/ ٢٧٩، المفردات للراغب: ٢٤٥-٢٤٦، بصائر ذوى التمييز: ٣/ ٢٥٢، روح المعانى: ١٦/ ١١٢.

(٢) وقيل: من الناس من يتغدى ويتعشى وهى العادة الوسط المحمودة، ولا يكون ثَمَّ ليل ولا نهار ولكن على التقدير، ولأن المتنعم عند العرب من وجد غداء وعشاء، وكان أهنأ النعمة عند العرب التمكين من المطعم والمشرب بكرةً وعشياً، وعوض الله (ﷻ) المؤمنين فى الصيام السحور بدلاً من الغداء ليقووا به على عبادة ربهم .. ينظر: الكشاف: ٤/ ٣٥، الجامع: ٦/ ٤١٦٦، التحرير : ١٦/ ١٣٨.

وتقديمُ المسند إليه ﴿ وَلَهُمْ ﴾ يدل على العناية بهم وبحالهم، وفى إضافة الرزق إلى ضميرهم دلالة على مزيد الاختصاص[1].

وتكرير ﴿ فِيهَا ﴾ مع دلالة الأول عليه إشارة إلى كمالِ كل نعمة تُغْدَق عليهم، واستقلالِ كل عطاء يُعطونه من الله تعالى، والتأكيد على ذلك.

بلاغة الاستثناء المنقطع:

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ استثناء منقطع مما قبله؛ لأنَّ السلام ليس من جنس اللغو، سواء فُسِّر بتسليم الملائكة، أو بتسليم بعضهم على بعض، أو كان بمعنى السلامة.

وهذه الآية من شواهد النحاة على الاستثناء المنقطع المقدر بلكن، ولم يخرج حديثهم فيها عن هذا التقدير[2] وهى كذلك من شواهد الخطيب القزوينى ٧٩٤هـ فى باب تأكيد المدح بما يشبه الذم.

وسوف أبدأ بإثبات أقوال البلاغيين فى هذا الاستثناء، ثم أتبع ذلك بأقوال المفسرين.

أولا : تقديرات الخطيب والعصام للاستثناء :

ذكر الخطيب القزوينى هذه الآية عقب فراغه من بيان ضربى تأكيد المدح بما يشبه الذم، وقرر أنها تحتمل ثلاثة وجوه، هى[3]:

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٦/ ١٣٨.

(٢) ينظر: شرح المفصل للخوارزمى : ١/ ٤٦٣، شرح المقرب : ٢/ ٩٢٠، إعراب القرآن للنحاس : ٣/ ٢٢، الدر المصون: ٤/ ٥١٤، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ١/ ٣٤٠.

(٣) يراجع : الإيضاح : ٦/ ٧٦، المطول مع فيض الفتاح : ٤/ ٣٠٣.

١. أن تكـون مـن الـضرب الأول بـأن يُقـدَّر الـسلامُ داخـلاً فى اللغـو، فيفيـد التأكيـدَ مـن الوجهين[١].

٢. أن تكون من الضرب الثانى؛ بأن لا يُقدَّر ذلك ويُجعل الاستثناء من أصله منقطعاً؛ فلا يفيد التأكيد إلا من الوجه الثانى.

٣. أن يكون الاستثناء متصلاً من أصله؛ على معنى أنَّ (السلام) هو الدعاء بالسلامة، وأهلُ الجنة عن الدعاء بالسلامة أغنياء، فكان ظاهره من قبيل اللغو وفضول الكلام لولا ما فيه من فائدة الإكرام، وهذا مأخوذ من الزمخشرى ٥٣٨هـ كما سيأتى.

وذكر العلامة العصام ٩٤٣هـ هذه الوجوه، وزاد وجهاً آخر هو[٢]:

٤. أن يكون ﴿ سَلَٰمًا ﴾ مصدراً حينياً؛ أى لا يسمعون فيها لغواً وقتاً إلا وقت تسليم فيكون من الضرب الآخر الذى يكون فيه الاستثناء مفرغاً، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ﴾ (الأعراف : ١٢٦).

والاستثناءُ فى الآية منقطعٌ على الوجهين الأولين، وغرضُه التأكيد على تقدير: إنْ كان السلام من اللغو فهم لا يسمعون لغواً إلا ذلك، فالتأكيد من الوجهين اللذين سبق شرحهما فى المبحث الثانى.

والاستثناءُ متصل على الوجه الثالث، وهو بعيد عن ظاهر اللفظ، وسيأتى مزيد رد عليه.

---

(١) الأول: أنه كدعوى الشيء ببينة، والثانى: أن الأصل فى الاستثناء الاتصال، فإذا نطق المتكلم بإلا توهم أن ما يأتى بعدها مخرج مما قبلها. وقد مر تفصيل ذلك فى المبحث الثانى.

(٢) ينظر: الأطول : ٢/ ٢١٦.

أما قول العصام بتفريغ الاستثناء، فيضعفه التقدير الذى لا يحتاجه اللفظ، ويَضعف من ناحية المعنى؛ إذ كيف يتصور فى جانب المستثنى منه أنه مقيد بوقت معين.

وعلى كلٍّ فلا نجد سراً بلاغياً خاصاً بمقام الآية وسياقها، خلف هذه التقديرات، وما هو إلا التأكيد الذى وُضع غرضاً عاماً لهذا الأسلوب.

ثانياً : حديث المفسرين فى هذا الاستثناء :

قال الإمام الزمخشرى ٥٣٨هـ: (أى إنْ كان تسليمُ بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغواً، فلا يسمعون لغواً إلا ذلك، فهو من وادى قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ∴ بهن فلول من قراع الكتائب

أولا يسمعون فيها إلا قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة، على الاستثناء المنقطع، أو لأنَّ معنى السلام هو الدعاء بالسلامة، ودار السلام هى دار السلامة، وأهلها عن الدعاء بالسلامة أغنياء، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث، لولا ما فيه من فائدة الإكرام)[1].

يظهر من هذا النص أنَّ الزمخشرى يُجيز فى الاستثناء هنا ثلاثة أوجه، هى:

١. أن يكون المعنى: إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغواً، فلا يسمعون لغواً إلا ذلك، كما فى قول النابغة الشهير، وهو بهذا استثناء منقطع يفيد التأكيد على نفى سماع اللغو، على ما نظَّر له الخطيب.

(١) الكشاف : ٤/ ٣٤ – ٣٥.

ولَّما لم يصرح الزمخشرى بأنَّ الاستثناء منقطع على هذا المعنى، وصرح فى الثانى بذلك، أوهم الجمل ١٢٠٦هـ أنه متصل؛ ولذلك رد على الزمخشرى بقوله: (وأما الاتصالُ فى الأول فَعَسِرٌ؛ إذ لا يعد ذلك عيباً، فليس من جنس الأول)[١].

ولم يقل الزمخشرى باتصال الاستثناء، بدليل أنه مثَّل بأشهر بيتٍ فى شواهد المنقطع، وقد فطن كل من ابن المنير٦٨٣هـ والشهاب ١٠٦٩هـ (رحمهما الله) إلى ما يمكن أن يتوهم من كلام الزمخشرى؛ فأشارا إلى أنَّ الاتصال متصورٌ بعد هذا التجوزِ والفرضِ والتقديرِ، ولولا ذلك لم يقع موقعَهُ من الحسن والمبالغة[٢].

٢. أن يكون استثناء منقطعاً أيضاً ولكن على معنى: أنهم لا يسمعون فيها إلا قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة، وهذا هو الوجه الأول عند البيضاوى ٦٩١هـ، لكنه قال فيه: (ولكن يسمعون قولاً يسلمون فيه من العيب والنقيصة)[٣] فقدَّر لكن، فكان أدق، لأن تقدير لكن هنا يجعل المعنى موصولاً بنفى اللغو أولاً، وابتداءُ المعنى عند الزمخشرى بلا يُزيح نفى اللغو من السياق.

ولا أرتضى هذا التأويل لأنَّ تقدير الزمخشرى يُدخل الأسلوبَ فى الاستثناء المفرغ، فلا ظهورَ للمستثنى منه فى التقدير، وهو بهذا يحذف اللغو من السياق، ويُحيل الأسلوبَ إلى أسلوب آخر.

٣. أن يكون الاستثناءُ متصلاً على أنَّ السلام هو الدعاء بالسلامة، وأهل الجنة فى غنى عن ذلك لأنها دار السلام، فكان ظاهره من باب اللغو، لولا ما فيه من الإكرام.

---

(١) حاشية الجمل : ٣/ ٧١.

(٢) ينظر: الانتصاف بحاشية الكشاف : ٤/ ٣٤، حاشية الشهاب: ٦/ ٢٩١ – ٢٩٢.

(٣) تفسير البيضاوى : ٦/ ٢٩١.

وقد ردَّه ابن المنير٦٨٣هـ بقوله: (وفى هذا الباب بُعدٌ؛ لأنه يقتضى البَتَّ بأن الجنة يُسمَع فيها لغوٌ وفضولٌ، وحاش لله، فلا غول فيها ولا لغو)[١].

هذه هى الأوجه التى أوردها الزمخشرى ٥٣٨هـ (رحمه الله) فى الآية، والناظر فيها يجد أنها تعددت بناءً على تعدد المقصود بالسلام فى الآية، فكان هذا هو الموجه الرئيسى لاختلاف هذه الوجوه، وليس اتصالَ أو انقطاعَ الاستثناء، ناهيك عن خلوها من أسرار بلاغية ذات قيمة عالية.

وقد دار حديث المفسرين[٢] بعد ذلك حول هذه الأوجه التى ذكرها الزمخشرى التى لا تتعدى حدود التقديرات، فلم يتعدوها إلى تسجيل أسرار بلاغية لهذا التعبير القرآنى المعجز. ويعجز العلامة البقاعى ٨٨٥هـ هو الآخر عن إيراد سر بلاغى خاص لهذه الآية؛ فيقرر أنه من باب قول الشاعر: ولا عيب ....، ثم يلجأ إلى التقدير والتحول عن اللفظ القرآنى، فيقول: (ويحسن أن يراد باللغو مطلق الكلام، قال فى القاموس: لغا لغواً : تكلم. أى لا يسمعون فيها كلاماً إلا كلاماً يدل على السلامة)[٣] وأين هذا من تعبير القرآن الباعث على النظر والتفكر؟!

(١) الانتصاف : ٤/ ٣٤.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز : ٤/ ٣٤، الجامع : ٦/ ٤١٦٥، البيضاوى : ٦/ ٢٩١-٢٩٢، البحر المحيط: ٧/ ٢٧٩، نظم الدرر: ٤/ ٥٤٧، الدر المصون:٤/ ٥١٤، حاشية زادة: ٣/ ٢٩٣، أبو السعود: ٤/ ٢٤٩، حاشية الجمل: ٣/ ٧١، روح المعانى: ١٦/ ١١٢، التحرير والتنوير: ١٦/ ١٣٧-١٣٨.

(٣) نظم الدرر: ٤/ ٥٤٧.

رؤيـة بلاغيـة جديدة فى هذا الاستثنـاء :

مضى أنَّ قوله تعـالى: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـمًا ﴾(مـريم: ٦٢)، كـان شـاهداً لكثير من النحاة على أسلوب الاستثناء المنقطع، كما كان شـاهداً بلاغيـاً للخطيـب ٧٩٤هـ فى الإيضاح، ومن ثم عُنى به بعضُ الشراح كالسعد ٧٩١هـ والعصام ٩٤٣هـ، وعلى الرغم مـن ذلك لم نقف على رؤية بلاغيةٍ خاصة لهذا الاستثناء، تكـشفُ مـا وراءه مِـنْ أسرار ودلالات، فلا يخرج القارئ لهذه المصادر – ومِنْ بعدها كتب التفسير – بغرضٍ وفائدةٍ خاصة للاستثناء المنقطع فى الآية، وما هو إلا التأكيدُ الذى يتردد فى أغراض كثيرٍ من الأساليب، ولكـن لِمَ كـان التأكيدُ بهذا الأسلوب؟ ولِمَ كان هذا الجمعُ – المحركُ للفكرِ – بين اللغو والسلام؟ ولِمَ خُـصَّ هذا المقامُ – ومقاماتٌ أخرى – بوصف الجنة وأهلها بهذا الوصف؟

هذه أدنى أسئلة ترِدُ على الخاطر حين يُتدبَّر هذا الاستثناءُ، ولـن تجـد لهـا إجابـة فى كتـب النحـاة والبلاغيـين والمفـسرين، ولا فى مـصادر المتـشابه القرآنـى كـدرة التنزيـل للإسـكافى ٤٢٠هـ، والبرهـان للكرمـانى ٥٠٠ هـ، ومـلاك التأويـل للغرنـاطى ٧٠٨هـ، وبـصائر ذوى التمييز للفيروزابادى ٨١٧هـ.

ومن ثم أقرر أنَّ البلاغة القرآنية تنتظر جهوداً عظيمة، بمناهج جديـدة، وأفكـارٍ محدثـة، بعيدةٍ عن النمطيـة والاكتفـاءِ بـما قالـه الـسابقون، عـلى أن يكـون منطلـق هـذه المنـاهج وتلـك الأفكار من القرآن الكريم : ألفاظاً وتراكيب وسياقات وأغراضاً وأهدافاً ...

تتوغلُ تلك المناهجُ إلى صميم الغرضِ القرآنىِّ وإلى قلـب سياقاته الخفيـة التـى تتـوارى ولا تتكشف إلا لمن نظر وتدبر وأطال ذلـك، أمَّـا أنْ يُقَـالَ فى بدايـة بعـض كتـب التفـسير: إنَّ مقاصدَ هذه السورة كذا وكذا من مثل: التوحيد، وبيان جزاء المتقين، وبيان عقاب المجرمين، وصفات الجنة، وصفات النار ... إلى غير ذلـك مِـن المقاصـد البـارزة – رغـم صـحتها – فـإن

علينا فى سبيل كشف أسرار جديدة فى القرآن أن نرى مقاصدَ جزئيةً جديدة، نستطيع من خلالها تجلية معانٍ خفيةٍ فى كتابِ الله تعالى، وهذا منهجٌ أولُ شروطه الإخلاصُ والصبرُ، أسأل الله – تعالى – أن يُجملنى بهما، وأنْ يُودعَهما قلوبَ أهلِ العلم عامةً وأهلِ البلاغةِ خاصة.

تسجيل بعض نتائج النظر :

لا أريد الإطالة هنا فى تسجيل كل ما نظرته وتدبرته فى سياق هذه الآية وما هو بسبب منها بالتفصيل؛ لأنَّ المقام لا يتحمل ذلك، وأكتفى ببعض الإشارات التى أظنها تهدى إلى الوصول إلى سر الاستثناء المنقطع فى الآية، وهى إشارات تتصل بألفاظ الآية فى السورة وفى القرآن كله، ثم بالسياق وما يشابهه فى سور أخرى ..

أولاً : متشابه الألفاظ :

١. ورد هذا المعنى فى وصف الجنة وأهلها بأسلوب الاستثناء المنقطع فى موضعين فقط من القرآن الكريم، هما: مريم: ٦٢، الواقعة: ٢٦، والسورتان مكيتان، وفى الموضعين استثناء للسلام من اللغو.

٢. ورد وَصْفُ الجنة بانتفاء اللغو عنها – دون ذِكْرِ السلام – فى ثلاثة مواضع، هى:

- قوله تعالى: ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴾ (الطور : ٢٣)
- قوله تعالى: ﴿ لا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴾ (النبأ : ٣٥)
- قوله تعالى: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ﴾ (الغاشية : ١٠-١١)

وجميعها سور مكية.

٣. وُصِفَ المؤمنون باجتنابهم اللغو والإعراض عنه فى ثلاثة مواضع، هى:

- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾ (المؤمنون : ٣)
- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ (الفرقان : ٧٢)
- قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ (القصص : ٥٥)

والأول والثانى مكيان، والثالث مدنى ولكنْ له صلة كبيرة بالفترة المكية؛ فإنَّ السياق فى سورة القصص يبدأ من قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (القصص : ٤٤)، وكان قبل ذلك ذكر لقصص وأخبار موسى (عليه السلام): مع أمه، ومع فرعون، ومع شعيب، ومع قومه، ثم قال الله – تعالى – فى نهاية قصته: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص : ٤٣)، وقال العلامة أبو السعود ٩٨١هـ فى هذه الآية: (والتعرضُ لبيان كون إيتائها بعد إهلاكهم للإشعار بمساس الحاجة الداعية إليه، تمهيداً لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله (ﷺ) فإنَّ إهلاك القرون الأولى من موجبات اندراس معالم الشرائع، وانطماسِ آثارها وأحكامها المؤديين إلى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الأمم، المستدعيين للتشريع الجديد ...)[1].

فلما قررت الآياتُ ذلك شرعت (فى بيان أنَّ إنزالِ القرآن الكريم أيضاً واقعٌ فى زمان شدة مساس الحاجة إليه واقتضاء الحكمة له البتة، وقد صدر بتحقيق كونه وحياً صادقاً من

(١) إرشاد العقل السليم: ٥/ ١٢٥.

عند الله (ﷻ) ببيان أنَّ الوقوف على ما فُصِّل من الأحوال لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلُّم ممن شاهدها، وحيث انتفى كلاهما تبيَّن أنه بوحيٍ من علام الغيوب لا محالة)[1].

فالقرآن ينفى عن النبى (ﷺ) ذاته معرفة أخبار سيدنا موسى، كما نفى ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٤٤)، مِن علمه بقصص مريم، فلا علم للناس جميعاً بذلك إلا من قِبَل الوحى، ومن ثم فكلُّ قولٍ فيه – بدون وحى – لغو لا طائل منه، ولا صدقَ فيه.

وأعود إلى سياق سورة القصص المدنية، فيُورد اقتراحَ أهل مكة وتعنتَهم حين طلبوا من النبى (ﷺ) أن يأتيهم بكتاب جملة واحدة: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾ (القصص : ٤٨)، فاجتمع فيه كفران: كفرٌ بموسى وكفرٌ بمحمد (ﷺ)، ثم قرر القرآن أنهم يتبعون أهواءهم الزائغة، لا يطلبون حقاً ولا يرجون هدى؛ لأن القرآن نزل عليهم بعضه إثر بعض وما تذكروا، فليسوا كالفريق الذى آمن من أهل الكتاب بموسى والتوراة وبمحمد والقرآن، فأتاهم الله أجرهم مرتين بثباتهم على الإيمانين، وكان من صفاتهم التى هدتهم إلى هذا الإيمان الراسخ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (القصص : ٥٥)، فكان بُعْدُهم عن اللغو وعدمُ انسياقهم للأقاويل الباطلة الزائفة وراءَ تحصيلهم لهذه المنزلة العظيمة.

---

(١) السابق: ٥/ ١٢٦.

ويمضى السياقُ فى ذكر أنواعٍ أخرى من التعنت لأهل مكة، ولا أود الإطالة أكثر من ذلك، لكن سيأتى عود إلى ذلك فى السياق.

٤. لم يَرد فى المدنىِّ من القرآن حديثٌ عن اللغو إلا فى ثلاثة مواضع، منها موضع سورة القصص السابق، أما الموضعان الآخران فذِكْرُ اللغو فيهما مغايرٌ لما ذكر فى المكى المطلق، لأنه هنا مقيدٌ بأحكام اليمين، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ (البقرة : ٢٢٥، المائدة : ٨٩).

٥. ورد إثبات السلام لأهل الجنة بغير استثنائه من اللغو، فى أربعة عشر موضعاً[١]، كلها مكىٌّ إلا ما فى الرعد : ٢٤ والأحزاب: ٤٤.

كما أن لفظ (السلام) عموماً ورد فى المكى ستاً وثلاثين مرة، ولم يرد فى المدنى إلا خمس مرات[٢]، والأمر فى ذلك يحتاج إلى نظرٍ وتتبعٍ قريبٍ مما ذكرته فى (اللغو) فى سورة القصص، وتفصيلُ ذلك تعوزه دراسة خاصة.

٦. جاء وَصْفُ المؤمنين بالوصفين معاً : اجتناب اللغو واتباع السلام، فى موضعين، هما:

• قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾، ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ (الفرقان : ٦٣، ٧٢)

---

(١) الأنعام: ١٢٧، الأعراف : ٤٦، يونس: ١٠، الرعد : ٢٤، إبراهيم: ٢٣، الحجر: ٤٦، النحل : ٣٢، الفرقان: ٧٥، الأحزاب : ٤٤، يس : ٥٨، الزمر : ٧٣، ق : ٣٤، الواقعة : ٩١.

(٢) يراجع: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٤٥٢ -٤٥٣.

• قولـــه تعـــالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ (القصص : ٥٥).

والأول مكى، والثانى مدنى.

ثانياً : معان متشابهة فى السياقات :

سبق تدوين بعض نتائج النظر فيما تشابه من القرآن مع آية سورة مريم فى الألفاظ على سبيل الإيجاز، وسوف أوجز فى السطور التالية أيضاً بعض هذه النتائج فيما يخص سياقات بعض تلك السور، للوصول فى النهاية إلى سر وفائدة قطع الاستثناء، وللتنبيه – وهو الهدف البعيد – إلى دراسة هذه السياقات فى ضوء هاتين اللفظتين: اللغو، السلام، وهاهى المعانى المتشابهة:

١. سياق سورة مريم:

بدأت سورة مريم بذكر قصة زكريا ويحيى (عليهما السلام) وغرابة إنجابه بعد شيخوخته وعقر امرأته، ثم ختمت هذه القصة بالسلام على يحيى، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب فكانت قصة مريم وتكلُّم عيسى فى المهد، ثم ختمت أيضاً بالسلام على عيسى (عليه السلام)، ثم ذكر إبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس (عليهم السلام)، وقرر أن هؤلاء هم المنعم عليهم هم وذرياتهم الذين هداهم الله واجتباهم، ثم خلف من بعدهم خلف سوء أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فكان جزاؤهم الغى والضلال، فلا يزالون فى بُعد عن الإيمان والهدى بما زُيِّن لهم، ثم استثنى اللهُ مَنْ آمن وعمل صالحاً فكان جزاؤه الجنة التى مِنْ صفاتها ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴾.

ثم ذكر فى هذه السورة ما يربطها بسبب نزول سورة الكهف[1]، فقال: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (مريم: ٦٤)، وسؤال قريش للنبى (ﷺ) عن قصص وأخبار عجيبة وقعت منذ أزمان بعيدة، أخبرهم بها اليهود، فسألوه عن أهل الكهف، وذى القرنين، والروح، فاستمسك الوحىُ زمناً ففرحت بذلك قريش، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ تنبيهاً على قصة قريش واليهود وأنَّ أصل تلك القصة إنما حدثت من أولئك الخلف الذى أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات[2].

فأعلم اللهُ – تعالى – الناسَ هنا بتمام قدرته وشمول علمه، وأنهم إنْ سألوا عما سألوا عنه، فإنَّ فى علم الله ما هو أبعد وأغرب منه، ولن يعلموه ويقفوا على حقيقته إلا بوحيٍ منه وبلاغٍ من رسوله، أما اتباعُ الشهوات وتقوُّلُ الأقاويل والتعنتُ واللغوُ فممّا لا يهدى إلى الحق.

---

(١) سبب نزول الكهف أن قريشاً بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهما: سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألاهم فقالت: سلوه فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنه كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان بناؤه، وسلوه عن الروح، فأقبل النضر وعقبة إلى مكة فسألوه، فقال: غداً أخبركم ولم يقل إن شاء الله، فاستمسك الوحى خمسة عشر يوماً، فأرجف كفار قريش، وقالوا: إن محمداً قد تركه رئيه الذى كان يأتيه من الجن، فشق ذلك عليه، فلما انقضى الأمد جاءه الوحى بجواب الأسئلة وغيرها . ينظر: ابن كثير: ٣/ ٧١-٧٢، البحر المحيط: ٧/ ١٣٤-١٣٥ وفى ارتباط آية سورة مريم بهذا السبب ينظر: البحر المحيط: ٧/ ٢٨١، نظم الدرر: ٤/ ٥٤٨، إرشاد العقل السليم: ٤/ ٢٤٩ وغيرها.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ٧/ ٢٨١.

ثم مضت السورة فى سرد أقاويل أخرى من اللغو من أهل الشرك، وذُكر السلام فى السورة أربع مرات.

٢. سياق سورة القصص:

سبق أنَّ سورة القصص هى السورةُ المدنية الوحيدة التى ذُكر فيها وَصْفُ المؤمنين بأنهم يَعرضون عن سماع اللغو، ويقابلون مخاطبةَ الجاهلين بالسلام، وتَبيَّن أنهم مؤمنو أهلِ الكتاب الذين آمنوا إيمانين، وكان من قصص ومعانى سورة القصص تلك الأخبار العجيبة عن سيدنا موسى والتى لم يعلمها النبى (ﷺ) إلا من الوحى، كما ذكرت السورة بعضَ تعنُّتٍ لأهل مكة يدخل فى اللغو: ﴿ قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ ﴾، ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ... ﴾ (القصص : ٤٨، ٥٧).

ثم يظهر فى السياق قوله تعالى: ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (القصص : ٥٨)، كما برز فى سورة مريم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾، ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ (مريم : ٤٠، ٦٣).

وبذلك يتداخل الحديثُ عن أهل مكة مع الثناء على هذا الفريق من أهل الكتاب، تنبيهاً على أنَّ اجتنابَ اللغو يهدى إلى الإيمان، واتباعَه يؤدى إلى الضلال، وهذه طريقةٌ من طرائق القرآن حين يُحيل فى الفترة المدنية على ما نزل وتقرر فى الفترة المكية؛ لأنَّ اللغو لم يرد فى المدنى بالمعنى الذى يصدُّ عن الهدى إلا فى القصص، وتركَّز فى القرآن المكى، فأحال القرآنُ اليهودَ فى المدينة إلى ما تقرر فى مكة مع من يشبهونهم فى الكفر من المشركين، لافتاً لهم إلى أنَّ اتباعهم اللغوَ كان سببَ تعنتهم وكفرهم وصَدِّهم عن سبيل الله، أمَّا إنْ نأوا عن ذلك فسوف يكون مصيرهم وجزاؤهم مثل ما ثبت لمن آمن منهم فأُوتوا أجرهم مرتين.

وكان من اللغو الذى صَدَّ عن الإيمان بموسى ما قررته السورة: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (القصص : ٣٦)، فاتهموه بالسحر، وهو لغو لأنهم كانوا أعلم الناس بحقائق السحر، ومثلُ هذا اللغو صدر من أهل مكة وسجلته السورة أيضاً: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴾(القصص : ٤٨).

إذاً فالافتراءات واحدة، واللغو واحد، واجتنابه يؤدى إلى الإيمان، واتباعُه يُفضى إلى الكفر.

٣. سياق سورة الفرقان:

سورة الفرقان هى السورة المكية الوحيدة التى وُصف فيها المؤمنون بأنهم يتسمون بالسلام، ويجتنبون اللغوَ وساقطَ القول وفضولَه، وبالنظر فى معانيها وسياقاتها نرى تشابهاً بينها وبين سورتى مريم والقصص، فتبدأ بتنزيه الله عن اتخاذ الولد والشريك، ثم تورد بعض افتراءات المشركين ولغوَهم الذى لا حجة له، مثل ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الفرقان : ٤-٥)، ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ (الفرقان : ٧-٨). انظر إلى هذا التواطؤ على اللغو فى السور الثلاث: اتخاذ الولد، الشريك، التعنت فى نزول كتاب، اللغو

بالسحر، ثم تابع لَغْوَهُمْ هنا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ (الفرقان : ٢١)، ثم انظر إلى عاقبة اتباع اللغو: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ (الفرقان : ٢٧-٢٩)، ثم انظر هذا اللغوَ المماثلَ لما فى القصص: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (الفرقان : ٣٢)، ثم يذكر حالَ فريقٍ من المكذبين من الأمم الماضية، ثم يعود إلى لَغْوِهم: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ (الفرقان : ٤١-٤٢)، ثم تقرر الآيات أنَّ كلَّ ذلك صادرٌ عن هوى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ (الفرقان : ٤٣)، فهم عُبَّادُ أهوائهم، وهم سائرون على منهجهم الذى وضعوه لمحاربة الدعوة منذ الجهر بها: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت : ٢٦)، ثم خُتمت السورة بفريق المؤمنين، عباد الرحمن، المخالفين لكل ما عليه الشركُ وأهلُه، فكان أول وصف هُدوا به إلى الطريق: التواضع وقول السلام وهما بسبيل واحد، وكان أول وصف لهم بعد الاستثناء هو عدم قول الزور ومرورهم باللغو كراماً، وهما بسبيل واحد أيضاً[1] فتبيَّن بذلك أنَّ هذا هو أول السبيلُ إلى الهدى، ولذلك كان الوصف الوحيد الذى وصفت به الغرفة التى

(١) مما يحتاج إلى نظر خاص هو ذكر السلام قبل اللغو فى الفرقان، وذكر اللغو قبل السلام فى القصص.

استحقوها أنهم: ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴾ (الفرقان : ٧٥)، فسبحان من هذا دينُه وكلامُه.

تلك أهم السياقات التى ترشدنا إلى فهم بلاغة الاستثناء المنقطع فى سورة مريم، ولن أستطرد فى شرح سياقات سور أخرى؛ لأن المقام هنا لا يتحمل ذلك، وأخلص الآن إلى:

دلالة الاستثناء المنقطع:

مما سبق تفصيله يتضح بروز اللغو والافتراءات الكاذبة فى سياقات تلك السور، مما جعل هذا العنصر محوراً أصيلاً ونواة تدور حولها المعانى فى تلك السور، ثم رأينا كيف ربط هذا العنصر بين سياقات كثيرة فى السور الثلاثة، كما أنه ربط بين سور أخرى مثل سورة الكهف، فثمة صلة قوية بينها وبين سورة مريم من ناحية لغو قريش وتعنتهم فى سؤالهم للنبى (ﷺ)، فبيَّن اللهُ لهم أنَّ فى علمه ما هو أغرب وأقدم وأعجب مما سألوه، وسلَّى نبيه الكريم بأنهم لا يصدرون فى سؤالهم إلا عن لغو وتعنت لا يُرْجَى معه هداية، ثم ظهر ارتباط ذلك بالدعوة فى المدينة وتنزل القرآن بها، وأنَّ سُبُلَ الصد والبعد عن الحق تبدأ باللغو والإرجاف والتزوير، ولذلك وُصف المؤمنون الذين بلغوا مراتب عليا فى الإيمان بالوصفين: اجتناب اللغو والتحلى بالسلام، فى موضعين: موضع فى القرآن المكى، وآخر فى المدنى، إرشاداً إلى أن هذا هو السبيل، وأؤكد على أن ذلك كان وصفاً لمن بلغوا مرتبة عليا فى التصديق، وليسوا مطلق مؤمنين؛ لأن الوصف فى المكى كان لعباد الرحمن، وكان فى المدنى لقوم آمنوا إيمانين: بكتابين وبرسولين، فآتاهم الله أجرهم مرتين.

ولَّما كثر الحديث عن اللغو وذكره صراحة فى المكى، أحال عليه القرآن فى المدنى[1]، فكانت تلك الإشارة واللمحة فى سورة القصص بتداخل سياق أهل مكة والحديث عنهم فى سياق اليهود، وهذا منهج قرآنى أرى أنه لم يكشف عنه بعد.

(١) ينظر أمثلة لذلك فى: البدل المفرد فى القرآن الكريم، د/ وليد حمودة: ١١٨-١٢١.

وإذا كنت أقرر أنَّ اجتناب اللغو هو السبيلُ الأول إلى معرفة الحق والاهتداء به والدخول فى الإيمان، فإننى أعنى كلَّ عناصر اللغو وأساليبه وأهدافه، فللّغو موضوعٌ ومعنى، ولاغٍ فاعلٌ له ناطقٌ به، ومتلقٍ له إما أن يُعمل عقله فى هذا اللغو فيفضح قائله ومروجه؛ فلا يتبع معناه، وإما أن يتبع هواه حين يرى فيه شهوته ولذته فيضل ويغوى، ولعل فى ذلك توجيهاً لوصف خلف السوء فى السياق الذى نحن بصدده من سورة مريم، بقوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ (مريم : ٥٩).

ولذلك جاءت أحاديث النبى (ﷺ) كثيرة فى بيان مخاطر اللسان والكلام واللغو.

إذا كان هذا هو شأن الدنيا وما فيها من تكليف مبدؤه الإيمان الذى سبيله اجتناب اللغو؛ فإن قوله تعالى: ﴿ لا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ وارد فى وصف الجنة التى يسكنها هؤلاء الذين أعرضوا عن كل هذا اللغو، فصح إيمانهم وعلت منزلتهم، والبديع أنه الوصف الأول الذى وصفت به تلك الجنة، ومعه وصف آخر فقط يقرر رزقهم الدائم، كما كان الوصف البارز لهم فى الدنيا ومبعث إيمانهم وسبيل هدايتهم فيها، إذا كان هذا هو شأن دنياهم ووصف جناتهم فثمة أمر آخر – تتضح به بلاغة هذا الاستثناء – وهو أن الجزاء فى القرآن دائماً من جنس العمل[1]، وقد تظهر هذه الجنسية غاية الظهور فى الألفاظ والمعانى، وقد تخفى وتدق كما هنا فتحتاج إلى طول تأمل ونظر، ومما يدل على تحقق هذه القاعدة هنا قوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ (مريم : ٦٠)، فهم لا يبخسون عملاً عملوه، وأعظمه ما اتخذوه سبباً للإيمان، وطريقاً إلى كل طاعة، من اجتناب

(١) تراجع شواهد ذلك وأساليبه فى : البدل المفرد فى القرآن الكريم : ٦٢٨ – ٦٢٩.

اللغو واتباع السلام، فجزاهم أجرهم بأحسن ما عملوا، فكان جزاؤهم من جنس عملهم: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ﴾.

هذا هو سبب وصف الجنة هنا بهذا الوصف الذى دارت حوله كثيراً من المعانى.

فهم أناس عاشوا حياتهم على ذلك المنهج القويم، الذى هداهم الله به إلى كل خير، فسعدت به دنياهم ثم سعدوا به فى أخراهم، فتحقق لهم فى الجنة ما لا يهنأون إلا به، على غرار قوله تعالى: ﴿ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ﴾(البقرة : ٢٥)، لأن النفس تطمئن إلى ما تألفه، وتنفر مما لا تألفه، فأراهم الله ثمرة غرسهم، ونتيجة صبرهم وثباتهم، فأدخلهم جنة لا لغو فيها، ويسمعون فيها السلام من كل جانب من الله تعالى، ومن الملائكة، ومن بعضهم البعض.

هذا هو سرُّ وصف الجنة بهذا الوصف بالذات فى هذا المقام، كما أن فيه سر الجمع بين اللغو والسلام.

أما عن سر الجمع بين اللغو والسلام بأسلوب الاستثناء المنقطع، فهو متصل بما مر، ولذلك يضعف فيه عندى ما قرره البلاغيون والمفسرون من القول بأن فائدته التأكيد على عدم سماعهم اللغو، بذلك الطريق البرهانى الذى سبق شرحه، بل إنى أرى أن الاستثناء المنقطع هنا يشير إلى مشقة التحلى بهذين الوصفين[1]؛ فلا يتحلى بهما إلا من يسره الله له وهداه إليه، ثم جاهد نفسه وصبر، لما يرد على الطريق من شبهات وشهوات، تتجلى هذه

(١) مما يرشد إلى هذه المشقة ما فى قوله تعالى: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ الرعد: ٢٤، فقد جعل السلام تحيتهم وجزاءهم بسبب صبرهم مع أنه قد تقدم ذكر أعمال كثيرة لهم: الوفاء بالعهد، الوصل، الخشية، خوف الحساب، الصبر، إقامة الصلاة، الإنفاق، درء السيئة بالحسنة، فأجمل كل ذلك فى الصبر، وربما كان أعظم ما فى درء السيئة بالحسنة، وهو مماثل لما هنا.

المشقة من استثناء السلام من اللغو، وهو ليس من جنسه، وعلى الرغم من ذلك أُبرز فى صورة المتصل، فصورة الاتصال تدل على أنهم حازوا السبق والدرجة العليا بالجمع بين الأمرين وإن كان ظاهرهما التناقض، فيقابلون اللغو وأهلَه الجاهلين بالاجتناب والسلام، وحقيقة الانقطاع تدل على بُعد ما بين اللغو والسلام؛ لأنَّ عاقبة كل منهما مغايرة للأخرى، واستثناء الثانى من الأول فيه تذكير لهم بأنهم استحقوا هذه المنزلة بسبب ما عانوه من مشقة الجمع بين الصفتين، هذا على استحضار وصف الدنيا.

وقد يقال – على استحضار وصف الدنيا أيضاً – أنَّ فى إثبات سماع السلام لهم بعد نفى سماع اللغو تحليةً بعد التخلية؛ فاللغوُ الذى عانوا من أهله أشد العناء فى الدنيا – حيث أرادوا إفساد عقيدتهم، بما يبثوه من أقاويل زائفة، وادعاءات باطلة، ولغو لا حجة له؛ فأعرضوا عنهم فى هدوء وسكينة تطلَّب منهم جهاداً طويلاً وصبراً عظيماً، سيما إذا تكرر اللغو وتعددت أساليبه، فلما ذاقوا فى الدنيا مرارة اجتناب ذلك، كافأهم الله فى الجنة بالراحة من سماع أى نوع من اللغو، فكان ذلك تخلية.

ثم كانت التحليةُ فى إثبات سماع السلام الذى كان شعاراً لهم، ومنهاجاً فى حياتهم، ونبراساً لصدق إيمانهم، وحُسن أخلاقهم، ذلك السلام الذى ألقاه الله – تعالى – على يحيى وعيسى (عليهما السلام) فى تلك السورة، وألقاه إبراهيم (عليه السلام) على أبيه ـ، فشاع السلام قلا السورة، وقد كانوا على ذلك النهج من السلام حتى مع أهل الجهل، فهم يسعدون بذلك السلام الذى ارتضوه – وارتضاه الله لهم – خلقاً رئيساً، هُدوا به إلى الإيمان؛ فاستحقوا به الجنان، ثم وجدوا هذا الخلق الذى يحبونه يملأ عليهم أسماعَهم فى الجنة، فكان ذلك تحلية.

ويكون الجمعُ بين الأمرين على هذا المعنى واستثناءُ السلام من اللغو – وهو ليس من جنسه؛ لما سبق قوله من عُسر الجمع بين الأمرين؛ ولأنهم جمعوا بينهما فى الدنيا، جُمعا لهم فى الآخرة، وهذه الإشارات والإيحاءات لا تتحقق إلا بهذا الاستثناء المنقطع. والله أعلم.

الآية الثانية:

قال تعالى ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾

[الواقعة : ٢٥-٢٦]

المعنى والسياق:

ذُكر فى بداية السورة أهوالُ يوم القيامة التى ستقع لا محالة، ثم خُوطب الناسُ جميعاً بأنهم يومئذ ثلاثةُ أصناف: أصحاب الميمنة، أصحاب المشأمة، السابقون، صنفان منهم فى الجنة، وصنف فى النار، وقد دارت السورة حول تفصيل جزاء هذه الأصناف، حتى اشتملت خاتمتها على هذا التقسيم.

وبدأت السورة بالحديث عن السابقين وبيان أنهم مقربون من الله تعالى، ثم ذكرت جزاءهم الذى أُعدَّ لهم: ﴿ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴾ (الواقعة : الآيات ١٢ - ٢٦).

من صنوف النعيم المادى: السرر، الكؤوس المملوءة من معين جارية لا تنفد، الفاكهة، لحم الطير، الحور العين ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (الواقعة : ٢٤)، ثم أعقب هذا النعيم المادى بنعمة روحية نفسية فقال ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا

سَلَـٰمًا ﴾ (الواقعة: ٢٥-٢٦)، فهم لا يسمعون فى جناتهم كلاماً باطلاً وكل ما لا يعتد به ولا فائدة منه، ولا يُؤثِّم بعضهم بعضاً، وما هو إلا السلام الذى يحيط بهم.

من خصائص النظم فى الآيتين:

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ الجملة مستأنفة مسوقة لوصف الجنات التى يُجزى بها السابقون، وقد ساعد هذا الاستئناف على تسليط الضوء على هذا اللون من النعيم؛ إذ لم يدرج فى عداد ألوان النعيم المادى السابق، وقد جاء ﴿ جَزَآءًۢ ﴾ فى قوله: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وهو مفعول لأجله عقب ذكر النعيم المادى، ولم يُذكَر مثل ذلك عقب هذا النعيم الروحى، وهذا أيضاً مما يساعد على تسليط الضوء على هذا المعنى، ولعل فى ذلك لفتاً إلى صفة هؤلاء السابقين الذين نالوا بها هذه المرتبة العليا؛ لأنَّ الجزاء من جنس العمل، وسيكون هذا مدخلاً لفهم بلاغة الاستثناء المنقطع.

وقد سبق بيان معنى اللغو وأنه ساقط القول وباطله، وما يورد عن غير روية وفكر، وقد نُزِّه السابقون هنا عن سماعه فى جناتهم، كما نُزِّهوا عن سماع التأثيم؛ فلا يُؤَثِّمُ بعضهم بعضاً، ولا يسمعون ما صفته اللوم والإنكار.

﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴾

قوله ﴿ قِيلًا ﴾ مصدر كالقول، وهو مستثنى من اللغو والتأثيم على سبيل الاستثناء المنقطع، وستأتى بلاغته.

وقوله ﴿ سَلَـٰمًا ﴾ منصوب على أحد أربعة أوجه، قال أبو حيان ٧٥٤هـ: (قال الزجاج: هو مصدر نَصَبَهُ ﴿ قِيلًا ﴾ أى يقول بعضهم لبعض: سلاماً سلاماً، وقيل: نُصب بفعل

محذوف وهو معمول قيلاً، أى قيلا: اسلموا سلاماً، وقيل ﴿ سَلَـٰمًا ﴾ بدل من ﴿ قِيلًا ﴾، وقيل: نعت لقيلاً بالمصدر، كأنه قيل: إلا قيلاً سالماً من هذه العيوب)[1].

ولا ريب أنَّ تعدد الأعاريب هنا يتفرع عنه تعددُ المعانى التى تثبت لهذا الصنف مزيداً من ألوان التكريم والتشريف والتعظيم فى هذا اللون المفرد من النعيم وهو السلام.

و﴿ سَلَـٰمًا ﴾ الثانى تكرير للأول للدلالة على شيوع السلام بينهم، فليس للتأكيد، بل لإفادة التعاقب، فهو سلام يتبعه سلام، كما أنَّ فيه إشارة إلى كثرة الْمُسَلِّمين، فهم مُعَظَّمون مُبَجَّلون من الله تعالى، وملائكته، ومن بعضهم البعض[2].

ارتباط بلاغة الاستثناء المنقطع ببيان منزلة السابقين:

سبق فى آية سورة مريم أنَّ نفى اللغو عن أهل الجنة واستثناءَ السلام منه استثناء منقطعاً، ما ورد إلا فى هذين الموضعين من القرآن الكريم، وانتهيت فيما سجلته هناك – بعد النظر فى سياقات بعض السور التى ذكر فيها اللغو والسلام – أنَّ هذا الوصف المركب (اجتناب اللغو والتحلى بالسلام) لا يتحلى به إلا أصحاب المنازل الرفيعة فى الإيمان، كما أنه كان أولَ الطريق إلى هدايتهم وثباتهم على الإيمان، ومن ثم لاحظنا أن السياقات كلها تسعى إلى إبراز هذا الوصف سواء فى الدنيا أو الآخرة، عن طريق أساليب مختلفة، منها:

١. إبرازه فى صورة الاستثناء المنقطع، فاستثناء السلام من اللغو، وهو ليس من جنسه ولا من معينه؛ يُحدث هِزَّةً فى نفوس الناظرين والمتدبرين فى هذا الكتاب الذى أحكمت آياته، كما يُحدث عجباً يستدعى منه الوقوف والتفكر.

---

(١) البحر المحيط: ١٠/ ٨١.

(٢) ينظر: البيضاوى: ٩/ ٧٠، التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٩٧.

٢. خَتْمُ صفات مدح المؤمنين الذين بلغوا المنزلة العليا بذلك الوصف المركب، كما ورد فى نهاية الحديث عن أهل الكتاب الذين آمنوا فآتاهم الله أجرهم مرتين: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ (القصص : ٥٥).

٣. إبرازه فى صفات عباد الرحمن فى آيتين منفصلتين من سورة الفرقان: (٦٣، ٧٢)، فهو أول وصف لهم (السلام) ثم يوصفون بترك اللغو فى نهاية الختام.

٤. إظهار هذا الوصف هنا وشدُّ الأنظار إليه بذِكْرِه مستقلاً قائماً بنفسه عقب ذكر صنوف النعيم المادى فيما سبقته من آيات.

بروز الافتراءات الكاذبة فى سياقات سُوَر هذا الوصف:

وهذا ما سبق شرحه مفصلاً أيضاً فى سورة مريم والفرقان والقصص، وكذلك الأمر هنا؛ فإن الافتراء والكذب واللغو يحيط بالسورة، ففى بدايتها إشارة إلى الرد على من كذب بيوم القيامة: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ (الواقعة : ٢)، وكان اللغو فى إنكار البعث من أصحاب الشمال والرد على ذلك محوراً أساسياً من محاور السورة: ﴿ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (الواقعة : ٤٧)، فتتصدى السورة على مدار ست وعشرين آية للرد على هذا اللغو والافتراء، ثم تنكر عليهم كذبهم: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ (الواقعة : ٨٢)، ثم تنتهى - كما بدئت - بعاقبة المكذبين ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ (الواقعة : ٩٢ – ٩٤)، وتركز السورة على الأمر بالتسبيح، فتذكره مرتين فى هذا السياق: ﴿ فَسَبِّحْ

بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (الواقعة : ٧٤، ٩٦)، وتختم به السورة؛ حثاً على الإكثار من ذكر الله؛ لأنه سبيلُ اجتناب هذا اللغو، ولذلك كان من تعريفات اللغو: أنه الكلام الخالى من ذكر الله.

إرشاد سياقات هذا الوصف إلى بُعْد منزلة أهله:

سبق فى آية سورة مريم إيرادُ سياقاتٍ كثيرة تدل على هذه الصلة، فهذا الوصف لا يكون إلا لمن بلغ مرتبة عليا فى الإيمان، فوصف به فى المكىِّ عبادُ الرحمن، ووُصف به فى المدنى أهل الكتاب الذين آمنوا إيمانين، فآتاهم الله أجرهم مرتين، وهذه الصلة هنا أتمُّ بياناً لظهور أن السابقين[1] فى منزلةٍ لا تقاربها منزلة، يَشهد لهذا دلالاتُ الآيات هنا، وكذلك كلامُ السادة المفسرين، من ذلك ما يأتى:

١. تعريفُ المبتدأ والخبر فى قوله: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ يدل على أنهم هم الذين يستحقون هذا الوصف بالسبق لا غيرهم[2].

٢. الإخبار عنهم بالوصف؛ للدلالة على أنهم قوم عرفت حالُهم وبلغك وصفهم، فوُصفوا بشيء لا يُكتنه كنهه، بحيث لا يفى به التعبير بعبارة غير تلك الصفة، إذ هى أقصى ما يسعه التعبير، فمن شاء الوصول إلى حقيقة خصالهم فليتدبر حالهم، وفى ذلك إشارة إلى أنهم بلغوا غاية الفضل فلا يوجد خبر يدل على علو مرتبتهم أبلغ من (السابقون)[3].

---

(١) قيل: هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم وتوانٍ، وقيل: سبقوا فى حيازة الفضائل، قيل: هم الذين صلوا إلى القبلتين، وقيل: السابقون إلى الصلوات الخمس، وقيل: هم الأنبياء (عليهم السلام)، وقيل: هم أهل عليين .. ينظر: ابن كثير: ٤/ ٢٨٣، أبو السعود: ٦/ ١٨٦ – ١٨٧ وغيرهما.

(٢) ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٤٠٤.

(٣) ينظر: الكشاف : ٦/ ٢٣، التحرير والتنوير : ٢٧/ ٢٨٧.

٣. لم يذكر متعلق (السابقون)، بل أطلق لإفادة العموم، ولقصد جعل هذا الوصف لقباً لهم؛ فهم سابقون فى كل ميدان تتسابق إليه النفوس الزكية، وهذا رد على من قيدهم بوصف معين(١).

٤. فى تأخير ذكرهم بعد أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة – مع أنهم أسبق الأصناف – قصدٌ إلى اقتران ذكرهم بذكر محاسن أحوالهم(٢).

٥. خص التعجيب والتهويل لشأنهم بأسلوب مغاير للتعجيب فى القسمين الآخرين: ﴿ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴾ (الواقعة: ٨-٩)، فقيل فى حقهم: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ (الواقعة: ١٠) فخولف فى أسلوب التعظيم والتهويل لحال المذكورين، وهو أبلغ فى السابقين، يقول ابن المنير٦٨٣هـ: (التعظيم المؤدَّى بقوله: ﴿ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ أبلغ من قرينه، وذلك أنَّ مؤدَّى هذا: أنَّ أمر السابقين وعظمة شأنهم ما لا يكاد يخفى، وإنما تحير فهم السامع فيه مشهور، وأما المذكور فى قوله: ﴿ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴾ فإنه تعظيم على السامع بما ليس عنده منه علم سابق، ألا ترى كيف سبق بسط حال السابقين بقوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ فجمع بين اسم الإشارة المشار به إلى معروف، وبين الإخبار عنه بقوله: ﴿ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ معرفاً بالألف واللام العهدية، وليس مثلُ هذا مذكوراً فى بسط حال أهل اليمين، فإنه مُصَدَّرٌ بقوله: ﴿ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴾)(٣).

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٨٧.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٦/ ١٨٦.

(٣) الانتصاف : ٦/ ٢٢-٢٣، وينظر: حاشية الشهاب: ٩/ ٦٨.

٦. فى قولـه تعـالى: ﴿ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ دلالـة عـلى اصـطفاء الله لهـم بـسبب سـبقهم، فـأرادهم لقربه، أو أنعم عليهم بقربه، ثـم إنـه قُـرْبٌ مطلـق – كـسبقهم المطلـق – فهـم مقربـون فى عموم الزمان والمكان[١].

٧. الاعتراض بقوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ (الواقعة: ١٣ – ١٤) بـين جملـة النعـيم فى قولـه: ﴿ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (الواقعـة : ١٢)، وجملـة: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ (الواقعـة : ١٥)، (يقـصد منـه التنويـه بـصنف الـسابقين، وتفـضيلهم بطريق الكناية عن ذلك بلفظى: ثلة، قليل، المشعرين بأنهم قُـلٌّ مـن كُثْـر، فيـستلزم ذلـك أنهم صنف عزيز نفيس، لما عهد فى العرف من قلة الأشياء النفيسة)[٢].

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ٧/ ٤٠٥، التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٨٨.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٨٩، قيل فى الثلة: إنهم الأمم السالفة من لدن آدم إلى نبينا (ﷺ)، أمـا القليـل من الآخرين فمن هذه الأمة، وقيل: الثلتان جميعاً من هذه الآمـة مـن صـدرها ومـن آخرهـا، قـال ابـن كثير: (ولاشك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم كل أمة بحسبها) ابن كثـير: ٤/ ٢٨٤، وهـذا رأى سـديد، فأوائـل كـل أمـة عانـت مـع نبيهـا فى سـبيل الـدعوة مـا لم يعانـه الآخرون، وباجتماع أوائل الأمم التى سبقت هذه الأمة تكـون الكثـرة لهـا، هـذا وإن كـان الإطـلاق فى السابقين يعكر على كثير مما يقولـه المفسرون، لأن الإطـلاق يثبـت سـبقاً حتـى بعـد زمـن النبـى (ﷺ)، وعليه نفهم ما ورد عن النبى (ﷺ) من قوله: «**الخير فىّ وفى أمتى إلى يوم القيامة**» ومـا ورد أنـه يكـون فى الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، وغـير ذلـك مـن أحاديـث تثبـت دوام الخـير فى الأمـة، ولهذا لا أطمئن إلى تقرير الطاهر بأن السابقين من هذه الأمـة يتمثلـون فى أهـل مكـة الـذين آمنـوا قبـل الهجرة ؛ لأن الـسورة مكيـة، فهـذا تقييـد لا يـساعده ظـاهر عمـوم اللفـظ .. ينظـر: التحريـر والتنـوير: ٢٧/ ٢٩١. وتنظر آراء المفسرين فى: الجامع ٩/ ٦٣٧٠، ابن كثير ٤/ ٢٨٤–٢٨٥ وغيرهما.

أخلص من هذا كله إلى أنَّ صفة اجتناب اللغو واتباع السلام، لا تكون إلا لقوم جاهدوا أنفسهم أعظم الجهاد، فخصوا بالمنازل الرفيعة فى الدنيا والآخرة.

ونأخذ من قوله تعالى: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (الواقعة : ٢٤)، أن تلك الصفة كانت صفة السابقين فى الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم الذين يبادرون إلى فعل الخيرات، كما قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ (آل عمران : ١٣٣)، ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ (الحديد : ٢١)، يقول الحافظ ابن كثير ٧٧٤هـ: (فمن سابق فى هذه الدنيا وسبق إلى فعل الخير كان فى الآخرة من السابقين إلى الكرامة؛ فإن الجزاء من جنس العمل)(١).

وقال العلامة البقاعى ٨٨٥هـ: (ولمَّا أبلغ فى وصف جزائهم بالحسن والصفاء، دل على أن أعمالهم كانت كذلك؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فقال: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾)(٢).

وقد أتى قوله: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ عقب النعيم المادى، وسابقًا على ما هنا من النعيم الروحى، فلم يُعلَّق على عدم سماعهم اللغو فى الجنة بمثل هذا، وكأن فى هذا إشارة إلى أنه إن أمكن إدراك نعيمهم المادى، فلا يمكن أن يدرك كنه نعيمهم الروحى المتمثل فى عدم سماعهم اللغو إلا السلام، وينعكس هذا بالضرورة على تقرير عسر إدراك كُنه هذا الوصف لهم فى الدنيا – والذى بلغوا ونالوا به هذا الجزاء –، ومن ثم يحصل أنهم بلغوا فى ذلك الوصف مبلغاً عظيماً.

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٨٣.

(٢) نظم الدرر: ٧/ ٤٠٨.

سر الاستثناء المنقطع:

يتضح ويتقرر من كل ما سبق أن سر الاستثناء المنقطع هنا مثل ما قيل فى آية سورة مريم، وهو بيان مشقة التحلى بهذين الوصفين، أو ذلك الوصف المركب، ومن هنا ندرك أحقية من وصفوا به بالحكم بسبقهم، وقد سبق تفصيل إبراز أسلوب الاستثناء المنقطع لهذه المشقة، وملخصه: أن استثناء السلام من اللغو – وهو ليس من جنسه – يصور هذا التناقض الذى يعكس تلك المشقة، فصورة الاتصال تدل على أنهم استحقوا السبق للجمع بين النقيضين، وحقيقة الانقطاع تدل على بعد ما بين اللغو والسلام وصعوبة مقابلة اللاغين والجاهلين بالسلام؛ إلا ممن وفقه الله لذلك واصطفاه له.

فاستثناء الثانى من الأول على سبيل الاستثناء المنقطع فيه تذكير لهم بأنهم نالوا هذه المكانة وهذا النعيم بسبب ما عانوه فى الدنيا من مشقات الجمع بينهما.

توجيه المتشابه فى الموضعين:

لم أقف على أحد عُنى بأسرار المتشابه فى هذين الموضعين، ويتمثل المتشابه هنا فى ثلاثة أمور:

الأول: ذِكْرُ قوله: ﴿ تَأْثِيمًا ﴾ فى سورة الواقعة وعطفُه على اللغو، وعدمُ ذكره فى سورة مريم، هذا فى جانب المستثنى منه.

والثانى: تكريرُ قوله: ﴿ سَلَامًا ﴾ فى جانب المستثنى فى سورة الواقعة.

والثالث: جَعْلُ المستثنى ﴿ قِيلًا ﴾ ثم إبدال ﴿ سَلَامًا ﴾ منه فى سورة الواقعة.

وهذا والله مما تفنى فى بيان أسراره الأعمار، ومما أراه فيه:

أن إبدال ﴿ سَلَـٰمًا ﴾ من ﴿ قِيلًا ﴾ ثم تكريره – فى سورة الواقعة – يضاعف من تكثيف دلالة (السلام) فى هذا المقام؛ مما يتناسب مع منزلة (السابقين) الذين هم فى أعلى المراتب، ولذلك لم يُكرَّر مع (أصحاب اليمين) فى نهاية السورة.

ولعل فى ذكر ﴿ تَأْثِيمًا ﴾ فى موضعه مناسبة لما سبق ذكره من صنوف النعيم المادى، فهم يتناولونه فى الجنة بلا تأثيم، بخلاف حال الدنيا الذى ربما حصل فيه ذلك، جراء تحريم الشرع لبعض هذه الصنوف، أو تحليهم بالزهد والورع وغيرهما من الأخلاق الرفيعة التى شرعت لهم طريقاً خاصاً، بلغوا به منزلة خاصة[1]. والله أعلم.

(١) من أدلة هذا الطريق قول أبى بكر الصديق ﷺ : «كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع فى باب من الحرام». وشواهد هذا الباب كثيرة، تُراجع فى: الرسالة القشيرية: ١٨٤ – ١٩٢، ت: هانى الحاج، المكتبة التوفيقية بدون، الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح الحنبلى: ٢٤١ – ٢٥٣. دار أحد. بدون.

٦ – قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

[الشورى : ٢٣]

المعنى والسياق:

ذكرت الآيات – قبل ذلك – أن الساعة قريب قيامها، وأن الناس منها فريقان: متعجلٌ بها لإنكاره لها، ومشفق منها لإيمانه بها وعلمه أنها حق، ثم بينت الآيات أن من الناس من يعمل للآخرة ومنهم من يعمل للدنيا، ولكل جزاؤه، ثم أنكرت عليهم أن يتخذوا شركاء يشرعون لهم ما لم يرد فى شرع الله؛ كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا، ثم جاء قوله تعالى: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (الشورى: ٢٢)، مصوراً كأن القيامة قامت، فترى الظالمين خائفين مما قدمته أيديهم من سيئات، وترى المؤمنين فى روضات الجنات، وهذا هو الفضل الكبير الذى وعدهم به ربهم (ﷻ)، وبشرهم به فى دنياهم، ثم أمر الله – تعالى – نبيه (ﷺ) أن يخبر قومه بأنه لا يسألهم على تبليغ الدعوة أجراً يعود عليه بالنفع، ولكنه يسألهم المودة فى القرابة التى بينه وبينهم؛ فيودوه لقرابته، أو يودوا أهل قرابته، قال ابن كثير ٧٧٤هـ فى معنى هذا السؤال: (وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى وتذرونى أبلغ رسالات ربى، إن لم تنصرونى فلا

تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة)[1]، ثم وعدهم على ذلك بأن الله يضاعف جزاء الحسنات؛ لأنه هو الغفور لمن أذنب، الشكور لمن أطاعه بتوفيقه للثواب والتفضل عليه بالزيادة[2].

من خصائص النظم الكريم:

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر قبل ذلك من ثواب المؤمنين وأنهم فى روضات الجنات، وهو مؤكد لاسم الإشارة فى الآية السابقة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، أى أن ذلك الفضل سيحصل لهم فى الجنة، وهو أيضاً موضع بشرى لهم فى الدنيا[3].

وفى بعد الإشارة – مع قرب المشار إليه – إيذان ببعد منزلته وأنه لا يُبلغ غايتُه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ خبر المبتدأ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وفيه حذف للجار والعائد إلى الموصول، والتقدير: ذلك الثواب الذى يبشر الله به عباده، والتضعيف فى الفعل: ﴿يُبَشِّرُ﴾ يفيد التكثير[4].

وفى إسناد الفعل إلى لفظ الجلالة نوع آخر من التكريم والتعظيم للمبشَّرين، ثم فى إضافة العباد إليه سبحانه تكريم آخر لا يقادر قدره، ورأى البقاعى ٨٨٥هـ فى حذف العائد

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤/ ١١١-١١٢.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم : ٦/ ١٦.

(٣) ينظر: الكشاف: ٥/ ٤٠٣، البيضاوى: ٨/ ٣٤٧، البحر المحيط: ٩/ ٣٣٤، إرشاد العقل السليم: ٦/ ١٥، التحرير والتنوير: ٢٥/ ٨٠.

(٤) ينظر: البحر المحيط: ٩/ ٣٣٤، زادة: ٤/ ٢٧٦.

معنى آخر للتكريم وتشريف المبشَّرين؛ فقرر أن حذفه يُفهِمُ أنَّ الفعل واقع على المبشَّرين، واصل إليهم بغير واسطة إليه، فصار كأنه مذكور وظاهر ومنظور(١).

وقوله:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿ عِبَادَهُ ﴾ فبين أن هذا الوصف ينطبق على من صدق بقلبه وعمل بما يوافق الإيمان، من الطاعات والقربات والحسنات.

﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾

هذا استئناف ابتدائى؛ لأنه ليس فى الكلام السابق ما يتوهم منه أن يكون جواباً عنه(٢). والتعبير بالمضارع المنفى يدل على نفى سؤال الأجر فى الحال وفى الاستقبال، فهو يفيد الدوام، والضمير فى ﴿ عَلَيۡهِ ﴾ يعود على تبليغ الدعوة،أو القرآن، ونكر للتقليل الذى يفيد العدم المفاد من نفى السؤال.

واستثناء المودة من الأجر استثناء منقطع لأن المودة فى القربى ليست من جنس الجزاء، وسيأتى تفصيل ذلك مقترناً بذكر الأقوال فى المخاطبين، وسبب النزول.

﴿ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾

هذا تذييل يحض الناس على دعوة النبى (ﷺ) فى التودد إليه بسبب القرابة والرحم، رجاء هدايتهم.

ويقترف بمعنى يكتسب، وهو مأخوذ من قولهم: رجل قرفة إذا كان محتالاً، وأصله من قَرَفَ الشجرة إذا قشر قِرْفَها، وهو لحاؤها، وقد غلب فى اكتساب السوء وإن لم يكن خاصاً

(١) يراجع: نظم الدرر: ٦/ ٦٢٣.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٥/ ٨١.

به[1].

ونكرت الحسنة للتعميم، ومن ثم تتناول مودة ذوى القربى تناولاً أولياً[2].

والتعبير بنون العظمة فى جواب الشرط ﴿ نَّزِدۡ ﴾ يفيد تعظيم العطاء وصاحبه ومن يصل إليه.

وزيادة الحسنى هى مضاعفة الثواب، وقوله: ﴿ حُسۡنًا ﴾ جناس مع ﴿ حَسَنَةَ ﴾ مراعى فيه أصل الاشتقاق وهو الحُسْنُ[3]، فالجزاء من جنس العمل.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾ تعليل مؤكد بإنَّ، وفيه ترغيب للإقبال على الهدى والطاعة، لجمعه بين اسم الله "الغفور" أى لكل الذنوب وإن عظمت، فلا يصدنَّ أحداً سيئةٌ عملها عن الإقبال على فعل الحسنات، وبين "الشكور" الذى يجزى بالحسنة أضعافها، فهو سبحانه يجازى على الدقيقة من الخير لا يضيع عنده لعامل عمل[4].

بيان الاستثناء المنقطع:

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ ﴾ استثناء منقطع من قوله: ﴿ أَجۡرًا ﴾؛ لأن المودة ليست أجراً.

---

(١) ينظر: المفردات: ٤٠٢، المحرر: ٥/ ٣٤، الجامع: ٨/ ٥٨٤٤، الجمل: ٤/ ٦٢، التحرير والتنوير: ٢٥/ ٨٤.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٦/ ١٦.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٥/ ٨٥.

(٤) ينظر: المحرر: ٥/ ٣٤، نظم الدرر: ٦/ ٦٢٥.

هذا ما عليه جمهور النحاة والمفسرين[١]؛ حتى إن من حكم باتصاله كان يقصد به أنه صار متصلاً بعد التجوز والفرض والتقدير، يقول الزمخشرى ٥٣٨هـ: (يجوز أن يكون استثناءً متصلاً، أى لا أسألكم أجراً إلا هذا، وهو أن تودوا أهل قرابتى، ولم يكن هذا أجراً فى الحقيقة؛ لأن قرابته قرابتهم، فكانت صلتهم لازمة لهم فى المروءة، ويجوز أن يكون منقطعاً، أى: لا أسألكم أجراً قط، ولكننى أسألكم أن تودوا قرابتى الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم)[٢] فقول الزمخشرى: (ولم يكن هذا أجراً فى الحقيقة) دال على أن اعتباره للاستثناء متصلاً قائم على ما بعد التجوز والتقدير، ولذلك نظر كل من زادة ٩٥٠هـ والجمل ١٢٠٤هـ لاتصال الاستثناء هنا بقول النابغة الشهير: ولا عيب فيهم ...، ومعلوم أن الاستثناء فى البيت منقطع[٣].

تأويلات المعنى:

أورد السادة المفسرون عدة أقوال فى سبب نزول أمر النبى (ﷺ) بهذا القول والمخاطبين به، واختلفوا فى مكية ومدنية هذه الآية من السورة، كما تعرضوا لحكم نسخها من عدمه، وهو ما لا يؤثر فيما نحن بسبيله من بلاغة هذا الاستثناء، ولكنى أذكر طرفاً من ذلك فى الحاشية[٤].

---

(١) يراجع: معانى القرآن وإعرابه للزجاج: ٤/ ٣٩٨، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ١/ ٣٥٦، الكشاف: ٥/ ٤٠٤، المحرر: ٥/ ٣٤، الجامع: ٨/ ٥٨٤١، البيضاوى: ٨/ ٣٤٨، البحر المحيط: ٩/ ٣٣٥، نظم الدرر: ٦/ ٦٢٤، زادة: ٤/ ٢٧٦، إرشاد العقل السليم: ٦/ ١٦، الجمل: ٤/ ٦٢، روح المعانى: ٢٥/ ٣١، التحرير والتنوير: ٢٥/ ٨٣.

(٢) الكشاف: ٥/ ٤٠٤.

(٣) ينظر: زادة: ٤/ ٢٧٧، الجمل: ٤/ ٦١.

(٤) قيل فى سبب النزول: أنه اجتمع المشركون فى مجمع لهم فقالوا: أترون محمداً يسأل أجراً على ما يتعاطاه ؟ فنزلت، وقيل: إن الأنصال أتوا رسول الله (ﷺ) بمال جمعوه، وقالوا: يا رسول الله، هدانا الله بك=

وخلاف المفسرين فى سبب النزول وغيره لم يكن سبباً فى اختلاف المعنى؛ لأنهم ذكروا هذا الخلاف بمنأى عن تقدير المعنى، لكن نشأ تعدد المعنى من عناصر أخرى فى الكلام نفسه، تتمثل فى الاختلاف فى معنى (القربى) وكونها بمعنى: القرابة والرحم، أو الأقارب، أو التقرب إلى الله، ثم الاختلاف فى معنى (فى) وكونها للسببية أو الظرفية، وهذا إجمال للمعانى التى ذكروها[1]:

١. لا أسألكم على البلاغ أو القرآن أجراً إلا أن تودونى لقرابتى منكم فتحفظونى وتعاملونى معاملة الود لا معاملة العداوة.
٢. لا أسألكم أجراً إلا أن تودوا أهل قرابتى.
٣. لا أسألكم أجراً إلا أن تودونى لأنى أقربكم من الله تعالى، وأريد هدايتكم.

=وأنت ابن أختنا، وتعروك حقوق ومالك سعة، فاستعن بهذا على ما ينوبك، فنزلت الآية، فرده، وقيل: الخطاب متوجه إلى قريش حين جمعوا له مالاً وأرادوا أن يرشوه عليهم على أن يمسك عن سبّ آلهتهم، فلم يفعل ونزلت، وقيل: الخطاب إما لقريش أو لهم وللأنصار لأنهم أخواله، أو لجميع العرب، وقال قوم: الآية منسوخة، وإنما نزلت بمكة والمشركون يؤذون رسول الله، فنزلت، وأمرهم الله بمودة نبيه، فلما هاجر آوته الأنصار ونصروه، وأراد الله أن يلحقه بإخوانه من الأنبياء حيث قالوا: ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾، فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴾ فنسخت بهذه الآية وبغيرها، وردَّ على ذلك بأنه ليس بالقوى، وكفى قبحاً بقول من يقول: إن التقرب إلى الله بطاعته ومودة نبيه وأهل بيته منسوخ .. يراجع: الكشاف: ٥/ ٤٠٤-٤٠٥، المحرر: ٥/ ٣٣-٣٤، الجامع: ٨/ ٥٨٤١-٥٨٤٢، ابن كثير: ٤/ ١١٢، البحر المحيط: ٩/ ٣٣٤، حاشية الشهاب: ٨/ ٣٤٨.

(١) ينظر: ما سبق ومعه: زادة: ٤/ ٢٧٦ – ٢٧٧، أبو السعود: ٦/ ١٦، الجمل: ٤/ ٦٠-٦١، التحرير والتنوير: ٢٥/ ٨٢.

٤. لا أسألكم أجراً إلا أن تتوددوا إلى الله بالتقرب إليه.

٥. لا أسألكم أجراً إلا أن يتودد بعضكم إلى بعض وتصلوا قراباتكم.

هذه هى كل المعانى التى كشف عنها المفسرون لهذا التركيب القرآنى المعجز، وقد حكم ابن عطية ٥٤٦هـ فى نهاية سرده لهذه الأقوال بأن الصواب أن الآية محكمة، (وعلى كل قول فالاستثناء منقطع)(١).

إذاً فالاستثناء منقطع، وكل معنى من المعانى المذكورة لا يدخل فى جنس الأجر؛ لأنه لا يعود بالنفع المادى على النبى (ﷺ)، ولكن الملاحظ أن كل معنى من هذه المعانى يتصل بالنبى (ﷺ) سواء من ناحية رحمهم وقرابتهم به، أو من ناحية تقربهم إلى الله تعالى؛ لأنهم لن يتقربوا إلى الله حق التقرب إلاباتباعهم النبى (ﷺ).

أقوال المفسرين فى أسرار هذا الاستثناء:

كانت عناية المفسرين هنا موجهة نحو تأويل المعنى الذى تعدد تبعاً لعدة عناصر فى التركيب، فاكتفوا ببيان انقطاعه، وأنه بمعنى لكن، وأنه استثناء ليس من الأول، وشغلوا عن بلاغته بأمور أخرى تتصل بأسباب النزول، والنسخ، والأحاديث الواردة فى حب آل بيت النبى (ﷺ)، ولم يتعرض أحد لبيان بلاغة هذا الاستثناء، إلا الإمام البقاعى ٨٨٥هـ، قال: (وعبر فى المنقطع بأداة الاستثناء إعراقاً فى النفى بالإعلام بأنه لا يَستثنى أجراً أصلاً إلا هذه المودة، إنْ قَدَّر أحدٌ أنها تكون أجراً)(٢).

والبقاعى فى هذا التوجيه لم يتجاوز الاستدلال البرهانى فى باب تأكيد الشيء بما يشبه ضده، وهى طريقة منطقية، فهى كدعوى الشيء ببينة، فلم يتجاوز ذلك الغرض العام إلى إبراز خصوصيات المقام.

---

(١) المحرر الوجيز: ٥/ ٣٤.

(٢) نظم الدرر: ٦/ ٦٢٤.

وعلى الرغم من عدم نص المفسرين على سر بلاغى للاستثناء المنقطع هنا؛ فإنه قد يوقف عندهم على معان تتصل بالسر البلاغى الذى أذكره، وهى نصوص تدعم – بحمد الله – ما أثبته فى بلاغة هذا الأسلوب.

بلاغة الاستثناء المنقطع:

أرى – والله أعلم – أن الانقطاع هنا يؤكد فى البداية على ما قرره العلماء وهو المبالغة فى نفى النبى (ﷺ) سؤال الأجر على تبليغ الدعوة، وهذا شأن جميع الأنبياء قبله، فقد قال تعالى فى شأن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب (عليهم السلام): ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠)، كما قرر ذلك فى شأن نبينا محمد (ﷺ) فقال: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (ص: ٨٦)، ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٩٠)، وغير ذلك آيات كثيرة فى حق نبينا وجميع الأنبياء.

فالانقطاع يصور أن المودة فى القربى – بكل تأويلاتها – ليست أجراً؛ لأن جميع الرسل منزهون عن ذلك، ومن اللافت أن جميع آيات نفى الأجر عن الرسل، وردت فى سور مكية. هذا عن الانقطاع، أما عن صورة الاتصال – وهو الأمر الخطير – فإن مجئ الاستثناء المنقطع هنا على صورة المتصل يشير إلى أن استثناء (المودة) من (الأجر) واعتبارها فى الظاهر من جنسه؛ إلى أن ذلك إن كان أجراً فإن نفعه وحاصله يعود عليهم لا على النبى (ﷺ)؛ لأنهم إذا تودودوا إلى قراباتهم وأحسنوا إلى أرحامهم – والنبى (ﷺ) من رحمهم – فليس بطن من بطونهم إلا وله فيهم نسب أو صهر – فإنهم لا ريب سيتوددون إليه، ويخالطونه، فيسمعون

دعوته، ويتدبرون قرآنه، ويعلمون شرعه ومنهاجه، فيقبلون على الإيمان والهداية، فكان أجره عود النفع عليهم، وهذا ما لا يتحقق بغير الاستثناء المنقطع.

يشهد لذلك قول الله تعالى: ﴿ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ فَهُوَ لَكُمۡ ﴾ (سبأ: ٤٧)، وأبين فى الشهادة لما قررته قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴾ (الفرقان : ٥٧)، فأجره (ﷺ) هو إيمانهم وهدايتهم، ولن يصلوا إلى ذلك إلا باتباع سبيل النبى (ﷺ)، والاستثناء منقطع هنا كذلك، وبلاغته مثل بلاغة هذا الموضع، ولكن السياق له خصائص أخرى.

وقد أثبت الشهاب ١٠٦٩هـ ما يفيد عود النفع عليهم من المودة، ولكن من ناحية أخرى لا تتصل بما قلته، فقال فى بيان قطع الاستثناء: (أو لأنها [يعنى المودة] لازمة لهم لتمدحهم بصلة الرحم، فنفعها عائد عليهم)[١] فقد كان العرب يتفاخرون بصلة الرحم، فحين يطلب منهم النبى (ﷺ) ذلك يكون نفعه عائداً عليهم لتفاخرهم به.

ومما يؤكد مذهبى فى بلاغة هذا الاستثناء قول الطاهر ابن عاشور ١٣٩٣هـ: (وإنما سألهم المودة لأن معاملتهم إياه معاملة المودة معينة على نشر دعوة الإسلام، إذ تلين بتلك المعاملة شكيمتهم، فيتركون مقاومته، فيتمكن من تبليغ دعوة الإسلام على وجه أكمل، فصارت هذه المودة غرضاً دينياً، لا نفع فيه لنفس النبى (ﷺ))[٢] أى: بل كان نفعاً لهم.

(١) حاشية الشهاب : ٨/ ٣٤٨.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٥/ ٨٣.

ارتباط دلالات نهاية الآية بهذا التوجيه:

إذا سبق أن مجئ الاستثناء المنقطع على صورة المتصل فيه إشارة إلى أن النفع والأجر يعود عليهم؛ فإننى أرى ارتباطاً بين دلالة الاقتراف والحسنة الواردين فى قوله: ﴿ وَمَنَ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ وبين هذا التوجيه البلاغى لقطع الاستثناء.

يتمثل ذلك فى أن (الاقتراف فى الإساءة أكثر استعمالاً)[1]، ولم يرد مع الحسنة فى القرآن الكريم إلا فى هذا الموضع، ووردت الحسنة فيه نكرة.

فَجَعْلُ الحسنة معمولةً للاقتراف فيه دلالة على قلة الخير الصادر من القوم وغرابته عليهم، بل وندرته، ولذلك نكرت ﴿ حَسَنَةً ﴾ وعُبِّر بالفعل ﴿ يَقْتَرِفْ ﴾ للدلالة على أن صدور الخير منهم يكون عن تعمُّل وتكلُّف لا يناسب طبيعتهم الغليظة التى اعتادت الشرَّ والمكابرة والحجاج.

وعلى الرغم من صدور الحسنة من مثل هذه النفوس يُجزَى صاحبُها بأضعاف من الإحسان من قِبل الله تعالى.

إذن فالفعل غير معتاد، والجزاء غير معتاد، فيعود ذلك بالتقرير على ما سبق به توجيه الاستثناء المنقطع، فيتقرر اعتبار ﴿ ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أجراً، فيصح استثناؤه منه رغم غرابته، وتكون تلك الحسنة الغريبة على طباعهم – والتى وُعد بمضاعفة الجزاء عليها – متمثلةً فى تلك المودة، وبذلك يتحقق عَوْدُ النفع عليهم، وتتبينُ بلاغة الاستثناء المنقطع، وتتلاحم دلالات الألفاظ والتراكيب فى الآية.

---

(١) المفردات: ٤٠٢.

ومما يسقى هذه الدلالات ويشد عُودَها جعل الفاصلة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ ففيه ترغيب للقوم فى الإقدام على تحصيل ذلك بذكر ما يناسب ما يمانع بينهم وبين هذا الإقدام، وهو ثقلهم بالأوزار والذنوب خاصة فى حق صاحب القربى (النبى (ﷺ) فأكد أن ذلك كله مغفور لهم ومستور عليهم.

ثم أتبعه بالشكور الذى يضاعف الثواب، زيادة فى الترغيب وحثاً على الإقدام، وهو من قبيل التحلية بعد التخلية.

٧ - قال تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٩-٢١]

المعنى والسياق:

نزلت هذه السورة الكريمة فى سيدنا أبى بكر الصديق (رضي الله عنه)، وقد أقسم الله – تعالى – فى بدايتها أن أعمال الناس مختلفة وكذلك جزاؤهم: بين الإيمان والكفر والبر والفجور والطاعة والعصيان، والجنة والنار، فأما من أنفق ماله فى سبيل الله، واتقى الله (عز وجل)، وصدق بثوابه وجزائه، فسوف يهديه الله إلى أسباب الخير والصلاح، وأما من بخل بماله، واستغنى عما عند الله وزهد فيه، أو استغنى بشهوات الدنيا، وكذب بما عند الله، فسوف يهيئه الله لأسباب الشر والهلاك، ولن يمنعه من معاينة ذلك ماله الذى بخل به حين يموت ويتردى فى جهنم، ثم خلصت الآيات إلى الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فبولغ فى صفتيهما المتناقضتين[1]، فقال تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ (الليل : ١٤-١٨)، والأشقى هو أبو جهل أو أمية بن خلف، والأتقى هو أبو بكر وكل من عمل بعمله، فوصفه الله بأنه بعيد عن النار؛ لإنفاقه المال فى سبيل الله، يطلب بذلك أن يكون زاكياً عنده، ولا يطلب رياءً ولا سمعة، فلا يتصدق ليجازَى على نعمة، بل هو مبتدئ ابتغاء وجه الله تعالى، فوعده الله على ذلك بالثواب الذى يرضيه ويقر عينه.

(١) ينظر: الكشاف: ٦/ ٣٨٨ وغيره، والمفسرون مجمعون على نزول الآيات فى أبى بكر (رضي الله عنه)، ويدخل فى الثواب من عمل عمله ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

بلاغة الاستثناء المنقطع:

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ ﴾ استثناء منقطع من قوله: ﴿ نِّعۡمَةٍ ﴾؛ لأن ابتغاء مرضات الله ليس من جنس النعمة التى يجازَى عليها، والمعنى: أنه لايتصدق ليجازى على نعمة، إنما يبتغى وجه ربه الأعلى(١).

وهذا الاستثناء من الضرب الذى لا يمكن اتصاله بما قبله؛ لأن ابتغاء وجه الله تعالى؛ ليس من جنس النعم المكافأة(٢).

ولم يتحدث فى بلاغة الاستثناء المنقطع هنا إلا الإمام البقاعى ٨٨٥هـ، قال:

(وعبر عن المنقطع بأداة المتصل للإشارة إلى أن الابتغاء المذكور كأنه نعمة ممن آتاه المال، لأن الابتغاء – وهو تطلب رضا الله – كان السبب فى ذلك الإيتاء بغاية الترغيب، وقد آل الأمر بهذه العبارة الرشيقة والإشارة الأنيقة – مع ما أومأتْ إليه من الترغيب، وأعطته من التحبيب – إلى أن المعنى: إنه لا نعمى عليك لأحد فى ذلك إلا الله)(٣).

يقرر الإمام البقاعى فى هذا النص أن سر التعبير عن المنقطع بصورة المتصل هو التنبيه إلى أن هذه النية العالية السامية من أبى بكر (ﷺ) فى إنفاق ماله وتزكية نفسه؛ هى نعمة من

---

(١) يراجع: المحرر الوجيز: ٥/ ٤٩٢، الكشاف: ٦/ ٣٨٨، مفاتيح الغيب: ٣١/ ٢٠٦، البيضاوى: ٩/ ٥٠٨، البحر المحيط: ١٠/ ٤٩٤، نظم الدرر: ٨/ ٤٥٠، الدر المصون: ٦/ ٥٣٦، إرشاد العقل السليم: ٦/ ٤٣٧، زادة: ٤/ ٦٦٨، الجمل: ٤/ ٥٤٨، التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٩١، شرح المفصل لابن يعيش: ١/ ٨٠، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ١/ ٣٣٦.

(٢) ينظر: الاستغناء للقرافى: ٣٦١، وقرأ يحيى بن وثاب: "إلا ابتغاءُ" بالرفع على لغة تميم، فيكون على البدل من موضع "نعمة" . ينظر: الكشاف: ٦/ ٣٨٨، البحر المحيط: ١٠/ ٤٩٤.

(٣) نظم الدرر: ٨/ ٤٥٠.

الله الذى أنعم عليه بالمال، فاستحق من الله – تعالى – مجازاة ذلك؛ فأنق الصِّديق المال فى سبيل الله.

وبهذا الفهم يتقرر أيضاً أن ليس لأحد عند الصِّديق نعمة من شأنها أن يجزيه عليها ويكافئه بها؛ فلم يكن لأحد عند أبى بكر نعمة دنيوية – وهذا مفهوم من الإغراق فى النفى – ولا للنبى (ﷺ) بل كان أبو بكر هو الذى ينفق على رسول الله، وإنما كان للنبى (ﷺ) نعمة الهداية والإرشاد إلى الدين، إلا أن هذه نعمة لا تُجْزَى لقوله تعالى: ﴿ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ (الفرقان: ٥٧)، والمذكور هنا ليس مطلق النعمة، بل نعمة تجزى، وبذلك تعين أن الآية نازلة فى أبى بكر، كما قال عامة المفسرين؛ لأن الأمة أجمعت على أن أبا بكر هو أفضل الخلق وأكرمهم وأتقاهم – بعد النبى (ﷺ)-[1].

وأرى أن الانقطاع وعدم دخول المستثنى ﴿ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ فى جنس المستثنى منه ﴿ نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ واعتبار هذه الآية من الضرب الثانى للاستثناء المنقطع الذى لا يمكن فيه تقدير دخول المستثنى فى جنس المستثنى منه؛ أرى أن ذلك يفيد التأكيد على عدم إنعام أحدٍ من الخلق على أبى بكر (رضي الله عنه)، فهناك انقطاع تام بين الصِّدِّيق وبين نعيم الخلق.

أما إتيان الاستثناء على صورة الاتصال، وما يوحيه من اعتبار ابتغاء وجه الله تعالى، من جنس النعمة التى تستحق المجازاة؛ فأفاد منه البقاعى – كما مر – إلى أنه إشارة إلى أنَّ ذلك الابتغاء صار كأنه نعمة ممن آتاه المال؛ لأن الابتغاء كان سبباً فى ذلك الإيتاء.

(١) يراجع: زادة: ٤/ ٦٦٨، الجمل: ٤/ ٥٤٨ وغيرهما.

وهـى إشـارة لطيفـة ودقيقـة، يؤيـدها مـا ورد فى الـسورة مـن قولـه تعـالى: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (الليل: ٧)، وهو الـذى أعطى واتقى وصـدق بالحسنى، يرشـده الله إلى أسـباب الخير والصلاح ويهيئه لها حتى يسهل عليه فعلها، وتكون الطاعة أيسر الأمور عليه، وكـذلك قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (الليـل: ١٢-١٣)، فـالله (ﷻ) هو الذى يبين طريق الهدى وما يـؤدى إليـه، وهـو مَـنْ يملـك التـصرفَ الكـلَّ فى الـدنيا والآخرة، فيعطى من يشاء ويمنع من يشاء، ويثيب من يشاء، ويعاقب من يـشاء، ويوفـق مـن يشاء إلى ذروة المقاصد وأنبل النيات وأعظمها، فأنعم على أبى بكر بهذه النعمة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ (الليـل : ١٧)، فحكـم لـه بأنـه أتقـى الأمـة وأفضلها، ولا ريب ففضائله كثيرة، وسبقه إلى الإسلام والخير والبر مشتهر، فكان ثانى اثنين فى الغار، وكان الخليفة الأول بعد رسول الله (ﷺ)، فبشره الله ببعده عن النار.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ (الليل: ١٨)، فوصفه بجملـة الـصلة والتى تدل على شهرة الموصوف بهذا الوصف، ناهيك عما فى إضافة المال إليه من زيـادة المـدح والثناء والدلالة على عظيم العطاء وعدم شح النفس، ثـم مـا فى إبـدال قولـه: ﴿ يَتَزَكَّىٰ ﴾ مـن: ﴿ يُؤْتِى ﴾ والبدل هـو المقـصود بـالحكم، فيتأكـد أن إيتـاء مالـه منبعـثٌ مـن طلـب زكـاة نفـسه وتطهيرها من علائق الدنيا ودُنوِّ مقاصدها.

وانظر إلى إطلالة تلك المعانى وغيرها على سورة (الشمس) السابقة وما فيها من مثل: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس: ٧-١٠)، وكذلك على سورة (الضحى)، وما فيها من مثل

قوله تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ (الضحى : ٤-٥)، وقوله: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى : ١١)، وكذلك سورة (الأعلى) وهى تسبق فى النزول سورة (الليل) وما فيها من مثل قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى: ١-٣)، وقوله لنبيه ﷺ: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (الأعلى: ٨)، وقوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (الأعلى: ١٤-١٨).

فليتدبر هذا من أراد أن تسموَ غايته وتنبلَ مآربُه، ولو شَرحتُ ذلك لطال بنا المقام، ولكنى أشير إلى ما فى تلك الآيات والسور المتقاربة من معنى: تزكية النفس والسمو بها، وطلب معالى الأمور، فالسورة تسمى (الأعلى) وَوُصِفَ الله فيها بالأعلى، وقيل فى صفة أبى بكر هنا أنه يبتغى وجه ربه الأعلى، ويصب فى هذا المعنى معنى: خيرية الآخرة وبقاؤها وهو ما يقتضى استحضار نيات تناسب هذا المعنى، فلتكن نيات المرء ومقاصده على قدر هذا.

ثم انظر إلى معنى: النعمة على النبى (ﷺ)، وعلى صاحبه أبى بكر، مع فارق ما بينهما والذى تبرزه فوارق الأسلوب.

كل هذا وكثير غيره يتفتق من قطع الاستثناء، الذى أَبرز هذه النعمة التى أنعم الله بها على أبى بكر – وكل من عمل عملَه، فالعبرة بعموم اللفظ، ولكنه يتناول أبا بكر تناولاً أولياً، للإجماع أنَّ الآيات قد نزلت فيه – إنها نعمة ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾.

إذن فَسِرُّ قطع الاستثناء ومجيئُه على صورة المتصل – والذى يراعِى عموم اللفظ – وهو لفت الناس إلى ما ينبغى أن تُبنى عليه أعمالُهم وما يستأهل أن يراعوه ويقصدوه بطاعتهم، سيما إذا لاحظنا أن سورة (الليل) هى السورة الثامنة فى النزول، فكانت من أوائل ما نزل، فأراد الله – تعالى – أن يغرس فى المسلمين هذا الغرس، ويعلمهم هذه النية فى بداية إيمانهم، حتى تصلح أعمالهم، وتثمر ما يُرْجَى منها فى الدنيا والآخرة.

ومما يساعد فى حصول هذا الغرض، إبراز هذه النية ﴿ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ فى صورة الأمر المادى المحسوس؛ لأنه قرن بالنعمة المكافَأة، وتقريب المعنوى بما يُحَسُّ ويُدْرَكُ أليقُ بمقام التعليم، سيما فى مرحلة بداية الدعوة.

وقوله تعالى: ﴿ عِندَهُۥ ﴾ ظرف مكان استعمل فى تمكن المعنى من المضاف إليه عنه كتمكن الكائن فى المكان القريب[1].

وقوله: ﴿ تُجْزَىٰٓ ﴾ وصف للنعمة، وقد قالوا: إنه جاء مضارعاً مبنياً للمفعول، لمراعاة الفواصل، والتقدير: يجزيها إياه، أو يجزيه إياها[2].

وأرى فوق ذلك أن المضارع يفيد نفى جزاء النعمة فى المال وفيما يتجدد من استقبال الزمان، ثم إن فى حذف مفعوليه تسليطاً للضوء على الفعل المنفى بنفى النعمة الموجبة له. وبناؤه للمفعول فيه طىٌّ للنعمة وفاعلها؛ لعدم وجودهما فى الواقع، وعدم وقوعهما على أبى بكر (رضي الله عنه) فما من مُنعم عليه إلا الله، فجاء التعبير مطابقاً لذلك، وأين مراعاة الفواصل من هذا وغيره؟!

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٩١.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ١٠/ ٤٩٤، الجمل: ٤/ ٥٤٨.

وقوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ معناه: سوف يعطيه الله فى الجنة ما يرضاه وتقرُّ به عينه، فيعطيه أضعافَ ما أنفقه فى سبيله، وهو وعدٌ له بنيل ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها، إذ به يتحقق الرضا، وهو وعد أيضاً لكل من اتصف بهذه الصفات(١).

وهو تتميم لقوله: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ (الليل : ١٧)، حيث أفاد نجاته من النار، فتمم هنا بذكر ما أعد له من النعيم، و"سوف" لتحقيق الوعد فى المستقبل، واللامُ جوابُ قسم مضمر أى بالله لسوف يرضى(٢) وهذا غاية التكريم، فقد وُعِدَ أبو بكر بمثل موعود النبى (ﷺ) فى قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ (الضحى : ٥)، مع احتفاظ التغيير الأخير بخصائص مقام النبوة.

(١) ينظر: الجامع للقرطبى : ١٠/ ٧١٧٩، ابن كثير: ٤/ ٥٢١، الجمل: ٤/ ٥٤٨.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠/ ٣٩٢، إرشاد العقل السليم: ٦/ ٣٤٨، الجمل: ٤/ ٥٤٨.

٨- قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩]

٩- ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]

١٠- ﴿ إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [الصافات: ٣٨ - ٤٠]

١١- ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [الصافات: ٧٢ - ٧٤]

١٢- ﴿ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾

[الصافات: ١٥٨ - ١٦٠]

١٣- ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

[الزخرف: ٦٦ - ٦٧]

١٤- ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

[الدخان : ٤٠ – ٤٢]

١٥- ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾

[المدثر: ٣٨ – ٣٩]

١٦- ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

[التين : ٤ – ٦]

وجمعت بين هذه الآيات هنا، ثم يفرق بينها فى التحليل؛ لأن ماءها يكاد يكون واحداً، فهى تثبت مزيد فضل وتكريم وتشريف للمؤمنين، فيُستَثنون مما شاع أنه أصل عام فى قانون الدنيا أو أحكام الآخرة، فيكون للانقطاع أسرار ودلائل، ولمجيئه على صورة الاتصال إيحاءات وإشارات تتوارى فى التركيب ويكشف عنها السياق، وسوف أفصِّل ذلك فى دراسة كل آية على حدة، وأسأل الله – تعالى – العون والسداد.

٨ قال تعالى: ﴿ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ۝٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩]

المعنى والسياق:

وردت هذه الآيات عقب إنكار سيدنا إبراهيم (عليه السلام) عبادة الأصنام على قومه، وبعد أن سفههم ووبخهم، أثنى على الله تعالى بما هو أهله، ثم دعا الله – تعالى – أن يغفر له ويلحقه بالصالحين، وكان من جملة هذا الدعاء، ما ورد هنا من سؤال الله – تعالى – ألا يخزيه يوم يُبْعَثُ العباد، فلا ينفع المال ولا البنون ولا غيرهما، إلا أن يأتى المرء بقلبٍ خالص من الشك والشرك.

بلاغة الاستثناء المنقطع :

قوله تعالى: ﴿ مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ استثناء منقطع من فاعل ﴿ يَنفَعُ ﴾ وهو قوله: ﴿ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴾؛ لأن سلامة القلب ليس من جنس المال والبنين، وهذا على تقدير مضاف – كما قرر الزمخشرى –[1] وهو الحال، أى: إلا حال مَنْ أتى الله بقلب سليم مِن آفات الكفر والمعاصى.

وهذا التقدير يُحْمل فوائد أخرى من الأسلوب، لا تتحصل بجعل الاستثناء متصلاً من مفعول ﴿ يَنفَعُ ﴾ المقدر بـ(أحداً)، ولا تتحصل أيضاً باقتصار التقدير على (لكن)، كأن يقال: لكن من أتى الله بقلب سليم تنفعه سلامة قلبه[2] ، فيكون النظر موجهاً إلى الفعل وهو النفع وعدم النفع فحسب.

---

(١) ينظر: الكشاف : ٤/ ٣٩٩.

(٢) ينظر: الكشاف: ٤/ ٣٩٩، البيضاوى: ٧/ ١٩٣، البحر المحيط: ٨/ ١٦٨، الدر المصون: ٥/ ٢٧٨، نظم الدرر: ٥/ ٣٧١، الجمل: ٣/ ٢٨٤، روح المعانى: ١٩/ ١٠١.

ولست مع هذين التقديرين؛ لأنهما لا يراعيان ظاهر أسلوب الاستثناء، الذى لا تنفك فيه «إلا» عن الإخراج المحقق أو المتوهم، كما قرر القرافى ٦٨٤هـ[١]، وذلك فى جميع صور الاستثناء، وهذا ما يؤيده قول ابن السراج ٣١٦هـ: (واعلم أنَّ «إلا» فى كل موضع على معناها فى الاستثناء، وأنها لابد أن تخرج بعضاً من كل)[٢].

فلابد إذاً من ملاحظة ارتباط بين طرفى الاستثناء، يتأتى من هذا الارتباط معنى خفىٌّ، توارى خلف صورة الاتصال الذى ورد فيه الاستثناء المنقطع، لا أنْ يُلْغَى هذا الارتباط بالكلية، فيقال: إلا من كان ذا قلب سليم فإن سلامة قلبه تنفعه.

والحفاظُ على هذه المعانى الخفية، هو ما جعل الشهاب ١٠٦٩هـ يدافع عن مذهب الزمخشرى ٥٣٨هـ فى جواز جعل الاستثناء منقطعاً فى الآيات، فأورد الاعتراضات، وفندها بقوله: (وقد منع بأنه لو قدر مثلاً: ولكن من أتى الله بقلب سليم يسلم أو ينتفع، يستقيم المعنى أيضاً، وأجاب عنه فى الكشف بأن المراد أنه على تقدير الاستثناء من ﴿ مَالٌ ﴾ لا يتحصل المعنى بدونه، وما ذكره المانع استدراك من مجموع الجملة إلى جملة أخرى، وليس من المبحث فى شيء، ولما لم يكن مناسباً للمقام لم يلتفت إليه، وردَّه بعض شراح الكشاف وتبعه الفاضل المحشى بأنه دعوى بلا دليل، قلت: بل دليله ظاهر؛ لأن المستثنى لابد من دخوله فى المستثنى منه ولو توهماً، ولو لم يقدر لم يكن كذلك، بخلاف الاستدراك الصرف، وهو غير مناسب؛ لأن المراد بيان حال المال والبنين فى النفع وعدمه، لا مطلق النفع، وهو ظاهر فتأمل)[٣].

---

(١) ينظر: الاستغناء: ١٧٨.

(٢) الأصول: ١/ ٢٩١.

(٣) حاشية الشهاب: ٧/ ١٩٤.

فالشهاب يراعى خصوصية أسلوب الاستثناء وعطاءات انقطاعه، تلك الخصوصية التى يلغيها الاستدراك الصرف، بوضع «لكن» موضع «إلا»، ناهيك عن كون الاستدراك يأخذ السياق إلى دلالات أخرى بعيدة عن أصله؛ إذ المراد بيان حال المال والبنين فى النفع وعدمه، لا مطلق النفع الذى يتوزع بين المال وسلامة القلب.

وقد استظهر كثير من العلماء قطع الاستثناء هنا(١)، فذكروه فى مقدمة الوجوه التى أجازوها فى الآية، لكنهم لم يثبتوا سراً بلاغياً لهذا الاستثناء المنقطع، بل شغلوا بتفسير معنى القلب السليم(٢).

وأرى – والله أعلم – أنَّ الانقطاع فى الاستثناء يدل على هذا البون الشاسع بين سلامة القلب من الشرك والنفاق، وبين زينة الحياة الدنيا الممثَّلة فى المال والبنين، فليس الأول من جنس الثانى، وقد تظاهرت النصوص على أنَّ الأصل فى نيل ثواب الله – تعالى – هو الإخلاص وسلامة القلب من الشرك والنفاق، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف : ٤٦)، ومن السنة قول النبى (ﷺ) «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»، فحقق انقطاع الاستثناء هذه الدلالة من أنَّ العبرة بالإيمان وصالح الأعمال لا بكثرة المال ووفرة البنين.

---

(١) ينظر: الاستغناء: ٣٨٥ – ٣٨٦، البحر المحيط: ٨/ ١٦٨، الجمل: ٣/ ٢٨٤، دراسات لأسلوب القرآن: ١/ ٣٤٢-٣٤٣ وغيرها.

(٢) أصح ما قيل فيه: هو القلب الخالص من الشك والشرك، وقيل: القلب الخالى عن البدعة المطمئن إلى السنة، وقيل: سليم من آفة المال والبنين، أو الذى يلقى ربه وليس فى قلبه شيء غيره . ينظر: الكشاف: ٤/ ٤٠٠، المحرر الوجيز: ٤/ ٢٣٥، الجامع: ٧/ ٤٨٣٠-٤٨٣١ وغيرها.

أما مجيءُ هذا الاستثناء على صورة المتصل فيرشد إلى فضل الله – تعالى – على أصحاب القلوب السليمة، فيغدق عليهم الثواب والنعيم من حيث لا يتوقعون، فيثبت لهم نوع نفع وتكريم من جهة أموالهم التى أنفقوها فى وجوه البر، ومن ناحية أولادهم الذين ربوهم على التقوى والصلاح فكانوا خير خلف لخير سلف، ففضلاً عن كونهم من عمل آبائهم الذى لا ينقطع: «**وولد صالح يدعو له**» فإن النصوص تثبت أن ما يفعله الولد الصالح من حسنات يثاب عليها أبواه؛ لأن الولد بضعة أبيه ومن كسبه، ومن هنا نفهم جمع الله المؤمنين مع أزواجهم وأبنائهم وأحبائهم فى روضات الجنات؛ لأنَّ فى ذلك إدخالاً للسرور والراحة والأنس والبهجة على نفوسهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ ﴾ (الرعد: ٢٣)، ﴿ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ (يس: ٥٥ -٥٦)، ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: ٦٧)، ومن البيِّن فى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ (الطور: ٢١)، فتلاحظ بدايةً أنهم ضرب آخر ونمط فريد من جملة المؤمنين لأن قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ مستأنف مسوق لبيان حال طائفة من أهل الجنة إثر بيان حال الكل فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴾ (الطور: ١٧)، فهم طائفة أخرى لهم شأن آخر فى الجزاء، وهم الذين اتبعتهم ذريتهم فى الإيمان، فكان أول جزائهم إلحاق ذرياتهم بهم فى الدرجة وإن لم يبلغوا مبلغ الآباء فى الإيمان، تفضلاً من الله وإحساناً، ليتم السرور وتكمل النعمة، فيلحق المقصر بالمحسن، ولا ينقص المحسن من أجره شيئاً[1].

(١) ينظر: الكشاف: ٥/ ٦٢٦ – ٦٢٧، البحر المحيط: ٩/ ٥٧٠-٥٧٢، إرشاد العقل السليم: ٦/ ١٤٥-١٤٦.

قال أبو حيان ٧٥٤هـ: (روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله (ﷺ) قال: «**إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه فى درجته وإن كان لم يبلغها بعمله ليقر بها عينه، ثم قرأ الآية**»)[١]، وانظر إلى محادثتهم فى الجنة بما استأهلوا به هذا الفضل: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴾ (الطور: ٢٦)، فلم تلههم أهلوهم وأولادهم والدنيا كلها عن طاعة الله، بل كان حالهم الإشفاق والخوف من الله تعالى، وانظر بعد ذلك إلى تعقيب الله هذا الجزاء بقوله: ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ وما فيه من إشارة إلى ما قررته من أن الولد كسب أبيه، فتقر به عينه فى الآخرة كما كان فى الدنيا، بشرط الإيمان والصلاح، وإن لم يبلغ مبلغ أبيه فى الإيمان، فتحصيل أصل الإيمان هو الشرط.

أقول: انظر ثم ارجع البصر كرتين وثلاثاً إلى هذا التعقيب ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ فالله – تعالى – يُثبت أنهم بهذا مجزيون بكسبهم على أصل القاعدة العامة، ولا يُظَنُّ أنه زِيدَ فى هذا الجزاء بعمل أولادهم.

من هنا ينتفع هؤلاء الأبرار بهالهم وبنيهم، فى حين أنَّ الأصل العام أنَّ هذين الأمرين لا ينفعان أحداً يوم الجزاء إلا مَنْ زاده الله فضلاً وشرفاً.

وبهذا جَمَعَ الاستثناءُ المنقطعُ هنا بين المتناقضين، بأصل انقطاعه وصورة اتصاله، فأكَّد الأصل العام، وأشار إلى استثناء أهل الفضل من ذوى القلوب السليمة الخالصة، وهذا ما لا يكون بغير هذا الأسلوب.

وبمثل هذا التوجيه البلاغى للاستثناء المنقطع يُوَجَّهُ ما ورد منه فى:

(١) البحر المحيط: ٩/ ٥٧٠، وتخريجه فى (تخريج الكشاف) لابن حجر بهامش الكشاف: ٥/ ٦٢٦-٦٢٧.

٩ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧]

فالمعنى واحد فى الآيتين، وإن اختلفت الألفاظ، فهنا الأموال والأولاد، وهناك المال والبنون، وهنا ﴿ تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ ﴾ وهناك ﴿ يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴾، وهنا ﴿ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾، وهناك ﴿ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ وهما بمعنى واحد لأن القلب السليم فُسِّر بقلب المؤمن الخالص من الشرك.

والآية واردة هنا فى معرض الرد على الذين ادعوا أن كثرة الأموال والأولاد تقرب من الله وتمنع من عذابه، فصدوا عن الدين، وتكبروا على الأنبياء، وكانت هذه عادة المترفين مع الرسل؛ لما شغلوا به من زخرفة الدنيا، بخلاف الفقراء فلا مأرب لهم فيها، فكانت قلوبهم أقرب للخير، ولذلك هم أتباع الأنبياء، فكانت الآيات تسلية للنبى (ﷺ) مما مُنى به من قومه قريش من الكفر والافتخار بالأموال والأولاد[1]: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (سبأ : ٣٤ – ٣٦)، فلما احتجوا بأن إحسان الله إليهم بالرزق دليل على رضاه عنهم، كما أن حرمان الفقراء التابعين للرسل دليل على هوانهم عنده سبحانه، أمر

(١) ينظر: البحر المحيط: ٨/ ٥٥٣.

الله تعالى نبيه (ﷺ) أن يخبرهم بأنَّ بسط الرزق وقَدْره لا يرتبط بقضية الإيمان والكفر، والرضا والسخط، وليست الأموال ولا الأولاد هى التى تقرب العباد من ربهم، فإن الله – تعالى – إنما يُتقرَّبُ إليه بالإيمان وصالح الأعمال ثم ينفع المرءَ ما بذله من مال فى وجوه الخير، وما أنجبه من ولد صالح أرشده إلى الهدى.

فقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ ﴾ استثناء منقطع من مفعول ﴿ تُقَرِّبُكُمْ ﴾ إذا كان الخطاب للكفرة كما هو ظاهر السياق، وليس المؤمنون من جنس الكافرين.

ويكون منقطعاً أيضاً إذا جعل المستثنى منه قوله: ﴿ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم ﴾ لاختلاف الجنس أيضاً[1].

وسر هذا الاستثناء – كسابقه – ولكن فيه إشارات خاصة، منها أنه حين استثنى المؤمنون من ضمير الكافرين فى ﴿ تُقَرِّبُكُمْ ﴾ دل على بعد ما بين الفريقين فى الاعتقاد، ففريق الكافرين يعتقد أنهم المقربون لمالهم وأولادهم، أما المؤمنون فيوقنون بأن تفاوت منازل العباد عند ربهم يكون بقدر الإيمان وصالح الأعمال؛ فأبرز انقطاعُ الاستثناء بدءاً هذا التباينَ بين الطائفتين، وفيه تبشير للمؤمنين بخروجهم من معتقد هذا الفريق.

ثم تُثبت صورةُ الاتصال فضلَ الله على المؤمنين بانتفاعهم بأموالهم وأولادهم الصالحين فى القرب منه سبحانه، فأبرز الانقطاعُ أنَّ نيل هذا الفضل ما كان إلا بعد انقطاعهم من الكفر وأهله وعمله ومعتقده.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٤٢٢، البيضاوى: ٧/ ٥٥٣، البحر المحيط: ٨/ ٥٥٤، بدائع الفوائد: ٣/ ٥٧١، نظم الدرر: ٦/ ١٨٦، زادة: ٤/ ٩٣، حاشية القونوى: ١٥/ ٥٢٤، الشهاب: ٧/ ٥٥٣، الجمل: ٣/ ٤٧٦، روح المعانى: ٢٢/ ١٤٨-١٤٩، التحرير والتنوير: ٢٢/ ٢١٥-٢١٦، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ١/ ٣٣٧.

وبعد هذا البيان أُثبت مخالفتى للإمام الرازى ٦٢٦هـ فى قوله: (والذى يدل عليه هو أنَّ المال والولد يُشغل عن الله فيُبعد عنه، فكيف يُقرِّبُ منه، والعملُ الصالح إقبال على الله، واشتغال بالله، ومَنْ توجه إلى الله وصل، ومَنْ طلب مِن الله شيئاً حصل)[١].

وهو بهذا يستنبط من الآية معنى لا تدل عليه، فسياق الآيات فى تسلية النبى (ﷺ) فيما منى به من قريش من افتخارهم بأموالهم وأولادهم، كشأن المترفين مع الأنبياء السابقين، حيث فتنهم المال وصدهم عن الإسلام، واعتقدوا أنهم المكرمون عند الله لمالهم، فجاءت الآيات ترد هذا الاعتقاد وتصححه، لا للدلالة على أنَّ المالَ والولد يُشغل عن الله، فيُبعدان المؤمنَ عن التقرب إليه، بل إنَّ الصحيح أنَّ المال إذا أُنفق فى سبيل الله، ووُجِّه الولدُ إلى طاعة الله – بعد تحصيل الإيمان – كان ذلك من أعظم القربات والعبادات، وهذا ما عليه جمهور المفسرين فى الآية، حتى قال القرطبى ٦٧١هـ: (وبهذه الآية استدل مَنْ فَضَّل الغنى على الفقر، وقال محمد بن كعب: إنَّ المؤمن إذا كان غنياً تقياً آتاه الله أجره مرتين بهذه الآية)[٢].

وأجاز الإمام ابن القيم ٧٥١هـ أن يكون المستثنى منه (المال والأولاد)، ويكون الاستثناء منقطعاً أيضاً ولم يذكر غير هذا الرأى، قال: (فمن آمن، ليس داخلاً فى الأموال والأولاد، ولكنه من الكلام المحمول على المعنى؛ لأنه تعالى أخبر أنَّ أموال العباد وأولادهم لا تقربهم إليه، وذلك يتضمن أنَّ أربابها ليسوا هم من المقربين إليه، فاستثنى منهم من آمن وعمل صالحاً، أى لا قريب عنده إلا مَنْ آمن وعمل صالحاً، سواء كان له مال وولد، أو لم يكن له، والانقطاع فيه أظهر، فإنه تعالى قرب الناس إليه بأموالهم وأولادهم، وأثبت قربهم

(١) مفاتيح الغيب: ٢٥/ ٢٦٣.

(٢) الجامع: ٨/ ٥٣٨٨.

عنده بإيمانهم وعملهم الصالح، فتقدير «لكن» ههنا أظهر من تقدير الاتصال فى هذا الاستثناء)[1].

وأود أن أنبه أولاً إلى أنَّ ابن القيم يعنى بالاتصال هنا : إمكان تقدير دخول المستثنى فى المستثنى منه فى الاستثناء المنقطع، فلا يعنى به الاتصال الذى يطابق الانقطاع.

فلما أعيا ابنَ القيم تقديرُ الاتصال قدّر «لكن» ووضعها موضع «إلا» وبهذا يخرج من حرج القول بتقريب المال والولد إلى الله.

وأرى أنَّه ما أوقعه فى هذا الحرج إلا اعتبار المخاطب فى ﴿ تُقَرِّبُكُمْ ﴾ هم جميعَ الناس، مؤمنهم وكافرهم، يظهر هذا فى قوله: (لأنه تعالى أخبر أن أموال العباد وأولادهم لا تقربهم إليه) فأطلق المراد بالعباد.

ثم إنه وقع فى محظور آخر وهو عدم التنبيه على اعتبار إنفاق المال فى الخير، وتربية الأولاد على الصلاح والتقوى وترشيحهم للطاعة، من أعمال المؤمن الصالحة التى ترفع درجاته وتزيد حسناته ومن ثم تزيد قربه من الله تعالى، فحكم بغير ذلك فى قوله: (أى لا قريب عنده إلا من آمن وعمل صالحاً، سواء كان له مال وولد، أو لم يكن) والصحيح أنَّ الإيمان أصلاً – وهو قلبى – يتفاوت فيه أهله، فما بالنا بالأعمال الظاهرة التى ترفع الدرجات، ومن بين هذه الأعمال المشاق التى يلقاها المؤمن فى كسب ماله، ثم لا يبخل به، فينفقه فى سبيل الله، ومنها المشاق فى تربية الولد وتعليمه وإرشاده إلى طريق الهدى، حتى يكمل رسالة والده فى سبيل الدين وإعلاء كلمة الله، هل كل هذا ليس له جزاء عند الله فيستوى مع مَنْ خلا منهما؟

(١) بدائع الفوائد: ٣/ ٥٧١.

وقد جعل البعض الاستثناء متصلاً من (الأموال والأولاد) على حذف مضاف، على تقدير: إلا أموال من آمن وأولاده[1]، وهو – بعد ما فيه من تأويل وتقدير يخل بلفظ القرآن – ينقص فائدة عظيمة لاستثناء وإخراج ﴿ مَنْ ءَامَنَ ﴾ من ضمير الكفرة فى ﴿ تُقَرِّبُكُمْ ﴾ وهو استثناء وإخراج يثلج صدور أهل اليقين والحب الإلهى الصافى.

وبعد هذا التقرير يتبين ضعف تقدير الاستثناء بمجرد وضع «لكن» موضع «إلا»، فيقال: لكن من آمن وعمل صالحاً فإيمانه وعمله يقربانه[2]؛ لأنه يراعى أن «إلا» لا تنفك أبداً عن الإخراج المحقق أو المتوهم، مما يوفر مزيداً من الإشارات والدلالات.

وكذلك أمر الاستثناء فى قوله تعالى :

١٠ ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات : ٣٨-٤٠]

المعنى والسياق:

هذه الآيات فى معرض إنكار المشركين للبعث، فحكى الله قولهم وافتراءهم، ثم هددهم وتوعدهم فصور القيامة بأهوالها أمامهم، وقد حُشروا للسؤال، ولا ناصرَ لهم، فأخذ كلٌّ من الرؤساء والأتباع يُلقى اللوم على الآخر، فحكم اللهُ بأنهم مشتركون فى العذاب لكفرهم واستكبارهم واستهزائهم بالرسول مزيداً من الإشارات والدلالات ، فكان العذاب الأليم جزاءً لهم بسوء أعمالهم، ثم استثنى اللهُ – تعالى – عبادَه الذين أخلصهم لطاعته من هذا الجزاء.

(١) يراجع: نظم الدرر: ٦/ ١٨٦، زادة: ٤/ ٩٣.

(٢) ينظر: البحر المحيط: ٨/ ٥٥٤ – ٥٥٥.

بيان الاستثناء المنقطع وبلاغته:

قولـه تعـالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ اسـتثناء منقطـع مـن الـضمير فى قولـه: ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾ عـلى اعتبـارين[1]: أولهـما: عـلى أن يكـون الـضمير للكفـرة فى قولـه: ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾، وعليـه فعبـاد الله المخلـصون لا يـدخلون فى الجـنس، وثـانيهما: أن يكـون الـضمير لجميـع المكلفين، فيكون اسـتثناء ﴿ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ عنه باعتبـار المماثلـة، فـإنَّ ثـوابهم مـضاعف، فيكـون الانقطاع مراعياً بقية الآية التى تقرر الاختلاف فى نوع الجزاء، وعلى ذلك يكـون قولـه تعـالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (الصافات: ٤١)، مستأنفاً لبيان حال عباد الله.

وقـرر الـشهاب ١٠٦٩هـ أنَّ (الاتـصال مـع عمـوم الـضمير بعيـدٌ، لمـا فيـه مـن تفكيـك الضمائر، ويحتاج إلى تكلف؛ لأنَّ عدم جزائهم بمثـل العمـل بمعنـى الزيـادة والمـضاعفة أبعـد وأبعد)[2].

واكتفـى بعـضُ المفسرين بوضـع «لكـن» موضـع «إلا» هنـا، فقـال الزمخـشرى ٥٣٨هـ: (﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ ولكن عباد الله، على الاستثناء المنقطع)[3] ولم يكمل التقدير.

وقال ابن عطية ٥٤٦هـ: (ثم أعلمهم أن ذلك جزاء لهم بأعمالهم واكتسابهم، ثم اسـتثنى عباد الله استثناء منقطعاً، وهـم المؤمنون الذين أخلـصهم الله تعـالى لنفسه)[4]. وظـاهر كلامـه أن المستثنى منه: ضمير ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾ لكنه تحرج فى التقدير.

---

(١) ينظر: البيضاوى: ٨/ ٧٢.

(٢) حاشية الشهاب: ٨/ ٧٢.

(٣) الكشاف: ٥/ ٢٠٨.

(٤) المحرر الوجيز: ٤/ ٤٧١.

واكتفى أبو حيان ٧٥٤هـ بقوله: (وما ترون إلا جزاء مثل عملكم، إذ هو ثمرة عملكم ... ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ استثناء منقطع، لَمَّا ذكر شيئاً من أحوال الكفار وعذابهم، ذكر شيئاً من أحوال المؤمنين ونعيمهم)[١].

وجعله البعضُ استثناء منقطعاً من ضمير ﴿ لَذَآئِقُوا ﴾، وما بينهما اعتراض يفيد (مسارعة إلى تحقيق الحق، ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا من جهتهم، لا من جهة غيرهم أصلاً)[٢].

وهكذا قدره القرطبى ٦٧١هـ استثناءً منقطعاً ممن يذوق العذاب، قال: (وقيل: هو استثناء منقطع، أى إنكم أيها المجرمون ذائقو العذاب، لكن عباد الله المخلصين لا يذوقون العذاب)[٣].

واعترض أبو السعود ٩٨٢هـ على جعله منقطعاً من ضمير ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾ على جعل الخطاب للكفرة، قال: (وجَعْلُه استثناء من ضمير ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾ على معنى أنَّ الكفرة لا يُجْزَوْنَ إلا بقدر أعمالهم، دون عباد الله المخلصين فإنهم يُجزون أضعافاً مضاعفة؛ مما لا وجه له أصلاً، لاسيما جعله استثناء متصلاً بتعميم الخطاب فى ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾ لجميع المكلفين؛ فإنه ليس فى حيز الاحتمال، فالمعنى: إنكم لذائقون العذاب الأليم، لكن عباد الله المخلصين الموحدين ليسوا كذلك)[٤].

---

(١) البحر المحيط: ٩/ ٩٩-١٠٠.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٥/ ٣٢٤.

(٣) الجامع: ٨/ ٥٥٢٠.

(٤) إرشاد العقل السليم: ٥/ ٣٢٤.

وأُسجل اعتراضاً على رأى أبى السعود فى عدة نقاط، هى:

١. هذا التقدير الذى لم يرتضه ولم يَرَ له وجهاً، ارتضاه الشيخ زادة ٩٥٠هـ وجعل المستثنى منه ضمير ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾ على خطاب الكفرة، وقال: (كأنه قيل: وما تجزون أيها الكفرة إلا جزاء مماثلاً لعملكم فى المقدار، وفى كونه سيئاً كالعمل، لكن عباد الله المخلصين الموحدين فإن جزاءهم يضاعف أضعافاً كثيرة، تفضلاً منه تعالى عليهم، فاستثناؤهم من المشركين باعتبار أن جزاءهم مماثلاً لعملهم، وأن جزاء الموحد يضاعف)[١].

وكذلك ارتضاه العلامة الجمل ١٢٠٤هـ، فعده منقطعاً من ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾ وقال: (والمعنى أن الكفرة لا يجزون إلا بقدر أعمالهم، وأما عباد الله المخلصون فإنهم يجزون أضعافاً مضاعفة)[٢].

والعجيب أنه ينقله عن أبى السعود، لكنه يرتضيه، فيحذف تعليق أبى السعود عليه بأنه مما لا وجه له.

٢. الاقتصار على تقدير « لكن» وإثبات ذوق العذاب للكفرة، ونفيه عن عباد الله، مما ليس فيه عظيم معنى، فضلاً عن كونه أمراً ثابتاً مقرراً معلوماً، مفهوماً من أساليب قرآنية كثيرة أوضح من هذا الأسلوب الدقيق.

٣. اعتبار أبى السعود ٩٨٢هـ قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ اعتراضاً، هو ما جعله يستنصر لدفع هذا الوجه، كى لا يقع المستثنى منه فى جملة الاعتراض، والفائدة التى أثبتها للاعتراض تتحقق بما قبل ذلك من آيات، أثبت لهم

(١) حاشية زادة: ٤/ ١٥٢-١٥٣.

(٢) حاشية الجمل: ٣/ ٥٣٥.

فيها دخول الجحيم، وعدمُ التناصر، والاستسلامُ، وإدراكُهم لأحقيتهم بالعذاب: ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ (الصافات: ٣١)، ثم وصفهم بالإجرام، والاستكبار، وتذكيرهم بوصفهم النبى (ﷺ) بالشعر والسحر ... كل هذا يضع فى خاطرهم أنهم لا جرم هالكون بأعمالهم؛ فلا يمنع الاعتراض هنا جعل الاستثناء من ضمير ﴿ تُجْزَوْنَ ﴾ ولو تنافسا لكان السبق للاستثناء وإلغاء القول بالاعتراض؛ لما يترتب على الأول من تكثير للمعانى، وإشارات لا تتأتى إلا به.

وبذلك يتحقق فى هذا الاستثناء ما تحقق فى سابقيه من التأكيد على شرف الإيمان وفضل أهله، فالانقطاع يخرج ﴿ عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ بداية من جنس هؤلاء الكفرة المجرمين، وهذا الإخراج فى حد ذاته نوع بشارة للمؤمنين.

ثم يثبت مجئُ الاستثناء على صورة الاتصال نوعَ تفضيل لهؤلاء الذين أخلصهم الله لعبادته، فيزيدون على قاعدة الجزاء بالأعمال، أنهم يضاعف لهم أضعافًا كثيرة، فلا تساوى بينهم وبين المجرمين.

١١- أما قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات : ٧٢-٧٤]

فهو أيضاً فى سياق توعُّد منكرى البعث من المشركين، فقد مثَّل الله – تعالى – لقريش هنا بالأمم التى ضلَّت قبلهم(١)، فجاءها المنذِرون من الرسل، فكذبوهم وآذوهم، فعذَّبهم اللهُ وأهلكهم، وما نجا إلا مَنْ أخلصهم الله لعبادته.

بيان الاستثناء المنقطع وبلاغته :

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ مستثنى من قوله ﴿ الْمُنذَرِينَ ﴾ وهو استثناء منقطع؛ لاشتمال المستثنى منه على وعيد يقتضى الإخبار بأنه عذبهم، فحيث كان المعنى: أنهم أهلكوا إهلاكاً فظيعاً، استُثنى منهم المخلَصون وهم ليسوا منهم؛ لأنَّ الإهلاك المفهوم من الإنذار يشير إلى أنَّ المراد بالمنذَرين الكفارُ منهم(٢).

وأُثبت أولاً بلاغة هذا الاستثناء، ثم أُتبعه بما يؤيده من السياق الطويل.

أرى – والله أعلم – أنَّ استثناء ﴿ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ من ﴿ الْمُنذَرِينَ ﴾ الكفار الذين حلَّ بهم العذاب من الأمم السابقة – على الرغم من عدم دخولهم فى جنسهم – أرى أنَّ فيه دلالة على هول العذاب وإحاطته بالأمة التى ينزل بها، فيتلبس بكل الخلق فيها،

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/ ٤٧٦.

(٢) ينظر: الكشاف : ٥/ ٢١٤، المحرر الوجيز: ٤/ ٤٧٦، الجامع: ٨/ ٥٥٣٢، البحر المحيط: ٩/ ١٠٨، حاشية زادة: ٤/ ١٥٧، إرشاد العقل السليم: ٥/ ٣٣٠، الشهاب: ٨/ ٨٢، الجمل: ٣/ ٥٤٠، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ١/ ٣٣٦.

حتى يعاينه الجميع، ثم لا يُهلِك إلا الظالمين والكافرين والمجرمين فيهم، فينجى الله أهل الإيمان وخاصته بعد أن رأوا تلك الفظائع والأهوال، فتحدث لهم نعمةٌ جليلةٌ تستوجب التحدث بها، وهى النجاة من العذاب.

فالانقطاع يدل على أنَّ المخلَصين ليسوا من جنس المنذَرين المعذَّبين، وصورةُ الاتصال تدل على أنَّ الهول والشدائد أحاطت بالجميع، مع ما فى بعضهم من شدة الإيمان، ثم نُجِّى هؤلاء وكتبت لهم سعادة الدنيا والآخرة، بعد سعادة النجاة، ولذة الخلاص، رزقنا الله الإخلاص والخلاص.

دلائل هذه البلاغة من السياق :

هذا التوجيه الذى رأيته فى قطع الاستثناء، له براهين تبرز فى السورة كلها، وهو خيطٌ تُشَدُّ به جميعُ معانيها، ولعلَّ أقوى الأدلة على ذلك هو تكرارُ هذا الاستثناء ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أربع مرات فى السورة، ودلالته على نفس هذا المعنى.

ولا أريد أنْ أطيل هنا فى حشد أدلة هذا التوجيه وهذا المعنى من سياقات السورة كلها، لكنى أكتفى بإشارات تسبقُ الآياتِ التى معنا، ومعالمَ فى قصص الأنبياء التى وردت عقب تلك الآيات.

فمِمَّا قبلُ[1]: ما ورد فى تحادث أهل الجنة – بعد ذكر ألوان نعيمهم – عن الفضائل والمعارف وما جرى لهم وعليهم فى الدنيا، فيحكى أحدهم ما كان من صاحب سوء له كان يوبخه على الإيمان والتصديق بالبعث، ثم يُطْلع أهلَ الجنة عليه وهو يُعذَّبُ فى وسط الجحيم، فيخاطبه صاحبُ النعيم بأنه كاد أنْ يهلكه معه إن اتبعه فى إنكار البعث، لولا نعمة

(١) استعنت فى صياغة المعانى بإرشاد العقل السليم: ٥/ ٣٢٦-٣٢٧.

ربه، وهذه هى الآيات: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ (الصافات : ٥٠ -٥٧)، ثم يتساءل ابتهاجاً بما منَّ اللهُ عليهم من الفضل العظيم والنعيم المقيم، سؤال تقرير وتعجب: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الصافات: ٥٨-٥٩) أى أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين أى بمن شأنه الموت، وقيل: إن أهل الجنة أولَ ما دخلوا الجنة لا يعلمون أنهم لا يموتون، فإذا جئ بالموت على صورة كبش أملح فذبح ونودى: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت؛ يعلمونه، فيقولون ذلك تحدثاً بنعمة الله – تعالى – واغتباطاً بها.

ثم يختم تعجبه بأول بواعث النعيم، فيقول: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (الصافات: ٥٩)، أى كالكفار فإن النجاة من العذاب أيضاً نعمة جليلة مستوجبة للتحدث بها، ثم قرر – أو الكلام لله تعالى -: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (الصافات: ٦٠).

فهذا هو السياق كاملاً قبل الآيات التى معنا، والمعنى الأمُ فى هذا السياق، هو نفس المعنى الذى دل عليه الاستثناء المنقطع؛ فقد كاد هذا القاصُّ أن يَهلك لو اتبع قرينَه فى الكفر وإنكار البعث، لولا أنَّ الله نجاه، فذاق لذة النجاة من العذاب.

وممَّا هو بعدُ: طريقة السورة فى تفصيل ما أُجمل فى تلك الآيات، من بيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم، وبيان سوء عاقبة بعض المنذَرين، فذُكر فى هذا التفصيل طرفٌ من

قصة نوح وإبراهيم وإسماعيل وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس – عليهم السلام –، وركزت السورة فى هذا القصص الموجز على عنصر تنجية الله لهؤلاء الأنبياء ومن صلح وآمن من أقوامهم، مِنْ عذابٍ محدقٍ وأهوالٍ عظامٍ، وهو سياقٌ يمتد من الآية (٧٥) حتى الآية (١٤٨) وهو إيرادٌ مختلفٌ لهذا القصص عن إيراده فى مقامات أخرى بتفصيل أكثر، لكنه هنا يركز على (التنجية):

فيقول تعالى فى شأن نوح (عليه السلام): ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الصافات: ٧٥-٧٦).

وقال فى شأن الخليل إبراهيم (عليه السلام) بعد ذكره ما فعله بالأصنام: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ (الصافات: ٩٧-٩٨).

وقال فى شأن سيدنا إسماعيل (عليه السلام) وقد شارف على الذبح: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (الصافات: ١٠٧).

وذكر إنجاء موسى وهارون وقومهما ابتداءً، فقال: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الصافات: ١١٤-١١٥).

وقـــــال فى قـــــوم إليـــــاس:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (الصافات: ١٢٧-١٢٨) وهو استثناء منقطع[1] له نفس دلالة الاستثناء الذى معنا هنا.

وذكر إنجاء لوط (عليه السلام) وأهله ابتداءً، فقال: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾ (الصافات: ١٣٣-١٣٤).

وقال فى شأن يونس عليه السلام: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ (الصافات: ١٤٣-١٤٥).

وهذا واضح فليُتأمَّلْ وليُقارَنْ بمواضع القصص فى سياقات أخرى.

فالسياق الذى قبل الآيات، والسياق الذى بعدها، ينطلقان من ذات الفكرة والدلالة، والسياق السابق يصور نعيم أهل الجنة، الذى عُدَّ منه هذا الفرح والابتهاج بتنجية الله لهم من عذاب وهول عظيمين، فهو سياقٌ مستقبلٌ، والسياقُ اللاحقُ سياقٌ من الماضى البعيد والقريب، لأقوام أرسل إليهم أنبياؤهم فكذبوهم؛ فحقت عليهم كلمة العذاب، فأحدقت بهم الأهوالُ، حتى كادت المخاطرُ لا تدع أحداً، لكنْ نَجَّى اللهُ عبادَه المخلصين مع أنبيائهم (عليهم السلام).

---

(١) لم أجعل هذا الموضع من آيات الدراسة ؛ لأن الاستثناء فيه راجح الاتصال من ضمير﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾، ولا يناسب أن يكون منقطعاً من ﴿ لَمُحْضَرُونُ ﴾ لأنه يلزم عليه أن يكونوا مندرجين فيمن كذب، لكنهم لم يحضروا لكونهم مخلصين، وهو بين الفساد. ينظر: البيضاوى: ٨/ ١٠٢، البحر: ٩/ ١٢٢، زادة: ٤/ ١٦٤، الشهاب: ٨/ ١٠٢، الجمل: ٣/ ٥٥٢، عضيمة: ١/ ٣٣٨.

ولم تنحصر الشدائد فى هذا السياق فى العذاب الذى كان ينزل بالكافرين، بل شمل ما لاقاه بعضُ الرسل من شدائد وإيذاء من أقوامهم فنجاهم الله تعالى من ذلك.

والسياقُ الذى معنا يتوسطُ هذين السياقين، وهو دعوةٌ للنظر مِن كل مَنْ يتأتى منه النظر أو هو تسلية للنبى (ﷺ) على أذى قومه وأن الله سينجيه ومن آمن معه وخاصة مشركو قريش الذين كفروا وأنكروا البعث، فسيقت لهم العبرة تلو العبرة، وأُتى لهم بالمستقبل حاضراً أمامهم، واستُحضر لهم الماضى بدروسه ومعانيه وعواقب المؤمنين والكافرين، حتى يقطع عليهم العذر، فينبئهم أن النبوة هى النبوة، والعواقبَ هى العواقبُ، والمنهجَ هو المنهجُ، والإلهَ هو الإلهُ، واحدٌ لا شريك له، والسبيلَ إليه وإلى جنته ورضوانه هو الإخلاصُ والإيمانُ واتباعُ الرسل عليهم السلام.

فعلى أهل مكة – وكلِّ من يأتى بعدهم – أنْ يُخلِّصوا أنفسهم من عواقب المنذَرين الهالكين، فلا يتبعوا الضالين الغاوين، فيتحصل الانقطاع ما بينهم، فلا يدخلوا فى جنس هلاكهم وعذابهم؛ لأنه حين يقع ستكون لهم النجاة مما يحيق بهم، فحينئذ يفرحون بهذا الفوز العظيم، وبفضل الله وبرحمته.

ومن اللطائف الدقيقة فى ترتيب هذه السياقات أن بُدئ بسياق يوم القيامة – مع أنه المتأخر زماناً – فقدَّمه للتأكيدِ على أنه واقعٌ وآتٍ لا ريب فيه، وأنهم سيُعَثونَ لا محالةَ، فليُعِدُّوا للسؤال جواباً، ولذلك وردت الأفعال فى هذا السياق بصيغة الماضى؛ تأكيداً على هذا المعنى . والله أعلم.

وهذه السياقاتُ تحتوى على عجائب دلالية وبلاغية أخرى، لكنَّ مقامَ هذا البحث وهدفَه لا يتطلبان غيرَ ما أثبتُّه . والله المستعان.

١٢ - قال الله تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

[الصافات : ١٥٨ - ١٦٠]

المعنى والسياق[1]:

عاد الحديث هنا إلى كفار مكة وذَكَرَ بعضَ ألوان شركهم وافترائهم على الله تعالى، فزعموا أنَّ الملائكة بناتُ الله، ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم فى مناسبة رب العزة، ولذلك فهم مُعذَّبون بالنار، ثم نَزَّهت الملائكة اللهَ (ﷻ) عما وصفه به المشركون، ثم استثنوا عباد الله المخلصين من حضور عذاب الكافرين، فهم ناجون مُنعَّمون.

بيان الاستثناء المنقطع وبلاغته:

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع من قوله: ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ والحضور هنا بمعنى الهلاكِ وشهودِ عذاب النار، وهو خاص بالكافرين، وعبادُ الله المخلصون ليسوا من جنسهم، وبذلك يكون قوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ اعتراضاً بين المستثنى والمستثنى منه.

ويجوز أن يكون مستثنى من الضمير فى قوله: ﴿ يَصِفُونَ ﴾ أى يصفه الكافرون بذلك،

(١) ينظر: الكشاف : ٥/ ٢٣٣-٢٣٥.

ويكون منقطعاً أيضاً، وتقديره: ولكن المخلصون برآء من أن يصفوه به[1].

وبلاغة هذا الاستثناء إذا كان من قوله: ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أنَّ الانقطاع يدل على عدم دخول عباد الله الصالحين فى جنس الكفرة المحضرين للعذاب بما افتروه على الله تعالى.

ومجئ المنقطع على صورة الاتصال يدل على هول العذاب الذى سيلقاه هؤلاء جراء تجرئهم على هذا القول الأثيم، فإنه عذاب سيحيط بالجميع وسوف يسمع به كل الناس بما فيهم الصالحون، لكنه لا يغشاهم؛ إذ ينجيهم الله تعالى؛ لأنهم تمسكوا بإخلاصهم وثبتوا على عقيدتهم، ولم تزحزحهم تلك الشبهات والأقوال الفارغة، فصورة الاتصال تشير إلى نجاتهم من المهالك وأسبابها، وقد كانوا قريبين من كليهما.

أما بلاغته إذا كان المستثنى منه قوله تعالى: ﴿ يَصِفُونَ ﴾ فدلالة الانقطاع كما سبق، وهى عدم دخول عباد الله فى جنس مَنْ ادعوا على الله – تعالى – نسباً بينه وبين الملائكة، فهم برآء من هذا الوصف الشنيع.

ومجئ المنقطع على صورة المتصل يوحى بخطورة أقاويل المبطلين وادعاءات الكافرين، وشُبَهِ الملحدين، على الدين والمؤمنين، وأنَّ مِثْلَ هذه المكائد قد تدع المؤمنَ كافراً، وتقلبُ الموقنَ شاكاً مرتاباً، وقد تَعَرَّضَ الإسلامُ ودعوتُه لكثير من هذه الحروب الكلامية والنفسية القائمةِ على الافتراء والتدليس وإثارة الشبهات والفتن فى مكة والمدينة وحتى الآن، وقد تبلغ هذه الشبهات مبلغاً عظيماً فى الذيوع والتأثير حتى تكاد أنْ تصل إلى قلوب بعض المؤمنين،

(١) ينظر: الكشاف : ٥/ ٢٣٣، المحرر الوجيز: ٤/ ٤٨٩، البيضاوى : ٨/ ١١١، البحر المحيط: ٩/ ١٢٨، حاشية زادة: ٤/ ١٦٧ – ١٦٨، حاشية الشهاب: ٨/ ١١١، الجمل: ٣/ ٥٥٦، التحرير والتنوير: ٢٣/ ١٨٨.

فتهز ثوابتهم، وتُحدث شرخاً فى معتقدهم، وما ينجو من ذلك إلى مَن اختاره الله واصطفاه وأخلصه لدينه، فكان من (عباد الله المخلصين).

وأساليبُ الآيات هنا تدل على شناعة هذا الادعاء من المشركين، ففضلاً عما ورد فى قطع الاستثناء من دلالات على عظم هذا القول الذى اقتضى عظم ما سوف يُعذَّبون به، حتى بلغ عظم هذا العذاب أنْ يخبر بأنَّ عباد الله المخلصين سينجون منه حين يرونه.

فضلاً عن ذلك نرى التفاتاً فى بداية الآياتَ: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ...﴾ من الخطاب فى الآيات السابقة إلى الغيبة هنا، للإيذان بانقطاعهم عن الجواب عما سئلوا عنه بسبب هذا الادعاء[1]، حيث خاطبهم الله تعالى قبل ذلك بقوله: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الصافات: ١٤٩-١٥٧) ثم إن فى الالتفات دلالة على (سقوطهم عن درجة الخطاب، واقتضاء حالهم أن يُعرَض عنهم، وتُحكَى جناياتهم لآخرين)[2].

وعبَّر عن الملائكة هنا بالجِنَّة، وهو اسم جنسهم (وضعاً منهم وتقصيراً بهم، وإن كانوا مُعظَّمين فى أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التى أضافوها إليهم، وفيه إشارة إلى أنَّ مَنْ صفته

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٥/ ٣٤١.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٥/ ٣٤١.

الاجتنان والاستتار – وهو من صفات الأجرام – لا يصلح أن يناسبَ من لا يجوز عليه ذلك)[1].

وإضافة علم تعذيب المدعين ذلك إلى الملائكة يفيد المبالغةَ فى التكذيب، حيث أضيف إلى علم الذين ادعوا لهم أنهم بنات الله[2].

وانظر إلى امتلاء معنى علمهم بحضورهم العذاب، بعناصر التوكيد: القسم، قد، إنهم، اللام الداخلة على خبر «إنَّ»، وما فى بناء «محضرون» للمفعول، ودلالته على القهر والإلجاء وشدة الأخذ، ناهيك عن إطلاق الحضور، فعلى الرغم مما قيل من أنه إذا أطلق كان للعذاب، فإن فى هذا المجهول وفى هذا الإطلاق بثاً لمعانى الرعب والفزع فى قلوبهم، وما أنكى ما يشعر به المرء حين يُساقُ إلى مجهولٍ يعلم أنه ينتهى به إلى عذاب.

وهذا الجوُّ المرعبُ مما يساعدُ على زيادة تصوُّر حُسنِ الاستثناء المنقطع وبلاغتِه فى هذا الموضع، فإنَّ عبادَ الله المخلصين على الرغم من عدم دخولهم فى جنس المحضَرين؛ إلا أنهم لرقة قلوبهم، وشدةِ خوفهم من الله تعالى، وعدمِ اعتدادهم بطاعتهم، وهضمِهم أنفسَهم، واتهامِها بالتقصير فى جنب الله؛ قد يُظنُّ حين وقوع هذا العذاب أنه سيشملهم لسببٍ لا علم لهم به، فيبشرهم ربُّهم بأنهم بمنأى عن كل تلك الأهوال.

تركيز سياقات السورة على بقاء المخلصين:

اتضح مما سبق أنَّ هذا الاستثناء ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ورد فى سورة الصافات

(١) الكشاف: ٥/ ٢٣٣.

(٢) ينظر: الكشاف: ٥/ ٢٣٣.

أربع مرات[1]، وهى تتوزع فى السورة وتحيط بها، وكانت البداية مع كفار قريش (آية ٤٠) وكذلك كانت النهاية معهم (آية ١٦٠) توسط ذلك مثالٌ من الأمم الماضية فى موضعين: الأول: مجمل، والثانى: مع سيدنا إلياس.

وسياقات السورة تنجذب إلى هذا المعنى: تثبيت عباد الله المخلصين تجاه ما يلقونه من كيد ومكر للإيقاع بهم فى براثن الشرك والضلال؛ لأنهم إن سقطوا سقط ركن عظيم من أركان الخير والصلاح وإعلاء الدين.

وهذه السياقات تؤكد على أن هؤلاء العباد هم خلاصة المؤمنين وزبدتهم، وكفى بوصفهم بعباد الله، والمخلصين دلالة على ذلك، فهم نتاج التمحيص والتمييز، كما ورد فى قوله تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ (آل عمران: ١٤١)، وقوله: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (الأنفال: ٣٧)، فهم صفوة أهل الإيمان.

وقد حرصت هذه السياقات على توجيه تلك الصفوة إلى أخطار الشبهات والأقوال الباطلة من بداية السورة حين تحدثت عن حفظ السماء من تسمُّع الشياطين للملأ الأعلى، ثم رميهم المعجزات بالسحر، ثم خلوصها إلى إنكارهم البعث، ثم تصوير موقف الآخرة وما ورد فيه من تبادل الاتهامات بين المجرمين: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا

(١) فى الآيات: (٤٠، ٧٤، ١٦٠،١٢٨) وورد بدون استثناء فى قوله تعالى: ﴿ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرًا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ (الصافات: ١٦٨-١٦٩)، ولم يرد هذا الوصف إلا فى سورة الحجر: ﴿ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ (الحجر: ٣٩ - ٤٠).

طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴾ (الصافات: ٢٨ – ٣٢)، وانظر إلى دقة الإغواء، ثم كانت نجاة المخلصين فى الموضع الأول (آية ٤٠)، ثم صورت القيامة ثانياً، وورد فى التصوير: ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ (الصافات: ٥٦)، وهو إغواء أهل السوء ورغبتهم فى إضلال الصالحين حتى يكونوا سواءً فى الكفر.

ثم جاء الموضع الثانى (آية ٧٤) فى التمهيد لأحوال المخلصين من الأمم السابقة، وأنهم كانوا على شفا الهلاك، فنجاهم الله تبارك وتعالى، وكذلك الموضع الثالث (آية ١٢٨)، ثم ختمت هذه المواضع مع كفار قريش كما بدئت بها، فى إيراد إفكهم وافترائهم بأن الملائكة بنات الله، فجاء هذا الاستثناء (آية ١٦٠) مخلِّصاً عبادَ الله المخلصين من عواقب هذا الادعاء، معلناً أنهم عباد اصطفاهم الله فى كل الأمم، بهم يرفع لواء الدين، ثم ترتد خواتيم السورة إلى بدايتها فى تقوير خطر إشاعة الافتراءات والادعاءات، فيقول تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (الصافات: ١٦١ – ١٦٣)، وتكاد هذه الآيات تنطق بما أريد أن أقرره، من أن هدف السورة كلها كان حفظ عباد الله المخلصين وحمايتهم من كل ما يمكن أن يمس إخلاصهم، والمعنى: أن المشركين وما يعبدونه لا يستطيعون أن يفتنوا على الله إلا أصحاب النار الذين سبق فى علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها، فإن قلت: كيف يفتنونهم على الله؟ قلت: يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهزائهم[1].

(١) ينظر: الكشاف: ٥/ ٢٣٣.

فحسم الله – تعالى – الأمر فى نهاية السورة بعد عرض كل هذه السياقات – التى تحتاج إلى تفصيل ونظر أكثر من هذا – بأنه حافظٌ عبادَه الذين أخلصهم له من كل ما يمكن أن ينال من إيمانهم، أو يُدخل عليهم كرباً فى الدنيا والآخرة، وقد كان أسلوب الاستثناء المنقطع عنصراً بارزاً من عناصر تأسيس هذا المعنى، بل كان هو الأبرزَ عن طريق تكراره بنفس اللفظ ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أكثر من مرة. والله أعلم.

ومما يُريح النفسَ إلى ما ذكرت أنَّ هذا الوصف (عباد الله المخلصين) لم يُذكر فى القرآن الكريم كله إلا هنا، ثم فى قوله تعالى – حكاية عن إبليس اللعين -: ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (الحجر: ٣٩-٤٠)، فهم لم يُذكروا إلا فى مقامات الإغواء، فى إشارة إلى خطر الإغواء، ثم إنَّ إبليس نفسه شهد بأنه لا يستطيع إغواءهم.

١٣ – قال الله تعالى:

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

[الزخرف: ٦٦ – ٦٧]

المعنى والسياق:

لمّا ذكر الله – تعالى – طرفاً من قصة سيدنا موسى مع فرعون، وكان بناء المعانى هنا على قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ (الزخرف : ٥٤)، فحملهم فرعون على اتباع ضلاله بما لبّس به عليهم من خيريته على سيدنا موسى، بمُلك مصر وأنهارِها، وخلو سيدنا موسى من آلات الملك والسياسة، ولمَّا ذكر – بعد ذلك – أمرَ ضَربِ عبدِ الله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً، وجادل رسول الله (ﷺ) بعبادة النصارى إياه، لمّا أنزل تعالى: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ (الأنبياء : ٩٨)، فجادلوا بأن عيسى إذا كان من حصب النار – لعبادة قومه له – فَأَمْرُ آلهتهم هيِّنٌ، فرد اللهُ عليهم بأنَّ عيسى ما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة، وخلقه من غير والد، فكان عبرةً عجيبة ومثلاً سائراً، وما عيسى (عليه السلام) إلا شرط من أشراط الساعة، فعليهم أن يوقنوا بوقوعها، وأن يتبعوا صراط الله المستقيم، ولا يتبعوا الشيطان الذى يصدهم عن سواء السبيل، وهذا هو ما دعا إليه عيسى (عليه السلام) كشأن جميع الأنبياء.

لما ذكر الله – تعالى – ذلك توعَّد أهلَ مكة بأنَّ الساعة ستأتيهم فجأة وهم فى غفلة عنها، ثم وصف هذا اليوم بأنَّ كلَّ خليل يعادى خليلَه ويتنكر له، لشُغله بأمره واهتمامه بشأنه، وهؤلاء هم أخلاء السوء فى الدنيا، فيعرضون عن بعضهم لأنهم يدركون أنهم أضروا

وأضلوا بعضهم، وهذا بخلاف المتقين الذين اجتمعوا على التقى، وبذلوا النصح لبعضهم، فتشابكت أيديهم على طريق الهدى والخير، فهم يومئذ مسرورون بتلك الخلة[1].

بيان الاستثناء المنقطع وبلاغته:

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ استثناء منقطع من ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ إذا كان المراد بهم الأخلاء على المعصية[2].

وتنطلق بلاغة هذا الاستثناء مما انطلقت منه بلاغة الاستثناء فى الآيات السابقة التى يُثبت الاستثناء المنقطع فيها فضلاً للمتقين والمؤمنين، فيما كان الأصل فيه أنه قاعدة عامة فى مبدأ الجزاء.

فحقيقة الانقطاع هنا بين ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وأخلاء السوء والمعصية، تُبرز بُعْدَ ما بين الفريقين، فثمة بون شاسع بين أهل التقى الذين تحابوا فى الله واجتمعوا عليه، وبين أصحاب السوء الذين لا يجتمعون إلا على المعصية والفسوق والإثم والعدوان، فضلاً عن صد بعضهم البعض عن سبيل الله، فإذا قامت القيامة انقلبت الخُلَّة الظاهرة عداوة ومقتاً، فيتباغض كل خليل كان فى الدنيا على غير تقى؛ لأنه يرى أن الضرر دخل عليه من قِبَلِ

(١) قال القرطبى فى سبب نزول هذه الآية: (وحكى النقاش أن هذه الآية نزلت فى أمية بن خلف الجمحى وعقبة بن أبى معيط، كانا خليلين، وكان عقبة يجالس النبى (ﷺ) فقالت قريش: قد صبأ عقبة بن أبى معيط ؛ فقال له أمية: وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً ولم تتفل فى وجهه، ففعل عقبة ذلك ؛ فنذر النبى (ﷺ) قتله، فقتله يوم بدر صبراً، وقتل أمية فى المعركة، وفيهم نزلت هذه الآية) الجامع: ٩/ ٥٩٢٩، ثم نقل روايات أخرى، وقال: (قلت: والآية عامة فى كل مؤمن ومتق، وكافر ومضل) الجامع: ٩/ ٥٩٣٠.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٦/ ٤١، الجمل: ٤/ ٩٤، عضيمة: ١/ ٣٥٧.

خليله، أما المتقون فخلتهم باقية، تزداد قوة حين يروا ثواب التحاب فى الله – تعالى – فيرون أن النفع دخل بهم من بعضهم على بعض[1].

ومجئُ الاستثناء المنقطع على صورة المتصل يُثبت نوعَ فضل وتكريم لأهل التقى، بتقرير أنَّ النصوص وإنْ حكمت بأنَّ من مبادئ الجزاء يوم القيامة: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ (المعارج: ١٠)، ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس : ٣٣ – ٣٧)، فإنَّ خُلَّةَ المتقين تنفعهم يومئذ، فتبقى على حالها، بل وتزداد بمشاهدة كل منهم آثار خلتهم من الثواب ورفع الدرجات[2] وراجع أحاديث فضل التحاب فى الله، فهى تدل على هذا المعنى، وفى هذا نكاية بأخلاء السوء الذين اجتمعوا فى الدنيا على السخرية من المؤمنين والمتقين وهمزهم ولمزهم، ومحاولة صدهم عن سبيل الهدى، فيبين الله – تعالى – أنَّ المتقين أهل فضل وشرف، وأنَّ خلتهم ليست كخلة أصحاب السوء، فظاهر الخلة من معنى الاجتماع واحد فى الفريقين، يمكن أن يُظَنَّ أنه يقتضى وحدة الجزاء، فقطع الاستثناء المنقطع ذلك، ودل على أن العبرة بباطن هذه الخلة ومضمونها، وفى هذا إشارة إلى خطر المصاحبة والاجتماع.

سر وصف يوم القيامة بهذا الوصف هنا:

توعد الله – تعالى – كفار مكة هنا بيوم القيامة الذى يأتيهم فجأة وهم فى غفلة عنه، ثم وصف هذا اليوم بما مر توضيحه من أنه يوم تنقلب فيه الخلة عداوة ومقتاً إذا كانت على غير

(١) ينظر: الكشاف: ٥/ ٤٥٥، المحرر الوجيز: ٥/ ٦٣، البحر المحيط: ٩/ ٣٨٧.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٦/ ٤١.

هدى وتقى، ومن بديع إيثار وصف يوم القيامة بهذا الوصف فى هذا المقام، مناسبتُه لِمَا ذُكِرَ قبل ذلك فى السياق من إيراد طرف من قصة سيدنا موسى مع فرعون وقومه، وسيدنا عيسى (عليهما السلام)، وهو إيراد موجز وخاطف، يعتمد على التنبيه على خطر خلة السوء، أو صد المرء عن سبيل الله بأى وسيلة، وتبدأ السورة بالتنبيه على هذا المعنى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف: ٣)، والعقل هو مناط تمييز فاسد أقوال وأراجيف خلة السوء، ثم انظر إلى قوله: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الزخرف: ٦-٧)، والاستهزاء والتحريض عليه أثر من آثار أصحاب السوء الذين يخططون لهدم الدعوة، وصد الناس عنها، على الرغم من قرب فطرتهم من الاعتراف بالله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف : ٩)، وختمت بقريب من هذا فى قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (الزخرف : ٨٧)، وانظر إلى التعجب من صرفهم عن عبادته تعالى إلى غيره، وما فى بناء الفعل ﴿ يُؤْفَكُونَ ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله، وما فيه من إشارة إلى خطر تأثير الأصحاب وجرهم قرناءَهم إلى الكفر.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٢)، وما فيه من إشارة أيضاً إلى التأثر بالغير فى الضلال، وجَعْلِ أفعاله حجةً، ثم تقرر السورة أنَّ هذا معنى توارثه كفار مكة عن السابقين: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٣)، فالسُّبُلُ هى السُّبُلُ، والخطر هو الخطر، وتستمر السورة فى إيراد ما يؤصل هذا المعنى ويؤكده، بين الحين والحين، فترى فيها قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾ (الزخرف: ٣٦ – ٣٨)، وأرى أن الشيطان المقيض هنا على عمومه من الإنس والجن، بل هو فى الإنس أظهر، لدلالة سياقات السورة على هذا، وانظر إلى جمع الضمائر فى:﴿ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ فى الدنيا، ثم إفرادها فى قوله تعالى:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾ فى الآخرة، ثم جمعها ثانياً فى مخاطبة الله لهم يوم القيامة تقريعاً وتوبيخاً: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴾ (الزخرف: ٣٩)، وهذا الإفراد والجمع باعتبار لفظ «من» ومعناها فى قوله: ﴿ وَمَن يَعۡشُ ...﴾ وهو من الحمل على المعنى، وهو باب عظيم لم تفتح بلاغته حديثاً بعدُ فى القرآن الكريم.

قال أبو السعود ٩٨٢هـ: (وإفراد الضمير فى «جاء» وما بعده، لِما أنَّ المراد حكاية مقالة كلِّ واحدٍ واحدٍ من العاشين لقرينه، لتهويل الأمر، وتفظيع الحال، والمعنى: يستمر العاشون على ما ذُكر من مقارنة الشياطين والصدِّ والحسبانِ الباطلِ، حتى إذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة)[1].

(١) إرشاد العقل السليم : ٦/ ٣٤.

وأرى أنَّ إفرادَ الضمائر وجمعَها هنا مما يتناسب مع خطر خلة السوء؛ فالإفراد أولاً فى ﴿ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ دال على الأصل، وهو استقلال المرء بنفسه فى قبول الهدى أو عدمه، فإذا توجه للضلال عوقب فى الدنيا بقرناء السوء، فيجتمعون على الشر والفساد، ومن هنا جُمعت الضمائر (وَإِنَّهُمْ، لَيَصُدُّونَهُمْ، وَيَحْسَبُونَ، أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) وهم يرون فى اجتماعهم على هذا الفساد قوةً وغلبةً، لكن ما أنْ لبث الأسلوب أنْ رَدَّ عليهم هذا، فأفردت الضمائر: (جَآءَنَا، قَالَ، بَيْنِى، وَبَيْنَكَ) فأفردت لأنها خلة زائفة واهية لبنائها على غير تقوى ورضوان، ثم جُمعت مرة ثانية فى قوله: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ للدلالة على أنهم كما اجتمعوا على الكفر والضلال فهم مجتمعون فى العذاب، لدخول الضرر عليهم من قبل قرنائهم، وهو عذاب فوق العذاب، أو يكون المعنى: لن ينفعكم اشتراككم فى العذاب، كما نفعكم اشتراككم فى الدنيا على المعاصى، فلا يحمل بعضكم حِمل بعض هنا، فأنتم يومئذ مفترقون، فالأسلوب وإن كان ظاهره الجمع بينهم، إلا أنه يدل على عدم نفع هذا الجمع، كما كان فى الدنيا.

ومما يؤيد ذلك فى السورة أيضاً – وهو كثير – استهزاءُ فرعون وقومِه بموسى (عليه السلام): ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ (الزخرف: ٤٧)، والضحك والاستهزاء من آثار خلة السوء وتحريضها على مواجهة الحق، وفى نفس السياق: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ (الزخرف: ٥٤)، ففرعون نفسُه كان زعيمَ خلة السوء، فحملهم على أنْ يَخِفُّوا له ولِمَا أراد منهم، فوجدهم طائشين، فأثرت فيهم شُبَهُهُ[1].

(١) ينظر: المفردات: ١٥٨، الكشاف: ٥/ ٤٥٠.

ثم نرى بعد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ (الزخرف: ٦٢)، فى شأن تدليس عبد الله بن الزبعرى على القوم، بأمر عيسى (عليه السلام) فنبههم القرآنُ على خطر ذلك وعاقبتِه، ثم كانت الآية التى معنا جامعةً لكل ذلك: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: ٦٧).

وكان قطع الاستثناء فى الآية عنصراً بارزاً من عناصر بيان فضل المتقين وما كانت عليه خلتهم فى الدنيا، بما نفعهم فى الآخرة، فقلبت لهم الموازين، وخصوا بالاستثناء من أصل قاعدة الجزاء، فدخل عليهم الخير من حيث لا يتوقعون، وهو أن تنفعهم تلك الخلة، فتكون مصدر سعادة ونعيم لهم فى الآخرة. والله أعلم.

وكذلك الأمر فى:

١٤ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٠ – ٤٢]

فقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾ استثناءٌ منقطعٌ من قوله: ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ إذا كان الضمير فى المستثنى منه للكفار، فيكون استثناءً من غير الجنس، وقدَّره الكسائى بقوله: أى لكن من رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه مَنْ ينفعهم مِن المخلوقين(١).

(١) ينظر: الكشاف: ٥/ ٤٧٦، المحرر الوجيز: ٥/ ٧٦، البيضاوى: ٨/ ٤٣٤، الجامع: ٩/ ٥٩٦٨، الاستغناء: ٣٩٢، البحر المحيط: ٩/ ٤٠٧، إرشاد العقل السليم: ٦/ ٥٣، الشهاب: ٨/ ٤٣٤، الجمل: ٤/ ١٠٩، القونوى: ١٧/ ٣٩٩، التحرير والتنوير: ٢٥/ ٣١٣، د/ عضيمة: ١/ ٣٥٧.

والسورة قائمة على توعد المشركين بيوم القيامة، وما فيه من ألوان العذاب، ثم تختم ببيان ما أعد للمتقين من نعيم، يتخلل ذلك بعض أحداث لقصة سيدنا موسى (عليه السلام) مع فرعون، وإثبات إنكار المشركين للبعث.

فالآيات التى معنا ضمن ما تُوُعِّدَ به المشركون من أحداث يوم القيامة، فهو يومٌ يُفْصَلُ فيه بين الخلائق، ولا يَنفعُ فيه قريبٌ ولا ناصرٌ ولا صديقٌ، لكنَّ عباد الله الذين نالوا رحمته لا ينالهم فى هذا اليوم ما يحتاجون فيه مَنْ ينفعهم من الخلائق، وعلى الرغم من ذلك فإنه يَثبت لهم نوعُ نفعٍ يُدْخِلُ عليهم السرورَ والبهجة، باجتماعهم مع أقربائهم وأحبائهم.

والاستثناء المنقطع فى قوله: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾ بلاغتُه كسابقه، فى كون حقيقة الانقطاع كاشفةً عن بُعْد ما بين المستثنى منه والمستثنى فى الجنس، فالمستثنى من جنس المرحومين المنعَّمين، والمستثنى منه من جنس الكفرة المعذَّبين، لكن تبقى صورة الاتصال دالةً على إثبات نوعِ فضلٍ ومزيدِ تكريمٍ للمستثنى، من حيث مخالفة الأصل العام ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا ﴾، فيثبت لهم شيءٌ من الإغناء والتناصر، من مثل شفاعة بعضهم لبعض بإذن الله، (فيكرم الشافع فيه بقبول شفاعته، ويكرمه بقبول الشفاعة فيه)[1].

وأود أن أُنبه إلى أنَّ هذه الفائدةَ المَبنيَّةَ على مخالفة الأصل تفضيلا للمؤمنين وتكريماً لهم، لا تتأتى على اعتبار هذا الاستثناء متصلاً، وكذلك الأمر فيما سبق من آيات فى نفس المعنى، حيث أجيز فى بعضها الاتصال على تأويل آخر.

(١) نظم الدرر: ٧/ ٨٠.

لأنه قد أجيز هنا مثلاً أنْ يكون الاستثناء متصلاً، إذا كان الضمير فى ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ للعالَم، وليس لخصوص الكفار، وعليه فالمعنى: لا يُغنى قريبٌ عن قريب إلا المؤمنين فإنه يُؤذَن لهم فى شفاعة بعضهم لبعض[1]؛ لأنَّ هذا التقدير يُفوِّت ابتداءً استثناءَ المؤمنين من جنس الكفرة، وهو ما يحمل فى طياته دلالاتٍ لا يؤديها الأسلوبُ على الاتصال؛ إذ أنَّ فى استثنائهم نوعَ تنكيلٍ ومزيدَ إغاظةٍ لهم؛ لأنهم ربما توقعوا أنْ يُستثنَى منهم أحدٌ، فرُدَّ عليهم ذلك.

ثم إنَّ فى جعل الضمير فى قوله: ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ خاصاً بالكافرين، ما يُكَشِّفُ من الدلالة على قصد الإغاظة والتبكيت؛ لأنه إذا كان خاصاً بهم، كان المتوقع أنْ يُستثنَى فريقٌ من جنسهم، فيَثبتُ لهم الإغناءُ والتناصرُ، فربما شَنعوا لباقيهم وأغنوهم عن العذاب، ولكنْ أتى المستثنى المنقطعُ قاطعاً لكل هذه الآمال.

ومثل هذا يقال فيما أُجيز فيه الاتصالُ من الآيات السابقة فى هذا المعنى، كلٌّ بما يناسب معناه، فهذا أصل يمكن أَنْ يُفَرَّق به بين دلالة المتصل ودلالة المنقطع فى هذا المعنى. والله أعلم.

ومن هذا أيضاً:

١٥- قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴾

(المدثر: ٣٨-٣٩)

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٧٦، الجامع: ٩/ ٥٩٦٧ - ٥٩٦٨، البحر المحيط: ٩/ ٤٠٧، زادة: ٤/ ٣١٦، الشهاب: ٨/ ٤٣٤، الجمل: ٤/ ١٠٩، د/ عضيمة: ١/ ٣٥٧.

المعنــى والسيــاق:

تأتى الآيتان عقب توعُّد الله – تعالى – للوليد بن المغيرة، بداية من قوله تعالى: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾ (المدثر: ١١)، فبعد أن أنعم الله عليه بصنوف النعم، كفر بالله ورسوله وقال إن محمداً (ﷺ) ساحر، وما القرآن إلا قول البشر، فتوعده الله بعذاب فى سقر، ثم وصفت بأنها إحدى الكُبَر أى الدواهى العظيمة، فليكن الخلق على حذر من عذابها، وليسلكوا طريق الهدى والحق، فكل إنسان ومشيئته؛ إما أن يمضى فى طريق الرشاد إذا حقق النظر، وإما أن يتأخر عن هذه الرتبة بغفلته وسوء نظره، مع العلم بأن المقصر مرتهن عند الله بسوء عمله، بخلاف أهل الإيمان حيث لم يكتسبوا ما هم به مرتهنون(١).

بيان الاستثناء المنقطع وبلاغته:

قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴾ استثناء منقطع من النفس المرهونة بكسبها، وذلك على جعل المراد بالنفس – فى المستثنى منه – خصوصَ أنفس المنذَرين من البشر، وعلى جعل ﴿ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴾ بمعنى أهل الخير والإيمان عموماً، وهذا هو اختيار ابن عطية ٥٤٦هـ والطاهر ابن عاشور١٣٩٣هـ(٢).

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٣٩٨.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٣٩٨، التحرير والتنوير: ٢٩/ ٣٢٥. قال القرافىّ: (ومعنى الرهن هاهنا: أن النفس تكون كالرهن فى الدين، والوفاء بحقوق الله تعالى هو الدين، والواقع هو التفريط فى حقوق الله تعالى، لاسيما والله تعالى يقول فى حق جميع الخلق ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ ﴾، وإذا فرط العبد فى حقوق الله تعالى أخذت نفسه للعذاب، كما يؤخذ الرهن للبيع، ويحال بين صاحبه وبين الانتفاع بنفسه ... وعلى هذا تكون تسمية هذا المعنى رهناً مجازاً من باب الاستعارة والتشبيه، ويتجه أيضاً على هذا قول المفسرين: إن المراد من حقت عليه كلمة العذاب، فإنه هو الذى حيل بينه وبين الانتفاع بنفسه، وأما من دخل الجنة فقد مكّن من الانتفاع بنفسه) الاستغناء: ٤٠١-٤٠٢.

ومنهم من عده منقطعاً على اعتبار تفسير ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ بالملائكة أو أطفال المسلمين، فإنهم ليسوا بمكلفين بالأعمال حتى يكونوا محبوسين بما عليهم من حق الله تعالى، فلا يدخلون فى المستثنى منه(١).

وقد ذكر البيضاوى ٦٩١هـ هذا القول بصيغة التمريض: (وقيل: هم الملائكة أو الأطفال)(٢)، قال الشهاب ١٠٦٩هـ: (ومرضه لأن إطلاق النفس على الملك غير معروف، ولأنهم لا يوصفون بالكسب أيضاً، وقيل: لأنه يقتضى اختصاصهم باليمين)(٣) ثم أجاز فى الاستثناء الاتصال والانقطاع على تفسير أصحاب اليمين بالأطفال، بناء على أن الكسب مطلق العمل، أو ما هو تكليف(٤)، وأجاز زادة ٩٥٠هـ جعله متصلاً على التفسير بالملائكة والأطفال، إذا كان المراد بالنفس فى المستثنى منه عموم النفس(٥).

وأرى أن اختيار ابن عطية والطاهر هو الأليق بالمقام والسياق؛ لأن كلاً من الملائكة والأطفال ليسوا بأهل تكليف، حتى يُبَالَغَ فى إخراجهم من جنس النفوس المرتهنة بسوء أعمالها.

وبلاغة هذا الاستثناء المنقطع المبالغة فى كمال تمييز أصحاب اليمين وهم أهل المنازل العليا، وأهل فضل الله ونعيمه، من جنس هؤلاء النفوس المرتهنة بسوء أعمالها، فشتان ما بين

(١) ينظر: الاستغناء: ٤٠٢، البحر المحيط: ١٠/ ٣٣٨، الجمل: ٤/ ٤٤٣، إعراب القرآن للنحاس: ٥/ ٧٣، معانى القرآن للزجاج: ٥/ ٢٤٩، القونوى: ١٩/ ٤٣٥، د/ عضيمة: ١/ ٣٣٩.

(٢) البيضاوى: ٩/ ٣٣٥.

(٣) حاشية الشهاب: ٩/ ٣٣٥.

(٤) الشهاب: ٩/ ٣٣٥.

(٥) ينظر: حاشية زادة: ٤/ ٥٧٧.

الفريقين: فريق محبوس بشنيع صنائعه، وفريق مطلق فى روضات الجنات، وطريق الاستثناء المنقطع فى هذا التمييز الكامل نابع من هذه الفجأة التى يحدثها جراء إخراج شيء من غير جنسه، وكأن المعنى: إن كان ثمة من يستحق الاستثناء من هذه النفوس المرتهنة، فهم أصحاب اليمين، وهم ليسوا منهم أصلاً، وهذا ما جعل (أصحاب اليمين) كالبرق الخاطف فى السياق، لأن السياق ما كاد يذكرهم إلا وانتقل من ذكرهم إلى الحديث عن المجرمين وعذابهم وما كان عليه حالهم فى الدنيا، وذلك عن طريق سؤال أصحاب اليمين: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ (المدثر: ٤٢)، فلم يمض السياق فى سرد نعيم أصحاب اليمين، بل ركز على الكافرين، وسياق السورة كلها فى الكافرين، وانظر إلى بدايتها بالإنذار ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ (المدثر : ٢)، فهى خالصة فى توعد المشركين إن لم يؤمنوا ويهتدوا، وقد كان فى الاستثناء المنقطع نوع تهكم بهم وإغاظة لهم؛ لأنه استثنى ما ليس منهم، وقد ساعد قصر الآيات وإيقاعها السريع الرنان على تصور تلك المعانى.

١٦- قال الله تعالى:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (التين : ٤-٦)

المعنى والسياق:

أقسم الله (ﷻ) بالتين والزيتون، وطور سيناء، ومكة، أنه خلق الإنسان فى أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية أعضائه، ثم كان عاقبة أمره أن رُدَّ أسفل سافلين فى حسن الصورة والشكل، فنكسه الله فى خلقه، فقوس ظهره بعد اعتدال، وابيض شعره بعد اسوداد، وتشنن ويبس جلده وكان بضاً رقيقاً، وكل سمعه وبصره وكانا حديدين، وتغير كل شيء منه، فتقاربت خطواته، وخفت صوته، وضعفت قوته[١]، فكان ذلك عبرة منصوبة فى البشر، لا يخرج عن حكمها إلا من ارتضاه الله من أهل الإيمان والصلاح، فحماهم من أرذل العمر، فكانوا كلما ازدادوا سناً زادهم الله فى أنوار عقولهم، ونقص نار شهواتهم، وأعظم من قوى أرواحهم[٢]، فلما حفظوا جوارحهم فى الصغر عن المعاصى والشهوات، حفظها الله عليهم فى الكبر، فشان الهرم نظائرهم فى العمر، ولم يقع بهم ذلك لحفظ الله لهم.

(١) ينظر: الكشاف: ٦/ ٤٠١.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٥٠٠، نظم الدرر: ٨/ ٤٧٤.

بيان الاستثناء المنقطع وبلاغته:

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ استثناء منقطع من الضمير العائد على الإنسان فى قوله: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ على تفسير أسفل سافلين بالهرم(١).

وقدره الزمخشرى ٥٣٨هـ بقوله: (ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم)(٢).

وقال ابن عطية ٥٤٦هـ: (والاستثناء على هذا منقطع، وهذا قول حسن، وليس المعنى أن كل إنسان يعتريه هذا، بل فى الجنس من يعتريه ذلك (أى الهرم)، وهذه عبرة منصوبة، ثم أخبر أن ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وإن نال بعضهم هذا فى الدنيا فلهم فى الآخرة أجر غير ممنون)(٣).

وتقدير ابن عطية عندى أليق بأسلوب الاستثناء المنقطع من تقدير الزمخشرى؛ لأن تقدير ابن عطية اعتبر وجود صلة بين المستثنى والمستثنى منه، فبعض المؤمنين شملهم الاستثناء فلم يهرموا، والبعض أصابه الهرم فلهم أجر غير ممنون فى الآخرة، أما تقدير

---

(١) أما على تفسيره بالنار فهو متصل. ينظر: الكشاف: ٦/ ٤٠١-٤٠٢، المحرر الوجيز: ٥/ ٥٠٠، مفاتيح الغيب: ٣٢/ ١١، الدر المصون: ٦/ ٥٤٤، الجامع: ١٠/ ٧٢٠٥، البيضاوى: ٩/ ٥٢٣، البحر المحيط:

١٠/ ٥٠٣-٥٠٤، زادة: ٤/ ٦٧٢-٦٧٣، إرشاد العقل السليم: ٦/ ٤٤٧، الجمل: ٤/ ٥٥٩، روح المعانى: ٣٠/ ٢٢٥، د/ عضيمة: ١/ ٣٥٨ – ٣٥٩.

(٢) الكشاف: ٦/ ٤٠٢.

(٣) المحرر الوجيز: ٥/ ٥٠٠.

الزمخشرى، فلم يراع الاستثناء، بل ربط المستثنى بما بعده، فأضاع معنى إخراج المستثنى من المستثنى منه ولو توهماً، فأنقص معنى لا يفاد إلا بالاستثناء، واعتمد على المعنى الذى أفاده الاستئناف بأن لهم أجراً غير ممنون.

وقرر الشيخ زادة ٩٥٠هـ أن الانقطاع هنا انقطاع فى الحكم، فقال – بعدما أجاز تفسير ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ بأرذل العمر -: (فحينئذ يكون الاستثناء منقطعاً؛ لأن أهل الإيمان والطاعة المخرجين عن كونهم مردودين إلى أرذل العمر، قد أثبت لهم حكم توهم عدم ثبوته لهم بسبب بلوغهم إلى أرذل العمر وعجزهم عما فعلوه زمان الاقتدار عليه، فيكون «إلا» بمعنى « لكن»، والمعنى: ولكن الصالحين من الهرمى فلهم أجر وثواب دائم غير ممنون، أى غير منقطع، بسبب طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله – تعالى – إياهم بالشيخوخة والهرم، فإن المؤمن إذا عمل فى حال شبابه وقوته وحياته، فإذا هرم أو مرض أو مات، فإنه يكتب له حسناته بتمامها، كما كان يعمل فى حياته وقوته إلى يوم القيامة)[1].

فالحكم الذى أثبت للمؤمنين هو دوام أجرهم مع بلوغهم أرذل العمر، بسبب صبرهم على الطاعة فى حال شبابهم وصحتهم، وهو حكم كان يتوهم عدم ثبوته لهم، كما قال الشيخ زادة.

قلت: وهذا أيضاً فيه اعتماد على ما بعد «إلا» من استئناف كلام جديد، ولا يراعى أصل دلالة الإخراج؛ لأن الواضح والذى يحتاج إلى كشف عن سره، هو أن المؤمنين مخرجين من ردهم إلى أرذل العمر، ولا ريب أن هذه منزلة وتكريم لطائفة خاصة من أهل الإيمان.

فأرى أن بلاغة هذا الاستثناء تكمن فى تكريم فئة خاصة من أهل الإيمان والطاعة الذين عبدوا الله حق عبادته، فأخرجوا من عواقب الرد إلى أرذل العمر من مثل شدة الضعف وذهول العقل ووهن الأعضاء وعدم القدرة على التعبُّد، وذلك مع كبر سنهم، فأفاد

(١) حاشية زادة : ٤/ ٦٧٣.

الانقطاع خروجهم من الأحكام التى تعترى هذا الرد من خَلْق وخُلُق، وأفاد مجئ المنقطع على صورة المتصل أنهم مع ذلك قد بلغوا طول العمر.

والمشاهد لحال المسلمين فى كل عصر لا يخطئ وجود مثل هؤلاء العبَّاد، لكنهم قليل، فترى الرجل بلغ السبعين والثمانين ويزيد، ويتحمل من الصلاة والصيام والحج ما لا يقوى عليه الفتوة من الشباب، وهى مشاهد تحقق هذا الاستثناء وتجعله واقعاً، وإن كان قليلاً[1].

فنلاحظ إذن أن تكريم هذه الفئة المؤمنة جاء من الجمع بين هذين المتناقضين: كبر السن، وعدم الهرم، ولم يتحقق ذلك إلا بقطع الاستثناء.

ثم يأتى قوله تعالى: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ استئنافاً يقرر هذا المعنى، عن طريق بيان أنهم لمّا واصلوا العبادة واستمروا على الطاعة مع كبر سنهم، دام أجرُهم ولم ينقطع، ثم إنهم إنْ كبروا وأصابهم الهرم، فعجزوا عن عبادتهم، كُتب لهم مثلُ ما كانوا يعملونه فى صحتهم.

اعتراض لابن كثير والرد عليه:

وقد اعترض الحافظ ابن كثير ٧٧٤هـ على تفسير ﴿ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ بالرد إلى أرذل العمر، مع أنه مروى عن ابن عباس وعكرمة، وهو اختيار الطبرى ٣١٠هـ، قال ابن كثير: (ولو كان هذا هو المراد لما حَسُنَ استثناءُ المؤمنين من ذلك؛ لأنَّ الهرم قد يُصيب بعضَهم، وإنما المراد ما ذكرناه، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ

(١) من ذلك ما رواه ابن رجب الحنبلى، قال: (كان بعض العلماء قد جاوز المائة سنة وهو ممتع بقوته وعقله، فوثب يوما وثبة شديدة، فعوتب في ذلك، فقال : هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر) جامع العلوم والحكم: ١/ ٤٦٧. مؤسسة الرسالة ١٤٢٢-٢٠٠١.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1] ففسّره بالنار هنا، وفسَّر «الخسر» فى سورة العصر بالهلاك.

وأقول أولاً: إنَّ تفسير أسفل سافلين بالهرم مرويٌّ عن كثير من الصحابة والتابعين، وأقره وأجازه جمهورُ المفسرين، وما اعترض به ابنُ كثير من أنَّ الهرم قد يُصيب بعض المؤمنين مما يُخل بالاستثناء؛ مردودٌ عليه بأنهم لَمَّا أجازوا ذلك جعلوا المعنى: لكن الذين كانوا صالحين من الهرمى لهم أجر غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة، وعلى صبرهم على الطاعة فى حال صحتهم، ثم أوردوا نصوصاً من السنة تثبت أنه يُكتَب للمؤمن فى مرضه وهرمه مثل ما كان يعمله من صالحات فى صحته وشبابه.

وثانياً: ليس من الضرورى أن يكون الاستثناء شاملاً لكل المؤمنين، بل يرشد إلى أنَّ ثمة فريقاً منهم يُكرمه اللهُ بمثل هذا التكريم، كما يُكرم فِرقاً أخرى منهم بأنواع أخرى من التشريف والتفضيل؛ فيكون فى كلٍّ عبرة شاهدة على علوّ المؤمنين جملةً على الشرك وأهله.

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٢٧.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين،وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ..

فهذا إجمال لأهم نتائج هذه الدراسة:

١. يعد أسلوب الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم من عوامل ثراء المعنى القرآنى، ومن العناصر التركيبية التى تضمن له حفظه كمعجزة بيانية خالدة إلى يوم الدين، وذلك بما فى طبيعة هذا الأسلوب من خفاء وإيهام دلالى، ومن ثم فإن مواضعه بحاجة مستمرة إلى نظر وتدبر.

٢. أَكَّد البحثُ على ضرورة استكمال نظرية النظم التى أبدعها الإمام عبد القاهر، فثمة أساليب عربية كثيرة لم يوفها البلاغيون حقها من الدرس وعمق النظر، وربما لم يتناولوها أصلاً، فبقيت أرضاً يابسة لا تُنبت ما يُعجب فى الدراسات التحليلية؛ لعدم وجود تنظير طويل ومقنع لها، فَضَلَّ الباحثون سبيلَ فَهْمِ أسرارها، فإذا قابلهم أحدُ تلك الأساليب فى تحليل أى نص أعرضوا عنه؛ وقالوا: هذا اشتغال، أو تنازع، أو استثناء منقطع ، أو حمل على المعنى ...، فيفوت بذلك خير كثير، سيما إذا كان النصُّ قرآنياً شريفاً كريماً، وكان التركيبُ كلُّه مبنياً على هذا الأسلوب.

٣. لذلك حاولت الدراسةُ أَنْ تُمهد طريقاً، وتفتح مدخلاً، إلى فهم أسرار بلاغة الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم، من خلال تحليل ستة عشر موضعاً له فى كتاب الله تعالى، مراعياً فى ذلك الاستعانة بدلالات وأساليب وأغراض السياق البعيد والقريب لهذا الأسلوب، أملاً فى تحرير دلالات وإشارات خاصة بكل موضع فى مقامه الخاص، بعيداً

عن تكرار تلك الفوائد المنطقية الجدلية التى استحوذت على الدرس البلاغى قديماً وحديثاً، وأحسب أن هذا السبيل قد هدانى إلى ما قصدت إليه، فكثيراً ما كان يخرج هذا الأسلوب عن كونه دعوى شيء ببينة، إلى أسرار أخرى خاصة بكل سياق.

٤. كشف البحث عن أن الطريق الأبرز فى فهم أسرار هذا الأسلوب فى القرآن الكريم يتمثل فى أمرين: الأول: تتبع السياق وحشد المتشابه فى المعانى والأساليب. والثانى: الانطلاق من أن هذا الأسلوب يرتكز على الجمع بين المتناقضات، فيكون للانقطاع دلالة، ولظاهر الاتصال إشارات وإيحاءات أخرى.

٥. أشارت الدراسة إلى تكلف النحاة فى بعض مواضع درسهم لهذا الأسلوب، وذلك حين تصوروا فيه المجاز من عدة وجوه لا تناسب سياقات فصيح الكلام، ولا تعين على فهم قويم وتصور صحيح لدقائق هذا الأسلوب.

٦. نبَّه البحثُ إلى مخاطر التأويل والتقدير على البلاغة القرآنية، ذلك التقدير الذى يشيع فى كتب النحاة ويعتمد عليه كثير من أهل التفسير، مما يمثل خطراً عظيماً على كون اللفظ القرآنى هو مناط الإعجاز دون ما يُقَدَّرُ به، وهذا خطر ترى آثاره فى تحليلات بلاغية كثيرة للقرآن، تعتمد على تقديرات النحاة، وتُنحِّى اللفظَ القرآنى المعجز دون وعى أنهم بذلك يخرجون عن تحليل النص القرآنى الذى وقع به التحدى، إلى تحليل تقديرات النحاة. وكان وضع «لكن» موضع «إلا» فى الاستثناء المنقطع شاهداً على هذا الخطر، على الرغم من إقرارهم بأن «إلا» لا تنفك أبداً عن الإخراج المحقَّق أو المتوَهَّم.

٧. أثبت البحثُ عدمَ عناية البلاغيين بأسلوب الاستثناء المنقطع عنايةً تليق بهذا الأسلوب الدقيق الموحى، خاصة فى رحاب الإعجاز القرآنى؛ فتناولوا بعض شواهده فى علم

البديع، وكان تناولهم سطحياً خالياً من التعمق، ثم أخذ اللاحقون يكررون نفس كلام السابقين فى القاعدة والمثال، حتى امتد أثر ذلك إلى جمهور المحدثين.

٨. نبَّه البحثُ إلى ندرة إشارات المفسرين فى بلاغة الاستثناء المنقطع، وكثيرٌ من هذا النادر يعتمد على السر المنطقى البلاغى الذى ذكره القزوينى، وهو ما يتكرر فى كل مقام وسياق دون مراعاة لخصائص تلك السياقات وما تتيحه من معان، ومما نأى بهم عن ذلك شُغلُهم بمجرد ذكر الخلاف فى كون الاستثناء متصلاً أو منقطعاً.

٩. غلب على البلاغيين المحدثين المحافظين تناولُ هذا الأسلوب بنفس تناول السابقين، ولم يتعد كثير منهم شواهد السابقين القليلة، وكان أستاذنا الدكتور صبَّاح دراز مبرَّزاً بين هؤلاء بعنايته الكبيرة بأسلوب الاستثناء عموماً فى القرآن الكريم، فظهرت له تعليقات قيمة فى كتابه {بحوث بلاغية فى علم البديع} لكن كانت عنايته بالاستثناء المفرغ أعظم من الاستثناء المنقطع بكثير.

١٠. كشفت الدراسة عن اقتصار جهود (الحداثيين والبنيويين) على تكرير كلام القدماء فى هذا الباب، لكن بمفردات ومصطلحات جديدة (المفارقة، المستوى السطحى، المستوى العميق ...)، وإن لم يستطيعوا الاستغناء عن كثير من مفردات ومصطلحات التراث، وقد وقع بعضهم فى أخطاء فاحشة عند تطبيق هذا الأسلوب على شعر المتنبى، فأدخلوا فيه ما ليس منه.

١١. أنف بعض الحداثيين من ذكر مصطلحى الاتصال والانقطاع فى شرحهم لطبيعة الدلالة فى الاستثناء المنقطع، فبقدر ما كانوا يتقربون إلى المصطلح الغربى الجديد، كانوا يُميتون – بوعى أو بدون وعى – مصطلحاتنا القديمة.

١٢. أوضحت الدراسة أنَّ جهوداً عظيمة فاتت على البلاغة وأهلها، وبخاصة فى مجال الإعجاز القرآنى، جراء شغف كثير من الحداثيين بإحلال المصطلح الغربى مكان المصطلح القديم، مما قطع علينا الطريقَ إلى التطور البلاغى.

ومن أهم توصيات البحث:

١. ضرورة استكمال دراسة مواضع الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم دراسة بلاغية، تعتمد على إشارات السياق، لاكتشاف معان جديدة فى التفسير.

٢. حاجة البلاغة القرآنية إلى دراسات جديدة تكمل دراسة الأساليب العربية فى القرآن الكريم، ومنها: التنازع، الاشتغال، الحمل على المعنى، الاستثناء المفرغ.

٣. تجنيد مجموعة من خيرة الباحثين لدراسة (ظواهر مخاطر التأويل على البلاغة القرآنية).

٤. تعديل مناهج طلاب العلم فى باب تأكيد المدح بما يشبه الذم، بما يُمكِّنهم من دراسة البلاغة القرآنية فى هذا الباب.

وأخيراً أسأل الله العلى القدير أنْ يجعل هذا العملَ خالصاً لوجهه الكريم، وأنْ يعفو عما فيه من زلل ونقص، وأن يَنفعَ به، وأنْ يجعله ذكراً محصِّلاً عاجلَ البشرى لى ولأبى وأمى وجميع أهلى، إنه ولى ذلك والقادر عليه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الأخيار وسلم تسليماً كثيراً.

فرغت منه ليلة الجمعة ٨ من ربيع الآخر ١٤٣٣هـ

١ من مارس ٢٠١٢ م

دكتور/ وليد إبراهيم عودة

المصادر والمراجع

١. الإتقان فى علوم القرآن، للسيوطى. ت: محمد أبو الفضل إبراهيم . دار التراث بدون.

٢. الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح الحنبلى – دار أحد. بدون.

٣. ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبى حيان الأندلسى. ت: رجب عثمان محمد. مكتبة الخانجى ط أولى ١٤١٨ – ١٩٩٨.

٤. إرشاد العقل السليم، لأبى السعود . ت: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١٩ – ١٩٩٩.

٥. الاستثناء فى القرآن الكريم – دراسة تفسيرية، د/ أبو بكر السيد الباز . مطبعة الشروق بالراهبين ٢٠٠١.

٦. الاستغناء فى الاستثناء، للقرافى، ت: محمد عبد القادرعطا . دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

٧. الأساليب الإنشائية فى البلاغة العربية، د/ عبد العزيز أبو سريع ياسين. ط السعادة أولى ١٤١٠ – ١٩٨٩.

٨. الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم، د/ صبَّاح دراز. الأمانة ط أولى ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

٩. الأصول فى النحو، لابن السراج. ت: عبد الحسين الفتلى – مؤسسة الرسالة بدون.

١٠. الأطول على التلخيص، لعصام الدين الإسفراييني . المطبعة السلطانية ١٢٨٤هـ.

١١. إعجاز القرآن، للباقلانى . ت: أبو بكر عبد الرازق – مكتبة مصر ١٩٩٤م.

١٢. إعراب القرآن الكريم، للنحاس . ت: د/ زهير غازى . عالم الكتب ط ثالثة ١٤٠٩-١٩٨٨.

١٣. الأقصى القريب فى علم البيان، للتنوخى . مطبعة السعادة – أولى ١٣٢٧هـ.

١٤. الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، لابن المنير (بهامش الكشاف).

١٥. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوى (مطبوع مع حاشية الشهاب).

١٦. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام . ت: محمد محيى الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية ١٤١٦ – ١٩٩٥.

١٧. الإيضاح، للقزوينى. ت: د/ محمد عبد المنعم خفاجى – دار الجيل – بيروت ط ثانية ١٤١٤ – ١٩٩٣.

١٨. البحر المحيط، لأبى حيان الأندلسى. ت: صدقى محمد جميل – دار الفكر ١٤١٢– ١٩٩٢.

١٩. بحوث بلاغية فى علم البديع، د/ صبَّاح دراز . الأزهر للطباعة ١٤١٧ – ١٩٩٧.

٢٠. البدل المفرد فى القرآن الكريم مواقعه وأسراره البلاغية، د/ وليد حمودة – رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية بإيتاى البارود ١٤٢٩ – ٢٠٠٨.

٢١. بدائع الفوائد، لابن القيم . ت: سيد عمران، عامر صلاح – دار الحديث ١٤٢٣– ٢٠٠٢.

٢٢. بديع القرآن، لابن أبى الإصبع، ت: د/ حفنى محمد شرف – نهضة مصر ط ثانية ١٣٩٢ – ١٩٧٢.

٢٣. البديع، لابن المعتز، ت: د/ محمد عبد المنعم خفاجى – دار الجيل ط أولى ١٤١٠– ١٩٩٠.

٢٤. البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، د/ جميل عبد المجيد . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م.

٢٥. البديع فى البديع، لأسامة بن منقذ . ت: عبدا على مهنا، دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

٢٦. البديع فى ضوء أساليب القرآن، د/ عبد الفتاح لاشين . دار الفكر العربى ٢٠٠١م.

٢٧. البديع المصطلح والقيمة، د/ عبد الواحد علام . دار الكتاب الجامعى – الكويت ط ثانية ١٩٩٦م.

٢٨. البديع من المعانى والألفاظ، د/ عبد العظيم المطعنى . وهبة ط أولى ١٤٢٣ – ٢٠٠٢.

٢٩. البديع وفنونه مقاربة نسقية بنيوية، د/ شكرى الطوانسى . مكتبة الآداب ط أولى ٢٠٠٨م.

٣٠. البرهان فى علوم القرآن، للزركشى . ت: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار التراث ١٣٧٦ – ١٩٥٧.

٣١. بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، للفيروزابادى، ت: محمد على النجار. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٣١ – ٢٠١٠.

٣٢. البلاغة العربية قراءة أخرى، د/ محمد عبد المطلب . الشركة المصرية العالمية للنشر – ط أولى ١٩٩٧.

٣٣. بناء المفارقة دراسة بلاغية تحليلية شعر المتنبى نموذجاً، د/ رضا كامل – مكتبة الآداب ط أولى ١٤٣١ – ٢٠١٠.

٣٤. التبيان فى البيان، للطيبى . ت: د/ عبد الستار زموط، دار الجيل ط أولى ١٤١٦-١٩٩٦.

٣٥. التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، لابن الزملكانى. ت: د/ أحمد مطلوب، د/ خديجة الحديثى . مطبعة العانى – بغداد بدون.

٣٦. تحرير التحبير، لابن أبى الإصبع، ت: حفنى شرف . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٦ – ١٩٩٥.

٣٧. التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور، دار سحنون – تونس . بدون.

٣٨. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، مكتبة الدعوة الإسلامية . بدون.

٣٩. توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادى، ت: عبد الرحمن سليمان . دار الفكر العربى ط أولى ١٤٢٨ – ٢٠٠٨.

٤٠. الجنى الدانى فى حروف المعانى، للمرادى . ت: د/ فخر الدين قباوة، محمد فاضل . دار الكتب العلمية ط أولى ١٤١٢ – ١٩٩٢.

٤١. جامع البيان فى تفسير القرآن، للطبرى . دار المعرفة – بيروت ١٤٠٣ – ١٩٨٣.

٤٢. جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلى . مؤسسة الرسالة ١٤٢٢-٢٠٠١.

٤٣. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى. دار الريان للتراث . بدون.

٤٤. الحذف والتقدير فى النحو العربى، د/ على أبى المكارم، دار غريب ط أولى ٢٠٠٧م.

٤٥. حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوى (بهامش حاشية القونوى).

٤٦. حاشية الجمل على الجلالين . دار الفكر . بدون.

٤٧. حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل . ت: تركى فرحان. دار الكتب العلمية ط ثانية ١٤٢٦ – ٢٠٠٥.

٤٨. حاشية الدسوقى (ضمن شروح التلخيص) دار الإرشاد الإسلامى . بدون.

٤٩. حاشية زادة على البيضاوى . دار إحياء التراث العربى – بيروت . بدون.

٥٠. حاشية الشهاب على البيضاوى . ت: عبد الرازق المهدى – دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١٧ – ١٩٩٧.

٥١. حاشية الصبان على شرح الأشمونى، ت: محمود بن الجميل . مكتبة الصفا ط أولى ١٤٢٣ – ٢٠٠٢.

٥٢. حاشية عبد الحكيم السيالكوتى (مطبوع مع فيض الفتاح للشربينى) مطبعة مدرسة والدة عباس الأول ط أولى ١٣٢٣ – ١٩٠٥.

٥٣. حاشية القونوى على البيضاوى . ت: عبد الله محمود محمد، دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٥٤. دراسات لأسلوب القرآن الكريم، د/ محمد عبد الخالق عضيمة . دار الحديث ١٣٩٢ – ١٩٧٢.

٥٥. دراسات منهجية فى علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت . ط أولى ١٤١٤ – ١٩٩٤.

٥٦. الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبى، ت: على محمد عوض وآخرون . دار الكتب العلمية ط أولى ١٤١٤ – ١٩٩٤.

٥٧. دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجانى. ت: الشيخ محمود شاكر. المدنى ط ثالثة ١٤١٣ – ١٩٩٢.

٥٨. ديوان النابغة الذبيانى. ت: الشيخ الطاهر ابن عاشور – الشركة التونسية ١٩٨٦م.

٥٩. رؤى فى البلاغة العربية دراسة تطبيقية لمباحث علم البديع، د/ أحمد محمود المصرى . دار الوفاء ط أولى ٢٠٠٨م.

٦٠. الرسالة القشيرية، لأبى القاسم عبد الكريم القشيرى. ت: هانى الحاج – المكتبة التوفيقية. بدون.

٦١. روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، للألوسى – دار الفكر ١٤٠٣ – ١٩٨٣.

٦٢. شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك (بهامش حاشية الصبان).

٦٣. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ت: محمد محيى الدين عبد الحميد . دار التراث ط ٢٠ سنة ١٤٠٠ – ١٩٨٠.

٦٤. شرح ابن طولون على ألفية ابن مالك، ت: د/ عبد الحميد جاسم . دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٢٣ – ٢٠٠٢.

٦٥. شرح التسهيل لابن مالك، ت: محمد عبد القادر عطا، طارق فتحى. دار الكتب العلمية ١٤٢٢ – ٢٠٠١.

٦٦. شرح التسهيل لناظر الجيش ط دار السلام.

٦٧. شرح التصريح على التوضيح، لخالد الأزهرى، ت: محمد باسل. دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٢١ – ٢٠٠٠.

٦٨. شرح جمل الزجاجى، لابن عصفور، ت: فواز الشعار . دار الكتب العلمية ط أولى ١٤١٩ – ١٩٩٨.

٦٩. شرح الرضى على الكافية، ت: عبد العال سالم مكرم . عالم الكتب ط أولى ١٤٢١ – ٢٠٠٠.

٧٠. شرح الكافية الشافية، لابن مالك، ت: على معوض، عادل عبد الموجود. دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٢٠ – ٢٠٠٠.

٧١. شرح المفصل، لابن يعيش ، مكتبة المتنبى بدون.

٧٢. شرح المفصل، للخوارزمى، ت: عبد الرحمن العثيمين. العبيكان ط أولى ١٤٢١-٢٠٠٠.

٧٣. شرح المقرب، لابن عصفور، ت: د/ على محمد فاخر . دار الطباعة المحمدية ط أولى ١٤١٤ – ١٩٩٤.

٧٤. الشعر الجاهلى - دراسة فى منازع الشعراء، د/ محمد أبو موسى. وهبة ط أولى ١٤٢٩-٢٠٠٨.

٧٥. الصبغ البديعى فى اللغة العربية، د/ أحمد إبراهيم موسى، دار الكتاب العربى ١٣٨٨-١٩٦٩.

٧٦. الصناعتين، لأبى هلال العسكرى، ت: د/ مفيد قميحة – دار الكتب العلمية ط ثانية ١٤٠٩-١٩٨٩.

٧٧. الطراز، للعلوى. ت: محمد عبد السلام شاهين . دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤١٥ – ١٩٩٥.

٧٨. عروس الأفراح، للسبكى (ضمن شروح التلخيص).

٧٩. علم البديع، د/ بسيونى فيود. مؤسسة المختار ط ثانية ١٤١٨-١٩٩٨.

٨٠. العمدة، لابن رشيق، ت: محمد محيى الدين عبد الحميد. دار الجيل ط خامسة ١٤٠١-١٩٨١.

٨١. فن البديع، د/ عبد القادر حسين. دار الشروق ط أولى ١٤٠٣ – ١٩٨٣.

٨٢. فن البديع، د/ محمد حسن حجازى – بدون.

٨٣. الكتاب، لسيبويه. ت: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩.

٨٤. الكشاف، للزمخشرى. ت: عادل عبد الموجود، على معوض. العبيكان ط أولى ١٤١٨ – ١٩٩٨.

٨٥. لسان العرب، لابن منظور. ت: عبد الله الكبير وآخران. دار المعارف ط ثالثة. بدون.

٨٦. المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، ت: عبد السلام محمد. دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٢٢ – ٢٠٠١.

٨٧. المذاهب الأدبية والنقدية، د/ شكرى محمد عياد. سلسلة عالم المعرفة رقم ١٧٧.

٨٨. المرايا المقعرة، د/ عبد العزيز حمودة . سلسلة عالم المعرفة رقم ٢٧٢.

٨٩. المطول، لسعد الدين التفتازانى (مطبوع مع فيض الفتاح).

٩٠. معجم القراءات القرآنية، د/ عبد اللطيف الخطيب – دار سعد الدين. بدون.

٩١. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقى. دار الحديث ط ثانية ١٤٠٨ – ١٩٨٨.

٩٢. معانى القرآن وإعرابه، للزجاج. ت: د/ عبد الجليل عبده شلبى، عالم الكتب أولى ١٤٠٨ – ١٩٨٨.

٩٣. مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام. ت: محمد محيى الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية – بيروت ١٤١٦ – ١٩٩٥.

٩٤. مفتاح العلوم، للسكاكى . ت: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية ط ثانية ١٤٠٧ – ١٩٨٧.

٩٥. مفاتيح الغيب، للرازى. دار الفكر ط ثانية ١٤٠٣ – ١٩٨٣.

٩٦. المفردات فى غريب القرآن، للراغب الأصفهانى. ت: وائل عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية – بدون.

٩٧. المفارقة القرآنية – دراسة فى بنية الدلالة، د/ محمد العبد . دار الفكر العربى ط أولى ١٤١٥ – ١٩٩٤.

٩٨. المقاصد النحوية فى شرح شواهد الألفية (شرح الشواهد الكبرى)، للعينى، ت: محمد باسل. دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٢٦ – ٢٠٠٥.

٩٩. ملاك التأويل، للغرناطى . ت: سعيد الفلاح. دار الغرب ط أولى ١٤٠٣ – ١٩٨٣.

١٠٠. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجنى، ت: محمد الحبيب بن الخوجة . دار الآفاق العربية بدون.

١٠١. مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب، للأستاذ أمين الخولى – دار المعرفة ط أولى ١٩٦١.

١٠٢. مواهب الفتاح، لابن يعقوب (ضمن شروح التلخيص).

١٠٣. نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، للبقاعى. ت: عبد الرازق المهدى. دار الكتب العلمية – بيروت ط ثانية ١٤٢٤ – ٢٠٠٣.

١٠٤. همع الهوامع شرح جمع الجوامع، للسيوطى. ت: د/ عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب ١٤٢١ – ٢٠٠١.

١٠٥. وشى الربيع بألوان البديع، د/ عائشة حسين فريد. دار قباء ٢٠٠٠م.

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
- المقدمة	١٣٦٩
- **المبحـــث الأول**: درس النحاة تعريف الاستثناء – الاستثناء المتصل والمنقطع – منشأ الخلاف – الحكم الإعرابى للاستثناء المنقطع – تقدير «لكن» - جهود القرافى – جهود ابن القيم	١٣٧٤
- **المبحث الثانى** : درس البلاغيين الاستثناء المنقطع فى دراسات القدماء – جهد المتأخرين فى تحرير قواعد هذا الباب – تقسيم القزوينى – غرض هذا الأسلوب – أين القرآن فى دراستهم؟ - جهود المحدثين – تعليق ومدخل	١٣٩١
- **المبحث الثالث**: من آيات الاستثناء المنقطع فى القرآن الكريم – مدخل بلاغى تحليلى	١٤٢٩
١- قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة : ٧٨]	١٤٢٩
٢- قولـــه تعـــالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٢٢]	١٤٤٦

٣- قولــه تعــالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ [النساء : ١٥٧]	١٤٦٤
٤- قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم : ٦٢]	١٤٧٨
٥- قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ [الواقعة : ٢٥-٢٦]	١٤٧٨
٦- قولــه تعــالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى : ٢٣]	١٥١٠
٧- قولـه تعـالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٩-٢١]	١٥٢١

٨- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩]	١٥٢٨
٩- قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]	١٥٢٨
١٠- قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات: ٣٨ - ٤٠]	١٥٢٨
١١- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات: ٧٢ - ٧٤]	١٥٢٨
١٢- قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات: ١٥٨ - ١٦٠]	١٥٢٨

١٣- قولـه تعـالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٦ – ٦٧]	١٥٢٨
١٤- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٠ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤١ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٠- ٤٢]	١٥٢٩
١٥- قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴾ [المدثر: ٣٨ – ٣٩]	١٥٢٩
١٦- قولــه تعــالى: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾ [التين : ٤ – ٦]	١٥٢٩
- الخاتمة	١٥٧٤
- المصادر والمراجع	١٥٧٨
- فهرس الموضوعات	١٥٨٧